

عدد خاص
سياسية عربية
كل الحقيقة للجماهير
AL HADAF
الهدف
خمسون عاما على النكبة
فلسطين
أسئلة متجددة..
واشتباك مستمر..



لوحة للفنان الفلسطيني زهدي العدوي

AL-HADAF

الهدف

«الهدف» ١٥ ايـار ١٩٩٨ - العدد ١٢٨١
السنة الثامنة والعشرون - الثمن ٤٠ ل.س/ ٢٠٠٠ ل.ل
AL - HADAF - No. 1281 - 15/5/1998

سياسية عربية ـ تصدر مؤقتاً كل أسبوعين



المشرف العام
د. ماهـر الطاهـر
رئيس التحرير
نصـار ابراهيـم
سكرتير التحرير
خليـل جنـداوي
مدير الادارة
محمد خير الاسعد
المدير الفني
زهـدي العـدوي

ثمن النسخة

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل / سوريا ٤٠ ل.س / الأردن دينار واحد / العراق ٢٠ د.ع / الإمارات ٢٠ درهم / الجزائر ٣٠ دينار / ليبيا ديناران / تونس ٢,٥ دينار / [illegible] ٣٠ ريالاً / السودان ١٢ جنيه / المغرب ٢٠ درهم / أمريكا وكندا ٦ دولار / ألمانيا ١٠ ماركات / أسبانيا ٦٠٠ بيزيته.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي بما فيها أجور البريد
سوريا ٦٠٠ ل.س/ لبنان والأردن ٣٠ دولارا/ بقية الدول العربية ٥٠ دولارا/ أوروبا ١٢٥ دولارا/ آسيا وافريقيا ١٠٠ دولارا/ الامريكتين، واستراليا ١٥٠ دولارا

☆ يتم الاشتراك بارسال اشعار الايداع بقيمة الاشتراك السنوي (أو نصف السنوي) على العنوان التالي: بنك بيروت والبلاد العربية
شتورا ـ لبنان
رقم الحساب AC.NO.22094
☆ أو بارسال شيك بنكي باسم «الهدف» دمشق/ ص.ب ٣٠١٩٢

المكاتب

المقر الرئيسي: دمشق - مخيم اليرموك
هاتف: ٦٣٢٨٢٦٧
٦٣١٩٣٧٤
فاكس: ٦٣٢٥٤٨٦
٣٣٢٩٣٢٦
ص.ب: دمشق - ٣٠١٩٢
عمان: ٦٩٦٣٤٠
الجزائر: ٥٩٤٥٤٨
٣٨٤٣٠٤
بغداد: ٧١٩١٦٢٢
٧١٧٤٧١٠

في هذا العدد

■ خمسون عاماً على النكبة: حقائق تاريخية ودروس المستقبل .... د. جورج حبش ٦
■ فلسطين قضية قومية... مسؤولية قومية........ أبو علي مصطفى ١٣
■ خطاب إلى الشهيد البطل عبد القادر الحسيني .... فاروق القدومي ١٦
■ دعوة إلى انشاء المركز العربي لمقاومة الارهاب الصهيوني .... د. أنيس صايغ ١٧
■ ٥٠ عاماً على النكبة، صراع متواصل ومواجهة مفتوحة .... د. ماهر الطاهر ٢٢
■ الهدف تحاور المفكر العربي المصري أحمد نبيل الهلالي .... حاوره: هاني عياد ٢٤
■ في الذكرى الخمسين لقيام الكيان الصهيوني.. الحاجة ماسة إلى تأكيد الثوابت ..... سعيد سيف ٢٨
■ اليسار المصري والصراع العربي الاسرائيلي .... د. رفعت السعيد ٣١
■ في الذكرى الخمسين لعام النكبة: لماذا؟ ثم ماذا بعد؟ .... دانيال نعمة ٣٦
■ بعد خمسين عاماً: من فلسطين.. إلى «مستوطنات فلسطينية» .... حلمي شعراوي ٣٨
■ الحركة الصهيونية خطر يهدد الاحرار في كل العالم .... د. عمار بكداش ٤٠
■ بيضة الأفعى الانجليزية .... نصر شمالي ٤٥
■ كوفي أنان: اعتذار لاسرائيل وشهادة حسن سلوك .... د. عبد الحسين شعبان ... ٤٨
■ خمسون عاماً على النكبة، معادلات الهبوط العربي وجذوة المقاومة .... ابراهيم البدراوي ٥٠
■ في غياب موقف قومي: أهمية ومعنى الوحدة الوطنية الفلسطينية .... ميشيل كيلو ٥٢
■ القضية الفلسطينية بعد خمسين عاماً من النكبة .... د. أحمد برقاوي ٥٥
■ لكي نجيد التذكر .... د. سيد البحراوي ٥٨
■ ٥٠ عاماً على قيام اسرائيل: تساؤلات مازالت تطرح نفسها .... ماجد كيالي ٥٩
■ حربنا وحربهم... نظرة سريعة على بعض الديناميات الصهيونية .... خليل جنداوي ٦٢
■ التحالف الأمريكي - الاسرائيلي: نقض وهم اليد الخفية .... أحمد جابر ٦٥
■ خمسون عاماً على النكبة: اثر النكبة على الفلسطينيين .... سمير الزبن ٦٨
■ جذور السجل الارهابي للصهيونية عبر التاريخ .... حمدان حمدان ٧٠
■ الحركة الصهيونية نشاز تاريخي .... د. عدنان مسلّم ٧٢
■ الرواية... الحنين... المنفى
«الرب لم يسترح في اليوم السابع» لرشاد أبو شاور نموذجاً .... علي الكردي ٧٤
■ محمد ملص - قيس الزبيدي - بسام كوسا
في ندوة السينما العربية والقضية الفلسطينية ٧٦
■ النكبة والبحث عن الهوية القومية .... عبد الكريم درويش ٨٠
■ خمسون عاماً على النكبة:
ذكريات وشهادات عن الهجرة من الوطن .... تحقيق: خزامى رشيد ٨٤
■ شعر .... نزار قباني ٨٩

تعتذر هيئة تحرير «الهدف» عن نشر كل المساهمات التي وصلتها للمشاركة في هذا العدد بسبب ضيق المساحة، وتعد بنشرها في أعداد لاحقة.

بيان سياسي صادر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بمناسبة مرور خمسين عاماً على النكبة

غياب الرد الاستراتيجي على المشروع الصهيوني اعاد الامة خطوات الى الوراء..

يا جماهير شعبنا الفلسطيني
يا جماهير أمتنا العربية

تحل على الشعب الفلسطيني والأمة العربية في الخامس عشر من أيار الذكرى الخمسون للنكبة والتي أدت إلى احتلال فلسطين وتشريد شعبها في أصقاع الأرض، والتي توافقت مع نشوء الكيان الصهيوني، هذا الكيان السرطاني الذي قام ليضع قيد التنفيذ وعد بلفور المشؤوم بإعطاء من لايملك أرضاً لمن لايستحق، والذي جاء تتويجاً لسلسلة طويلة من السلوك الإرهابي ضد الشعب العربي الفلسطيني عبر المجازر والقتل والطرد والتشريد.

وإذا كانت النكبة وتالياً قيام الكيان الصهيوني تشكل منعطفاً تاريخياً في مسيرة كفاح الشعب الفلسطيني، فإن كفاح هذا الشعب ابتدأ مع بداية الأطماع الصهيونية في فلسطين، فبذل ومنذ البدء الغالي والنفيس دفاعاً عن أرضه وحقه ووطنه، وهي تأتي أيضاً محطة في سياق تاريخي طويل للتآمر الإستعماري على الأمة العربية. فقد وضعت القوى الإستعمارية منذ زمن طويل في حساباتها ضرورة العمل على تقطيع أوصال الوطن العربي منعاً لقيام كيان عربي موحد في هذه المنطقة الهامة والتي شكلت موقعاً استراتيجياً يتحكم بممرات العالم وطرقه وتحتوي أهم ثرواته يقطنها شعب واحد بلغته وتاريخه ومصالحه، هو الشعب العربي.

فعمل الإستعمار العالمي على زرع كيان غريب في قلب المنطقة وعلى ارض فلسطين لعرقلة المشروع القومي العربي وحلم الوحدة، واعاقة نهوض الأمة وتطورها وزجها في معركة وجود الدولة المصطنعة، وهذه المؤامرة حددت ومنذ البداية الإرتباط العضوي بين دولة اسرائيل والمصالح الإمبريالية، فكانت على الدوام بمثابة مخفر متقدم لهذه المصالح وشرطي مسلح حتى الأسنان بالرصاص والقنابل الذرية، لضرب أي إمكانية لإقامة واقع مناهض للمصالح الإمبريالية في الوطن العربي.

إن تاريخ الدولة الإمبريالية في المنطقة وتاريخ دولة اسرائيل المجرمة يثبت بما لايدع مجالاً للشك لكل ذي بصيرة أن المشروع الصهيوني ودولة اسرائيل لم تأت لتحل مشكلة اليهود في العالم لأن ما فعلته هذه الدولة بصفتها التجسيد المادي للمشروع الصهيوني المرتبط بالمصالح الإمبريالية، هو أنها حولت اليهود إلى جيش من المرتزقة ووضعتهم في مأزق المواجهة مع مصالح وطموحات الأمة العربية وغيبت الحل الوحيد الموضوعي لمشكلة اليهود لدمجهم في مجتمعاتهم باعتبارهم مواطنين في بلدانهم الأصلية.

إن ما سبق لاينفي الحقيقة المرة وهي أن المشروع الصهيوني قد استطاع تحقيق انتصارات كبيرة في مواجهة المشروع العربي القومي، والذكرى الخمسون للنكبة تدعونا لإستخلاص الدروس والعبر مما حصل، مما يستدعي وقفة جدية للجميع عرباً وفلسطينيين دولاً وأحزاباً، سياسيين ومثقفين، وكل انسان عربي، للإجابة على السؤال المضني الذي مازال يهزنا منذ خمسين عاماً، لماذا حدث ما حدث؟ لماذا الهزيمة؟ لماذا لم يستطع العرب والفلسطينيون دحر المشروع الصهيوني؟.

إن الإجابة على هذه الأسئلة هي واجب الجميع ولكن نظرة متفحصة تشير الى عدد من العناوين الرئيسية التي ربما تضعنا على بداية الطريق:

أولاً: غياب المشروع العربي الذي يستنهض مجمل طاقات الأمة ويزجها في معركة مجابهة المشروع المادي، وهذا الغياب له بلا شك أسباب وجذور لحقت بها نتائج.

ثانياً: عدم نجاح العرب أنظمة وأحزاباً وقوى سياسية في توجيه كل الجهود نحو التناقض الرئيسي مع العدو الصهيوني والإنشغال أحياناً كثيرة بمعارك هامشية وصراعات جانبية واحتراب بين التيارات الفكرية اضعفت عملية المواجهة الشاملة مع العدو الصهيوني.

ثالثاً: غياب الديمقراطية في المجتع العربي مما أعاق دائماً تفجير طاقات الناس والإرتقاء بها ودفعها للنهوض بواجبها ودورها الكامل في المعركة.

إن غياب الرد الإستراتيجي على المشروع الصهيوني والإستمرار في تغييبه قد أعاد الأمة في مواجهتها مع العدو خطوات إلى الوراء وصولاً إلى تسليم البعض بوجوده والقبول بنتائج العدوان المستمر على الأرض والشعب كما تجلى ذلك في اتفاقات العار في أوسلو ووادي عربة التي لم تكن معزولة عما سبقها في كامب ديفيد، في سلسلة من التراجعات المهينة التي جعلت ذكرى النكبة نكبة جديدة يحتفل فيها العدو بانتصاره بعجرفة وعدوانية.

لقد ثبت بالملموس أن دولة الكيان الصهيوني ليست سوى حالة اعتداء سافر ومستمر ومعاد للسلام، ولاتستطيع الإستمرار بدون حالة الإعتداء الذي تمثله، وإلا كيف يمكن فهم حالة التطرف التي تزداد يوماً بعد يوم في الشارع الإسرائيلي وكيف يمكن تفسير الإصرار الصهيوني على احتلال الأرض الفلسطينية والجولان وجنوب لبنان، وكيف يمكن تفسير فهم ترسانة السلاح بمختلف أنواعها التي تغمر «دولة اسرائيل» متوجة بالسلاح النووي.

إن دولة تعيش بعقلية الأمن، وتحكمها عقلية الإرهاب لايمكن أن تعيش بسلام، وهي دولة تطلب التوسع لنفسها على حساب حقوق الأخرين والإستمرار في ردعهم وتهديد أمنهم.

في الذكرى الخمسين للنكبة تؤكد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن لابديل عن المقاومة في مواجهة المشروع الصهيوني الإمبريالي واستمرار الكفاح لتحرير الأراضي العربية المحتلة وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس، وعودة اللاجئين إلى أرضهم.

إن هذا الحل هو الوحيد الممكن وبدونه ستبقى المنطقة على فوهة بركان مهدد بالإنفجار في كل لحظة. فالشعب الفلسطيني لن يقبل بمصادرة حقوقه وقذفه في المجهول، ولن يقبل بسلام زائف يقوم على جثته.

إن شعبنا عصي على الموت وقد أثبت في سنوات كفاحه الطويلة أنه شعب حرّ أبي يرفض الهزيمة ومستمر في المقاومة حتى إحقاق حقوقه المشروعة كاملة دون نقصان.

في الذكرى الخمسين للنكبة تتوجه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إلى الشعب الفلسطيني البطل في الوطن والمنافي لتعاهده على مواصلة النضال، التزاماً بأهدافه المشروعة ووفاء لدماء الشهداء ومعاناة اللاجئين وآلام المعتقلين.

وتتوجه إلى الأمة العربية المجيدة في دعوة للم الشمل والعمل من الجميع من أجل رد استراتيجي شامل يرتقي لمواجهة المشروع الصهيوني الذي يعلم الجميع منذ انطلاقه أنه لايستهدف فلسطين وشعبها فقط، وإنما الأمة كلها.

وفي هذه الذكرى الأليمة نتوجه إلى العالم كله، حكومات وشعوباً وهيئات دولية ليتحملوا مسؤولياتهم تجاه الكارثة التي لحقت بالشعب الفلسطيني والتي ستبقى وصمة عار على جبين البشرية، حتى يحق الحق ويستعيد الفلسطينيون وطنهم ويقيموا دولتهم المستقلة.

في الذكرى الخمسين للنكبة نؤكد أننا لن ننسى فلسطين

ولابديل عن الدولة الفلسطينية المستقلة

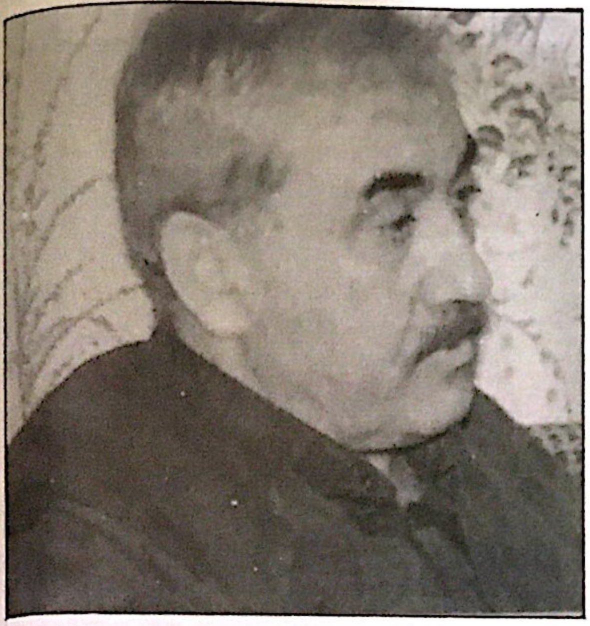
ولا بديل عن القدس عاصمة أبدية لفلسطين

لابديل عن العودة حقاً مشروعاً وثابتاً وغير قابل للمساومة

المجد للشهداء والحرية للمعتقلين

والنصر دائماً حليف الشعوب المقاتلة من أجل الحرية

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
١٥/أيار/١٩٩٨



خمسون عاماً على النكبة

حقائق تاريخية ودروس للمستقبل

د. جورج حبش

الأمين العام "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

كثيرة هي الأسئلة المثارة في هذه الذكرى الأليمة، الذكرى الخمسين لإغتصاب فلسطين، أسئلة كثيرة وشاملة تحمل أبعاداً تشمل المستوى الفلسطيني والعربي والإسرائيلي، وتذهب أيضاً إلى التاريخ، وتمتد من الحاضر الى المستقبل. لكن السؤال الكبير الذي سيظل وربما لعقود شاغلنا وينظم كافة الأسئلة المثارة هو لماذا هزمنا في حروبنا مع اسرائيل..؟ ولماذا انتصر الحلف المعادي..؟

تلك الأسئلة تقودنا إلى الخوض في عمق التاريخ وقلب الحاضر واستشراف المستقبل وعلى مستويات الفكر والممارسة.

ولما كان التاريخ حاضراً فينا دائماً وأبداً، ومتفاعلاً مع الحاضر بكل إيماءاته ومساراته ومحدداً وهادياً لحركته، فإننا نسارع إلى القول بأن المرحلة تفرض موضوعياً أن يكتب تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي بطريقة ومنهجية مختلفة، وتضع الحقائق القاسية والمشرقة معاً وجهاً لوجه مع الحاضر إذ ليس ممكناً استخلاص الدروس دون فهم التاريخ ودلالاته ودون التعاون معه واستحضاره إلى حيث نقف اليوم.

وإذا كان هناك من يقول إن التاريخ يكتبه عادة المنتصرون، فالتاريخ أيضاً يمكن أن يكتبه الحالمون بالإنتصار.

وإذا جاز لنا أن نتحدث عن الجانب المشرق في مسيرة أمتنا العربية، فإنه ليس جائزاً لنا بالمطلق أن نغض النظر عن الجانب المظلم والمخفى من المسيرة، فكلاهما تاريخ ومعطيات وأحداث لمراحل عاشتها أجيال تركت بصماتها في واقع المرحلة التي نعيش.

إزاء ذلك فإنني أشير إلى الحقائق التاريخية التالية التي سبقت أو رافقت الغزوة الصهيونية لأرض فلسطين للتمعن في دلالاتها ومؤشراتها المستقبلية لتفسير الراهن.

أولاً: [حلم يهودي وفكرة استعمارية، ودور صهيوني بريطاني]

لقد حوّل الزعيم الصهيوني هرتزل في مؤتمر بازل عام ١٨٧٧م «الحلم اليهودي» و «الفكرة الإستعمارية» إلى مشروع صهيوني له تصاميمه وروافعه وآلياته السياسية والإقتصادية والعلمية والإجتماعية. وخلق معه ديناميات من شأنها أن ترفع هذا المشروع من حيث الافكار والأحلام إلى حيز البرامج والتصاميم والأفعال. حيث تسابقت الأفعال مع الأفكار والممارسة مع الرؤى. والواقع مع الإيديولوجيا. والحاضر السياسي مع التاريخ المزيف.. كما تسابق الصهاينة في وضع التصاميم المعلنة والمضمرة لهذا المشروع الصهيوني، حيث توزعت ورشات عمل حقيقية لإنجاز هياكله الأساسية.

ولم يكن هناك وهم عند الساسة الصهاينة بإمكانية تحقيق المشروع خلال خمسين عاماً من الجهد الصهيوني والإستعماري. فقد حذر هرتزل منذ البداية من اعتبار المشروع نوعاً من «اليتوبيا» إنما هو مشروع عملي يجب بناؤه بعرق الشعب اليهودي... وقد وجدت هذه العبارات والمعاني تجسيداً لها في تعدد الفرق الصهيونية النشطة والعملية التي أخذت تتبارى في خلق وقائع وأوضاع في فلسطين تحت مظلة واحدة هي الحركة الصهيونية العالمية.

ومنذ البداية كان هناك وضوح في الأهداف والرؤية، وطبيعة الأفعال الممكنة، والتزام بمنهج شمولي وبرغماتي، حيث تستحضر فترة عابرة وقصيرة من زوايا التاريخ ليبنوا عليها الحلم. وتستخدم التوراة والغيبيات في اطلاق ايديولوجيا العودة..! فيتحول الحلم إلى فكرة سياسية تستجيب وتتوافق مع المشاريع الإستعمارية الأوروبية وتتحول الفكرة إلى رؤية متكاملة، ومع تراكم الحقب والمراحل السياسية تتكامل العوامل السياسية والإقتصادية والفكرية والذاتية والدولية.. لتظهر بعد خمسين عاماً من الجهد الصهيوني والجهد الإستعماري على أرض فلسطين «دولة اسرائيل في ١٩٤٨/٥/١٥» كنتيجة حتمية هي تكثيف لنجاح الحلف الصهيوني الإستعماري في توفير شروط ومقومات المشروع الصهيوني مقابل عجز وفشل العرب عن توفير شروط ومقومات التصدي له.

[المشروع الصهيوني تكثيف لفكر استعماري امبريالي]

ثانياً: الغزوة الصهيونية لأرض فلسطين لم تكن هي الغزوة الأولى في التاريخ الفلسطيني، إنما سبقها غزوات استعمارية متكررة عبر التاريخ، حيث توالى عليها الغزو الفارسي والإغريقي والروماني، ثم الغزو الصليبي، والغزو المغولي المدمر، والغزو العثماني الذي استمر أربعة قرون تحت غطاء الدين، وأعقبه الإستعمار البريطاني في بدايات القرن الحالي جميع هذه الغزوات لم تكن بدون أهداف ورؤى اقتصادية استعمارية. حيث كانت تتبدى وتكبر

الأهمية الإستراتيجية لأرض فلسطين مع كل غزوة واستعمار مما جعل قوى استعمارية عديدة تسرح بخيالها وأحلامها وأفكارها نحو فلسطين وحول فلسطين مستخدمة في أحيان كثيرة الدين كغطاء ايديولوجي تحشيدي لخدمة أهداف استعمارية كما الصليبيين والعثمانيين والصهاينة..

ومع بدايات القرن التاسع عشر وتفكك الإمبراطورية العثمانية، تكثف النشاط الإستعماري بحثاً عن مصالحه الإقتصادية وتزايدت الأهمية الإستراتيجية والأمنية لموقع فلسطين المطل على البحر المتوسط والتي تشكل جسراً حيوياً يربط القارات الثلاث. وحلقة الوصل بين المشرق والمغرب العربي..! عندها بدأ الوعي الإستعماري يتجسد بالممارسة للسيطرة على فلسطين للتحكم في البوابة الإستراتيجية المفتوحة على المنطقة العربية والتي تتحكم في مقاديرها ومستقبلها.

هكذا تشكلت الفكرة الإستعمارية للسيطرة على فلسطين كمدخل للسيطرة على العالم العربي والتحكم في مستقبله لقرون طويلة. فكان لابد للفكرة من عوامل وشروط حتى تتحقق على الأرض وتملك الإستمرارية والثبات، جسدها بالممارسة الإستعمار الأوروبي بالتالي:

١ـ البحث عن مشروع استيطاني في فلسطين يضمن ويؤدي الوظيفة الإستراتيجية للإستعمار الأوروبي.

٢ـ أن يتحول المشروع الإستيطاني الإستعماري إلى دولة وشعب على أرض فلسطين يوفران الحماية التاريخية والإستراتيجية للمصالح الإستعمارية وديمومة الدور.

٣ـ توفير الضمانات الأمنية لهذه الدولة، وضمان تفوقها على محيطها من العرب بالعمل على تفتيت المنطقة من حول فلسطين إلى دويلات عربية لاتملك قوة المواجهة.

ولما كانت المسألة اليهودية تتفاقم في المجتمعات الأوروبية لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية فقد وجد الإستعمار الأوروبي ضالته في الشتات اليهودي والحركة الصهيونية لإقامة كيان قومي لليهود في فلسطين. كما الحركة الصهيونية وجدت ضالتها في الإستعمار الأوروبي الذي يبحث عن ضامن لمصالحه.

[مقومات الكيان الصهيوني أسبق من عام النكبة]

ثالثاً: في ضوء القراءة التاريخية للدور الإستعماري في انشاء الكيان، والدور البريطاني المباشر في تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإقامة المستوطنات، وإنشاء المنظمات الصهيونية العسكرية، وخلق بنية مجتمعية مؤسساتية يهودية في فلسطين، يتضح أن خط البداية لإقامة الكيان الصهيوني لم يبدأ مع عام النكبة في ١٩٤٨، كما أن الهزيمة العربية لم تبدأ مع اعلان الكيان، إنما تعود لعقود من النشاط الصهيوني الإستعماري بالترابط مع نتائج الحرب العالمية الثانية وتمزيق الوطن العربي الذي تجسد في اتفاقيات سايكس ـ بيكو.

فالكيان بدأ مع أول مستوطنة يهودية على أرض فلسطين عام ١٨٨٢، ومع ظهور مقررات مؤتمر بازل عام ١٨٩٧ فالواقع أن المنظمات الصهيونية وضعت لبنات الكيان على مدار خمسين عاماً سابقة لعام ٤٨ من العمل السياسي والإقتصادي والتغيير الديمغرافي بمشاركة الإنتداب البريطاني. فكانت الحصيلة التراكمية لهذا النشاط والجهد الإستعماري والصهيوني ظهور مقومات الكيان على الأرض قائمة ومتفوقة على مقومات أصحاب الوطن بنيوياً وعسكرياً، في حين كان الطرف العربي يعد العدة لردة فعل مهزومة مسبقاً.

وهنا يتضح عجز القيادات الفلسطينية والعربية في الإمساك بإدارة الصراع بالطرق والأشكال الأكثر مناسبة رغم كل الضحايا والشهداء وثورات الغضب التي اجتاحت مدن وقرى وبلدات فلسطين في العشرينات والثلاثينات والأربعينات. مما جعل مقومات الهزيمة العربية الفلسطينية أسبق بكثير من عام النكبة ١٩٤٨.

[تضحيات أكبر من زمن ومساحة الحروب]

رابعاً: لابد من تذكر حقيقة تاريخية جرى طمسها أو نسيانها أو تناسيها قصداً لأهداف آنية وسياسية، وهي أن الأنظمة العربية والثورة الفلسطينية معاً لم تقاتل اسرائيل كما يجب، ولم تدافع عن نفسها كما يجب لأسباب عديدة أهمها غياب الخطط والبرامج لمواجهة اسرائيل فعلياً وميدانياً رغم امتلاكهما لمقومات الدفاع والصراع المتواصل..!

مع هذه الحقيقة قد يبدو شيء من التناقض ربطاً ببعض الوقائع التاريخية كأن يقال: وماذا تعنى الحروب الأربع مع اسرائيل..؟! وماذا عن قوافل الشهداء الذين قضوا نحبهم في مواجهة العدو الصهيوني..؟! وماذا عن المقاومة الفلسطينية المتواصلة حتى اليوم..؟!

إن الوقوف أمام بعض المعطيات والوقائع قد يلقي بعض الضوء على هذه الحقيقة:

١ـ إن الحروب التي اشتعلت مع البلدان العربية هي حروب اسرائيلية ضد العرب، ومضى خمسون عاماً ولاتزال اسرائيل المبادرة في الحروب والعدوان.

٢ـ الحرب الوحيدة التي استخدم فيها العرب إرادتهم وقرارهم المبادر كانت حرب ١٩٧٣ وكان الإنتصار المغدور الذي وظف باتجاه التراجع والنكوص عن الأهداف..

٣ـ كافة الحروب التي واجهتها البلدان العربية كانت أياماً معدودة، ولقصر زمنها سميت بالحروب الخاطفة أو حرب الأيام الستة عام ٦٧، وعليه حجم التضحيات كان أكبر بكثير من مساحة وزمن الحروب.

٤ـ خلاصة هذه الحقيقة اننا لم نحارب ولم ندافع كما يجب رغم اننا دفعنا أثماناً باهظة من شهداء وضحايا ودمار لموارد الأمة، وضياع كامل فلسطين والجولان وسيناء وجنوب لبنان كما تفضي إلى نتيجة أساسية أخرى هي أن العدو كان يحاربنا بأهداف واضحة ورؤية وخطة وإرادة.. في حين كنا ندافع بدون رؤية شمولية واستراتيجية واضحة وبدون قدرة على توظيف فعال للإمكانات المتاحة وهي كبيرة وهائلة بكل المعايير.

[اهدار الفرص التاريخية والظروف الموضوعية المواتية]

خامساً: إن وعي مرحلة الصراع رغم طول عقودها لم يرتق إلى ادراك أهمية استثمار الفرص التاريخية والظروف الموضوعية المرافقة لنضال الأمة العربية، حيث أضاع العرب فرصاً تاريخية مواتية لنضالهم ليس ممكناً أن تتكرر بذات الظروف الموضوعية المواتية، فأربعون عاماً من الحرب الباردة بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الإشتراكي ووجود حلفاء وأصدقاء يمثلون نصف الكرة الأرضية يناصرون القضايا العربية ودعم سياسي ومادي لايستهان بهما، جميعها لم تمكن من دفع الأنظمة العربية لإتخاذ القرارات الصائبة والسليمة والمبادرة في مواجهة العدوان الصهيوني، حيث ظلت الإرادة العربية حبيسة اللاوعي والتخلف، والمصالح الطبقية والسياسية القطرية الضيقة الأمر الذي أضاع أغلى وأثمن الفرص التاريخية في حياة وتاريخ النضال العربي المعاصر الأمر الذي بدوره يجب أن يضعنا وجهاً لوجه أمام أهمية ومركزية العامل الذاتي بكل تجلياته وعناصره الفكرية والسياسية والمعنوية والمادية.

بعد هذه الوقائع والإستنتاجات التاريخية التي تظهر بجلاء مستوى العجز العربي في مقاومة الغزوة الصهيونية طيلة قرن من الزمان، يتبلور سؤال اساسي وهام وهو ما هي الدروس التي يمكن استخلاصها في ضوء نتائج المائة عام من الصراع..؟

ومنذ البداية يمكن القول أن هذا الصراع الطويل له دروسه العديدة وعلى كافة الصعد. سياسياً واقتصادياً وعسكرياً واعلامياً وفكرياً واجتماعياً، وهي تمتد لتشمل ثورات الشعب الفلسطيني على امتداد قرن من الزمان، والثورة الفلسطينية المعاصرة وتجربتها بالأردن ولبنان وسوريا. ودروس الإنتفاضة التي امتدت على مدار سبع سنوات، ثم دروس التجارب السياسية



العربية والفلسطينية التي تشغل المساحة من كامب ديفيد وصولاً إلى اتفاقات أوسلو ووادي عربة وما بينهما.. غير أنني سأركز على بعض الدروس الهامة دون غيرها بسبب من دلالاتها وطبيعتها الإستراتيجية والتاريخية..

أولاً: [ضرورة تعميق الرؤية العلمية المستمرة للعدو الصهيوني وكيانه الدولة العبرية ومدى ارتباطه بالإمبريالية العالمية والأمريكية بشكل خاص..]

هذا العنوان يثير الكثير من الأسئلة والأراء والتباينات إذ لابد من الإعتراف أننا لانعرف أو لانريد أن نعرف عدونا بالقدر الكافي، فلا يكفي ان نتحدث عن أهمية وضرورة المعرفة لعدونا.. فهذه أصبحت بديهية. إنما المهم كيف نعرف عدونا..؟ وما هو المنهج المعرفي الذي يوصلنا إلى رؤية عدونا بطريقة أفضل؟ وهل المنهج مرتبط بالوعي الشامل وبنيته في المجتمع العربي، أم هو عملية مجزوءة وعفوية..؟

بإختصار كيف نكوّن المعرفة وما هي الطريقة والمنهج والآليات..؟

المعرفة لها شروطها وبنيتها وبيئتها، ونعني بها الإحاطة بكل جوانب وخفايا موضوع ما أو ظاهرة معينة اجتماعية أو سياسية، وهي بهذا المعنى نتاج نشاط علمي وبحثي وعملي متعدّد الجوانب، ونتاج فعل وتفاعل اجتماعي جماعي تكثفه المؤسسات العلمية البحثية المختصة والمفكرون والمثقفون يجري تعميمه على الهيئات والمؤسسات والأفراد وصناع القرار.. والمعرفة عملية متطورة ومستمرة تراكمية مرتبطة اشد الإرتباط بالبنية الإجتماعية ومستوى الوعي العلمي الشامل وظاهرة العدو الصهيوني تستحق المعرفة الواعية، فالإنتصار الحاسم على العدو له شروطه الموضوعية والذاتية والمعرفية، ومعرفة العدو بشكل كاف أحد هذه الشروط. والشيء الثابت أننا لانجابه عدواً مجهولاً أو موهوماً، ولا نحارب طواحين الهواء، إنما نجابه حقيقة قائمة يجب إدراكها بوضوح وعلمية.

بعد خمسين عاماً من عمر الكيان الصهيوني يمكن أن نتلمس بسهولة مدى التفوق الإسرائيلي العسكري والإقتصادي والتكنولوجي، ومدى التفوق في الأداء السياسي والإداري المتميز. وقد تلمسنا هذا التفوق عبر النتائج العملية والملموسة في صورة الهزائم العربية والإنتصارات الإسرائيلية، والمهم أن تتطور معرفتنا باتجاه الإجابة على سؤال لماذا كان التفوق العسكري والإقتصادي، ولماذا الأداء السياسي المتميز رغم قصر عمر الكيان، ورغم الحصار العربي من حوله. ولماذا الناتج القومي الإسرائيلي يزيد الأن على ٩٠ مليار دولار أي ما يفوق الناتج القومي لعدة دول عربية مجتمعة تتجاوز في عدد سكانها وثرواتها ومواردها الكيان الصهيوني عشرات المرات..؟ هل يعود السبب إلى عوامل موضوعية أم أن هناك عوامل ذاتية خاصة بالكيان يجب رؤيتها..

إن الجواب الحاسم على كل هذه الأسئلة هو غياب المعرفة العربية والبعد عن المناهج العلمية المتطورة في فهم الظواهر الكونية المختلفة، وفي بناء المجتمع العربي المستجيب لتطورات العصر العلمية والحضارية، وارتباطاً بذلك غياب المعرفة والرؤية الواضحة بشأن الكيان الصهيوني، وبشأن مدى ارتباطه بالإمبريالية الأمريكية.

ومن شروط الإنتصار أن نعمق معرفتنا وفهمنا للتناقضات التي يعيشها الكيان الصهيوني، وهل هي تناقضات جذرية تناحرية أم هي تناقضات لاتمس أهدافه الحقيقية؟ وما هي حجم التعارضات بين الأحزاب الإسرائيلية..

في ضوء خمسين عاماً من التكوّن والتطور شهد المجتمع الإسرائيلي مجموعة من التناقضات، مثل تناقضات النشأة والنمو، وتناقضات الرواية اليهودية ذاتها، وتناقضات اجتماعية طائفية وطبقية، وتناقضات سياسية وحزبية، وتناقضات الحكم والتاريخ اليهودي والرؤية للراهن بتطوراته الموضوعية.

وفهم هذه التناقضات على النحو الصحيح سيعمق الرؤية الموضوعية والشاملة للعدو الصهيوني ويزيل من أمامنا بعض الأوهام والإسقاطات الذاتية الناتجة عن غباش الرؤية..

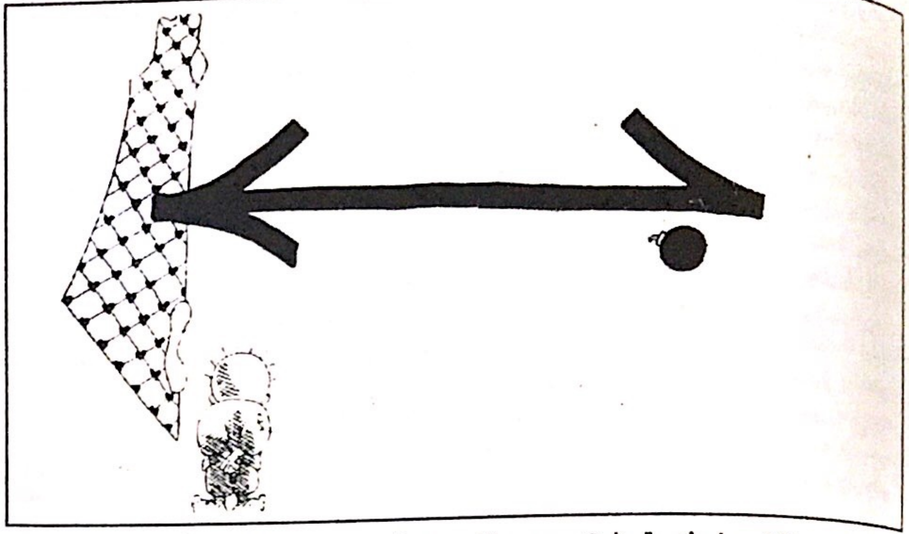
وعليه يجب علينا أن نلحظ ونتبصر الأمر بدقّة، فالثابت أن هناك اجماعاً صهيونياً داخل الكيان على العديد من القضايا الأساسية تجاه المسألة الفلسطينية. فهناك اجماع على وحدة الكيان على ارض فلسطين وأن يبقى دولة يهودية متفوقة بالمنطقة..

واجماع على الرفض لعودة اللاجئين الفلسطينيين. والرفض للإنسحاب من كافة الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ واجماع على بقاء المستوطنات، والقدس عاصمة موحدة لإسرائيل.. واجماع على رفض الدولة الفلسطينية ذات السيادة، وخلافه من القضايا الجوهرية ذات الصلة.

إن الأهم في رؤية التناقضات الإسرائيلية أن نعي أن الديمقراطية الإسرائيلية والتعددية السياسية، والعلمانية، والطائفية، والعنصرية، والقانون الإسرائيلي، هي أبعاد الكيان الصهيوني منذ النشأة وحتى ذروة تطوره الراهن، وليس من الصواب فهم هذه الأبعاد بمعزل عن بعضها الأخر، إنما يجب رؤيتها في إطار الشخصية «الكيانية» الواحدة. وأنها جميعاً تشكل نسقاً عاماً واحداً يحفظ وحدة المجتمع الإسرائيلي عند حدود واضحة. وعليه فالتناقضات بكليتها تناقضات نسبية، والتماسك الإسرائيلي أيضاً تماسك نسبي قابل للتبدل عبر ديناميات وآليات الصراع التاريخي.. ومن الأهمية بمكان أن نعي المناورات والتاكتيك السياسي والإعلامي الصهيوني في استخدام ورقة التناقضات الإسرائيلية النسبية في ملعب الطرف العربي والفلسطيني لزرع الأوهام لديه بأنه قادر على تعميق التناقضات السياسية الصهيونية، مما يدفعه إلى اللقاء مع القوى والأحزاب الصهيونية وترسيم عمليات التطبيع الجارية على أكثر من مستوى كما حصل في لقاء كوبنهاجن بين بعض الكتاب والمثقفين العرب وآخرين صهاينة أمثال ديفيد كمحي رجل الموساد الإسرائيلي!

إن فهم هذه التناقضات على النحو الصحيح يعمق الرؤية الشاملة والموضوعية للعدو الصهيوني ويزيل من أمامنا بعض الأوهام والإسقاطات الذاتية الناجمة عن غباش الرؤية.. وعليه يجب أن نلحظ ونتبصر الأمر بدقة..

ومن العلمية والموضوعية في الرؤية أن نرى التناقضات في المجتمع الصهيوني ونعترف بها بإعتبارها ظواهر طبيعية، وليس من الصواب تجاهلها تحت اي دعاوى تبسيطية أو شعاراتية، فحزبا العمل والليكود حزبان صهيونيان يختلفان ويتفقان. لكن مساحة الإتفاق أكبر من مساحة الخلاف، ومساحة الخلاف لاتغطي إلا القضايا الثانوية في مضمار الممارسة السياسية اليومية بالشأن الداخلي الإسرائيلي، أما الشأن السياسي المتعلق بالصراع العربي الفلسطيني ـ الإسرائيلي فالإتفاق هو الأساس الذي حكم مسيرة الصراع ضد الشعب الفلسطيني والأمة العربية.. وكذلك الحال فإن الخلاف القائم بين اليسار الإسرائيلي



اليمين الإسرائيلي رغم أهمية رؤيته ووعيه إلا أنه لم يصل إلى مستوى شل المجتمع الإسرائيلي والقيادة الإسرائيلية عن أخذ القرار بشأن المسائل الجوهرية بالصراع.

ومن شروط الإنتصار أيضاً أن نعي ونحدد مستوى الإرتباط بين العدو الصهيوني والإمبريالية الأمريكية في هذه المرحلة. ولماذا يستمر هذا الإرتباط وما هي أسبابه ودوافعه.

وإذا كنا في البداية قد حددنا وأوضحنا طبيعة الإرتباط بين المشروع الصهيوني والإستعمار البريطاني. فإن انتقال مركز الإمبريالية العالمية من بريطانيا العظمى التي غابت عنها الشمس إلى أمريكا القوة العظمى في العالم، جعل لها مصالح أساسية في المنطقة العربية بشكل خاص، مما جعل النظرة لدولة اسرائيل تحتل الأهمية ذاتها التي كانت تحتلها مع بريطانيا العظمى وذلك للقيام بالوظيفة المركزية في المنطقة وهي ضرب وتهديد أي قوة مركزية عربية تهدد المصالح الأمريكية في المنطقة العربية، وضرب أي مشروع نهضوي وحضاري لتوحيد البلدان العربية. في هذا السياق الموضوعي لتطور دور القوى الإمبريالية تحول الإرتباط الصهيوني من بريطانيا الإمبريالية إلى أمريكا الإمبريالية زعيمة العالم الرأسمالي وتحولت اسرائيل إلى قاعدة أساسية للإمبريالية في المنطقة العربية وهي منطقة ذات حساسية عالية بالنسبة لمصالح الإمبريالية الأمريكية كونها المنطقة الأولى في العالم التي يتواجد بها البترول من حيث كميات الإستخراج وكميات الإحتياطي العالمية.. من هنا يأتي التأكيد الأمريكي المستمر بالحفاظ على قوة وتفوق اسرائيل كي تستطيع أن تلعب دورها في التحكم بمسار أحداث المنطقة وبما لاتتعارض مع مصالح الإمبريالية الأمريكية.

هذا الإرتباط العضوي بين اسرائيل والإمبريالية الأمريكية يجب أن يطرح السؤال بشانه دائماً وهو ما هو دورنا في مواجهة الإمبريالية الأمريكية.. وما هي استراتيجية المواجهة معها.. وما هي وسائل الضغط الممكنة.. وكيف نستخدمها..؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن أولاً بالإيمان بأن هذا المشروع الصهيوني الإمبريالي لايمكن مواجهته إلا بمشروع وطني عربي قومي واسلامي.

[إشتباك تاريخي شامل ومستمر ومتجدد]

ثانياً: تقول تجربة مائة عام من الصراع العربي الفلسطيني ضد المشروع الصهيوني أن الإنتصارات الصهيونية، والهزائم العربية لم تكن كافية أو حاسمة لتحقيق النصر المطلق على الأمة العربية حيث ظلت الهزائم العربية معطى نسبياً في الزمان والمكان المحددين ولم تكن مطلقة في كل الأحوال. ولاتكتيكات وحروب العدو جميعها تكللت بالإنتصار إذ أن هناك العديد من عناوين ومقومات الصراع أراد العدو إزاحتها مبكراً من ساحة المواجهة إلا أنها تجذرت وكبرت ولاتزال تشكل خطراً على الكيان ويصعب القفز عنها في معادلة الصراع.

فقد كان العدو يتصور أن الصراع مع الشعب الفلسطيني سينتهي بترحيل الجزء الأكبر منه إلى البلدان العربية، فإذا بالشتات الفلسطيني «اللاجئون» يفجر الثورة الفلسطينية المعاصرة وهي من أطول الثورات في التاريخ، حيث اخذت تنتقل من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ومن مواجهة إلى مواجهة ومن مرحلة إلى مرحلة دون أن تنطفئ مصابيح القضية الفلسطينية، وظل اللاجئون يشكلون علامة استفهام كبيرة أمام المشروع الصهيوني، وهكذا فإن العدو خسر رهانه وتاكتيكه في تجنب خطر الشعب الفلسطيني في الشتات. وما أن شهدت ثورة الشتات في الخارج حالة من التراجع، بادر الشعب الفلسطيني في مناطق الضفة والقطاع بحمل الراية وعبء النضال الفلسطيني عبر الانتفاضة المجيدة التي استمرت سبع سنوات بلغ فعلها وصوتها إلى كل بيت في العالم، ومازالت آثارها قائمة تضيء مساحة كل فلسطين.

وخسر العدو أيضاً على رهانه بأن الشعب الفلسطيني في مناطق ٤٨ سيبقى أقلية سلبية وساكنة ومهزومة وبدون هوية لا تؤثر في مجرى الصراع.. فبعد خمسين عاماً من الصراع تتحول هذه الأقلية المهزومة إلى رقم ديمغرافياً، ووطنياً وسياسياً واقتصادياً في قلب المعادلة الاسرائيلية وبهذا المعنى أصبح رقم مواجهة، وقنبلة لا أحد يعرف متى وكيف ستنفجر داخل الكيان، وستلعب دوراً حاسماً في تقويض الكيان إذا ما أحسن استخدام طاقاته المتفجرة ضمن ظروف وعوامل موضوعية وذاتية متبلورة.. فالنضال الآن يدور على تأكيد الهوية الوطنية والإنتماء للأمة العربية كقاعدة ومنطلق لادارة الصراع مع الكيان وليس على أساس ما كان يتوهمه أو يراهن عليه العدو بأسرلة هذه الأقلية الساكنة ونزع هويتها القومية العربية..

وهكذا فقد مضى خمسون عاماً لم يترك فيها الكيان الصهيوني ممارسة أو سياسة إلا وجربها في محاولاته لاثبات إحدى بديهياته الكاذبة التي انطلق منها وهي أن فلسطين هي أرض بلا شعب... إلا أن عملية التبادل والتعاقب النضالي للشعب الفلسطيني بين الزمان والمكان وضعت العدو الصهيوني في حالة مواجهة مستمرة مع الشعب الذي يرفض الاعتراف به رغم ميل ميزان القوى للعدو ورغم انتصاراته.

ان هذا المستوى والشمولية والاستمرارية من الصراع المتجدد والمتراكم هو من طبيعة تاريخية، فرغم كل الهزائم والاحباطات، ومظاهر الأوهام والتسويات، ومحاولات اقفال الحدود في وجه المقاومة والممانعة، ورغم ما مثلته أوسلو ووادي عربة وكامب ديفيد من انتكاسات عربية وفلسطينية وتراجع رسمي عن خط المواجهة مع الاحتلال، فقد ظل الصراع قائماً ومتجدداً ويدور حول ذات الأسباب والعناوين والعوامل التاريخية الوطنية وبهذا المعنى فهو صراع تاريخي قائم على عوامل موضوعية متصادمة يصعب تجاوزها إلا بانتفاء حالة التناقض الرئيسية القائمة.

هذا الاشتباك التاريخي يستند إلى معطيات موضوعية لا يمكن تخطيها حيث نجد:

١ـ اللاجئون الفلسطينيون هم بالرؤية التاريخية قضية شعب يصعب تجاوزها.. وهم معطى موضوعي يفرض نفسه دائماً في معادلة التناقض القائمة. فرغم كل محاولات التذويب والإلحاق والتشتيت والتهجير ظل اللاجئون قضية حية عربياً وعالمياً وفلسطينياً ورقماً يصعب تجاوزه.

٢ـ الشعب الفلسطيني فوق الأرض الفلسطينية يمثل معطى قومياً وطنياً في مناطق ٤٨ والضفة والقطاع نقيض للمعطى الصهيوني العنصري. وسيظل يناضل من أجل وطنه وحقوقه وعروبته وسيادته ودولته المستقلة.

٣ـ الأرض الفلسطينية محور الصراع القائم،

٩-٩

وما يجري عليها من مستوطنات وتهديد واحتلال وقضم متدرج هي تكثيف لعامل موضوعي يجدد الصراع ويديمه.

٤- طبيعة المشروع الامبريالي الصهيوني وأهدافه المتنامية إرتباطاً بتنامي وتركيم عناصر القوة لديه في كافة المجالات الأمر الذي سيتجسد على شكل سياسة توسعية لنهب ثروات الأمة والهيمنة على ارادتها، فالكيان الصهيوني كيان عنصري استيطاني غاز عدواني له وظيفة امبريالية استعمارية في المنطقة وهو في حالة تناقض مستمر ومتصاعد مع طموحات الأمة العربية في التقدم والحرية والوحدة والاستقلال.

ومن هنا فإن أحد أبعاد المشكلة يكمن في تطور وارتقاء أهداف وطموحات المشروع المعادي التي تتناقض مع المنطق المبسط عن إمكانيات السلام والحلول العادلة..!

٥- القدس بما تمثله من قضية رمزية ووطنية مركزية.. وقضية روحية ودينية للمليارات من المسلمين والمسيحيين، وما يجري عليها من ضم وتهويد وتغيير في معالمها، سيجعل من الصراع الصهيوني العربي صراعاً في بعض من مضامينه روحياً ودينياً تاريخياً وعالمياً لا ينقطع ولا ينتهي عند حدود الضم والإلحاق أو التغيير.

تلك هي العوامل الموضوعية التي تضفي على الصراع تاريخيته وشموليته، وديمومته وتجدده.

أهمية الربط الجدلي بين العامل الوطني والعامل القومي

ثالثاً: ارتباطاً بأن المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري في الفكرة والنشاة ويستهدف أرض فلسطين وصولاً إلى المنطقة العربية لنهب خيراتها ومواردها وعليه لابد من تفتيتها واضعافها وضرب مشروعها الحضاري الوحدوي حتى لا تحقق أياً من أهدافها القومية والوطنية، ارتباطاً بذلك فإن المعركة مع اسرائيل ليست معركة الشعب الفلسطيني وحده، وساحة المعركة ليست أرض فلسطين فحسب، إنما المعركة لها بعدها القومي العربي من حيث الانسان العربي المستهدف، والجغرافيا والقوة والأداة والخطة والأهداف والمصير..

فقد فشلت تجربة خمسين عاماً من المواجهة مع العدو الصهيوني في تحقيق الربط الجدلي المؤثر بين الدور الوطني الفلسطيني والدور القومي العربي في ادارة الصراع وخوضه بالأشكال الملائمة، إذ شهدت الخمسون عاماً السابقة مرحلتين على هذا الصعيد، المرحلة الأولى التي ركزت على الدور القومي في ادارة الصراع، وان مسؤولية فلسطين هي مسؤولية قومية إلى الحد أن ما تبقى من فلسطين الحق بالبلدان العربية للمحافظة عليه.. وفي هذه المرحلة تم اهمال العامل الوطني الذي كان حاضراً بقوة على أرض فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومناطق ٤٨، وبين تجمعات شعبنا في الشتات العربي، وقد تعرض الدور الوطني إلى عملية خنق ومطاردة مبكرة وصلت إلى حد القمع لكل الوطنين الفلسطينيين تحت دعاوى قومية وأن فلسطين ارض عربية ومسؤولية عربية.

واستمرت هذه المرحلة حتى هزيمة حزيران ٦٧ حيث حررت العامل الوطني من أغلاله وقيوده ومطارديه حيث تجذر وتجسد في فصائل الثورة الفلسطينية المعاصرة التي ردت على الهزيمة بالتحدي واطلاق الطاقات الفلسطينية والعربية الشعبية في مواجهة الاحتلال والعدوان. ويمكن القول أن بدايات الثورة الفلسطينية قد شهدت التفافا عربياً شعبياً وامتزاجاً فريداً بين العامل القومي والوطني في رؤية الصراع وممارسته في اطار فصائل العمل الوطني الفلسطيني إلا أن مسار الأحداث وتطور الصراع، وصحوة الأنظمة العربية من صدمة الهزيمة قد أحدثت شرخاً بدأ يتزايد بين العامل الوطني والعامل القومي ودور كل منهما في ادارة الصراع، وذلك بفعل عامل خارجي منذ البداية كان يستهدف تجريد الثورة الفلسطينية من محيطها العربي وتعريتها من ثوبها العربي، فكانت المعارك مع الأنظمة في الاردن، والحرب الأهلية في لبنان وتداعياتها جغرافياً وعربياً. وعامل داخلي فلسطيني أخذ في التبلور تمثل في نمو النزعة القطرية الفلسطينية لدى اليمين الفلسطيني يغذيها اليأس الفلسطيني من امكانية النهوض العربي من جهة، وبداية الانكسار العربي نحو الحلول المنفردة من جهة أخرى وكذلك الحال تنامي المصالح الطبقية والبيروقراطية المتزايد في قمة هرم م.ت.ف، وقد تجسدت هذه النزعة في محطات عديدة من النضال الفلسطيني كان آخرها «صيحة يا وحدنا» التي تداعت بأخطر أبعادها الوطنية الضيقة نحو أوسلو الذي شكل المحصلة السياسية الأخطر للنزعة القطرية الفلسطينية.

من هنا يمكن استخلاص درس أساسي من هذه المسيرة الطويلة يتمثل في خطأ التركيز على الدور القومي دون تفعيل الدور الوطني واسناده، وخطأ النزعة الوطنية القطرية المفرغة من مضمونها القومي العربي، وقد دلت التجربة بأن المعركة مع العدو الصهيوني لا يمكن حسمها بالعامل الفلسطيني وعلى أرض فلسطين فحسب، إنما المعركة يمكن حسمها مع العدو حينما تعطى بعدها العربي القومي بكل تجلياته السياسية والعسكرية والاقتصادية والجغرافية والمادية والبشرية. وهي تجليات موضوعية لأي معركة مع الامبريالية الاستعمارية.

رابعاً: أهمية الوعي لمخاطر التناقضات الثانوية والصراعات الداخلية

ان مساحة خمسين عاماً من الصراع مع العدو الصهيوني لم تدلل على أن الانشداد العربي والفلسطيني كان يتجه نحو التناقض الرئيسي مع العدو.. وأن الإعداد السياسي والعسكري والمادي لم يكن موجهاً بالدرجة الأولى ضد الاحتلال إنما تخللت هذه المساحة الزمنية الطويلة تناقضات ثانوية علت في كثير من الأحيان على التناقض الرئيسي مما أفسح المجال لصراعات داخلية تناحرية استمرت طويلاً، وأهدرت من العرب والفلسطينيين زمناً ثميناً من حياة الأجيال العربية، واستنزفت جهداً وامكانيات عربية وفلسطينية كان يجب أن تستخدم بطريقة أفضل نحو التناقض الرئيسي مع الاحتلال.

ومن مخاطر هذه الصراعات الداخلية التناحرية أنها ساهمت في تعميق القطرية العربية مفهوماً وممارسة وثقافة، مما جعل مفهوم وفكر القطرية أو الطائفية له فرسانه من أهل السلطة والثقافة والاعلام في مواجهة مفهوم وفكر القومية العربية.

والغرق في التناقضات الثانوية يعني الغرق في الصراعات القطرية والطائفية والطبقية والسياسية في اطار القطر العربي الواحد، واطار الوطن العربي بأقطاره المختلفة، ونظرة موضوعية نحو الخلف سوف توضح لنا أن كماً هائلاً من الصراعات الداخلية اجتاحت أقطار الوطن العربي ودفعتها بعيداً عن الهم الوطني والقومي مما أفضى إلى تقوقع اقليمي وقطري مصحوب بوعي قطري ضيق الأفق والنظرة وانشداد نحو الهم القطري والحفاظ على الذات القطرية، من هنا فإن الانشداد أو تغليب التناقضات الثانوية على الرئيسية كان له انعكاس موضوعي في الوعي العام الوطني والقومي، وله ديناميات داخلية تفضي إلى مستوى من الانحدار الفكري والسياسي يعمل على انتاج وعي هابط ومسطح ومشوه، كأن يصبح الخوف من الجار العربي أكبر من الخوف من العدو الصهيوني، وأن يصبح الأمن القطري أهم من الأمن العربي القومي، والأخطر أن تفضي النزعة القطرية إلى الاستقواء «بالجار الاسرائيلي» على القطر العربي الآخر...!

وعودة إلى السؤال الضروري في هذا المضمار وهو لماذا الغرق في التناقضات الثانوية رغم وضوح التناقض الرئيسي..؟

لعله من الخطأ أن نعيد أسباب إعلاء التناقضات الثانوية على التناقضات الرئيسية إلى غير غياب الوعي القومي والوطني الذي لا يرى طبيعة الصراع على حقيقته والقائم عملياً وموضوعياً بين قوى الاستعمار والامبريالية والبلدان الوطنية المستعمرة والمستلبة الموارد.

وعليه فإن وعي العملية الصراعية بأقطابها العالمية ودور القومي والوطني فيها سوف يدفع بالصراع نحو التناقض الرئيسي وليس الثانوي.

فالدور الامبريالي والرجعي في تسعير التناقضات الثانوية وخلق أحداث بؤر توتر داخلية دائمة في القطر الواحد، هو دور متواصل ومتجدد، فالدور الامبريالي والرجعي كان حاضراً في أحداث الاردن، ولبنان، ومازال حاضراً في السودان

الجزائر-والعراق في محاولات مستمرة لاشعال حروب أهلية تبدد قدرات القطر الواحد، والأمة العربية حتى لا تقوى على المواجهة أو المانعة.

اننا هنا حينما نستذكر تجربة الخمسين عاماً من الصراع مع العدو الصهيوني نستذكر حجم ومساحة المعارك والصراعات الداخلية العربية والفلسطينية التي حرفت مسار الصراع وأضاعت فرصاً تاريخية ثمينة في إلحاق الخسائر بالعدو وايقاف تقدمه وعدوانه. فالصراعات التي نشبت بين النظام الاردني والثورة الفلسطينية في الاردن عام ١٩٧٠ هو تجل لتغليب التناقضات الثانوية على الرئيسية وكذلك الحال فإن الحرب اللبنانية التي استمرت عشرين عاماً بأطرافها الوطنية والانعزالية والطائفية هي تجسيد لمدى الغرق في التناقضات الثانوية وهي التي مكنت العدو الصهيوني من إلحاق الهزيمة بقوى الحركة الوطنية الفلسطينية والثورة الفلسطينية بهذا القدر أو ذاك ومازالت اعترافات القوى الامبريالية والرجعية تتوالى فصولاً عبر مصادرها عن دورها في حروب لبنان والاردن وغيرها...

ومازلنا نستذكر أيضاً الصراعات التي نشبت بين الأقطار العربية فيما بينها والحقت أكبر الضرر والخسائر بالأمة العربية وبأقطارها، ومكنت العدو الصهيوني من تحقيق العديد من انتصاراته، فليس مفهوماً حتى اليوم استمرار الخلاف بين القطر السوري والقطر العراقي الذي استمر طيلة ثمانية عشر عاماً، وليس مقبولاً أو مفهوماً أن ينشب خلاف بين مصر والسودان بين لحظة وأخرى، وبين مصر وليبيا أو بين الجزائر والمغرب، أو اليمن والسعودية... فقد ثبت أن هذه الخلافات هي استنزاف ذاتي لقدرات هذه البلدان، وعامل كبح لكل مشاريع التكامل والتوحد لأقطار الوطن العربي..

ولا ننسى بطبيعة الحال أن صراعات فصائل م.ت.ف كانت سبباً موضوعياً في اضعافها وبهتان دورها وتشرذمها إلى جانب دور الامبريالية والقوى الرجعية وتغليب التناقض الثانوي على الرئيسي كان سبباً دائماً لبروز انشقاقات وتصدعات في جسم الفصائل، وسبباً مباشراً لغياب الأداة والخطة الواحدة والقيادة الواحدة في مواجهة العدو، وطريقاً قسرياً نحو التآكل الذاتي.

ونظرة موضوعية مسؤولة إلى الكلفة المادية والاجتماعية والبشرية والوطنية من وراء هذه التناقضات والصراعات الداخلية، تفصح إلى أي مدى وصل التآكل الذاتي بين الأقطار العربية. وستفصح عن حجم المليارات من الدولارات التي تكلفت بها حروبنا الأهلية والقطرية والطائفية، وعن عشرات الآلاف من الضحايا الذين سقطوا صرعى في أتون التناقضات الداخلية، وكم من الموارد الوطنية والقومية قد بددت، وبمجملها كانت أكبر من الكلفة الاجمالية لمواجهة العدو الرئيسي المتمثل بالكيان الصهيوني.

بعد خمسين عاماً تقتضي المسؤولية الوطنية والقومية من القوى والفصائل العربية والفلسطينية والأنظمة الرسمية أن تعي حجم المخاطر والخسائر التي واجهتها الأمة من جراء الصراعات الداخلية، وتعمل على تجنب الوقوع في أتونها ووقف تداعياتها، والانشداد للعدو الرئيسي الذي يواجهنا.

ولعل واقع الحال في الأرض الفلسطينية المحتلة بعد اتفاق أوسلو وتداعياته يفرض وعي هذه الحقيقة وأن تنأى كل الفصائل الفلسطينية والقوى والسلطة بنفسها عن الوقوع في شرك الحروب الأهلية التي مازالت هدفاً مرسوماً للاحتلال.

الثورة الفلسطينية لم تر الأهمية الخاصة لدور شعبنا في مناطق ٤٨ ولم تلتقط اشاراته السياسية والكفاحية

خامساً: ان تجربة خمسين عاماً من الصراع مع العدو داخل وخارج الوطن الفلسطيني قد راكمت الكثير من العبر والدروس، وأفرزت الكثير من الأخطاء السياسية في الرؤية الشمولية لطبيعة الصراع وطريقة ادارته، ودور الأبعاد المختلفة للشخصية الوطنية الفلسطينية في ادارة الصراع. وهي ابعاد موضوعية تشكلت بفعل العديد من العوامل السياسية والاقتصادية والعربية والفلسطينية والاسرائيلية، وقد أصبح لكل تجمع فلسطيني خصائص موضوعية وذاتية تحدد وتمسك بطرق وأساليب النضال، حيث كان هناك تركيز عال على دور الشتات الفلسطيني في مقاومة العدو من قبل فصائل الثورة الفلسطينية، وانتباه أقل إلى دور شعبنا في مناطق الضفة والقطاع واقل منه لدور مناطق ٤٨.. مما جعل ساحة المواجهة في زمن ما من عمر الثورة تقتصر على ساحة جغرافية دون الساحات الأخرى، وتجمع فلسطيني بعينه دون التجمعات الأخرى، مما جعل العدو بمنأى عن الدور النضالي للساحات الأخرى.. ورغم أن العديد من الاشارات الكفاحية والسياسية والانتفاضية قد مرت بوضوح على صفحات العقود الماضية من شعب الأرض المحتلة في مناطق ٤٨، كيوم الأرض الذي شكل إشارة سياسية ذات مغزى كبير لطاقات وقدرات شعب ٤٨ إلا أن قيادة م.ت.ف لم تستطع أن تعي هذه الاشارات أو أن تضعها في سياق الرؤية الشاملة للصراع الشامل. حيث استمرت بالتركيز على دور الشتات رغم كل الصعاب التي واجهت العمل الثوري بالخارج..

ان عدم رؤية الأهمية الخاصة لدور الشعب الفلسطيني في مناطق ٤٨ قد أفقد النضال الفلسطيني بعداً وزخماً كفاحياً وسياسياً لا يمكن قياسه إلا في اطار الرؤية الاستراتيجية لطبيعة الصراع ودور كل تجمع فلسطيني في المعركة الشاملة والمتواصلة.

فإذا كان هناك اليوم تزايد لوعي أشكال النضال المختلفة ضمن المرحلة السياسية التي نعيشها، فإنه ارتباطاً بذلك يجب رؤية ووعي أشكال النضال الوطني التي يمكن أن يمارسها شعبنا في مناطق ٤٨ ضمن ظروفه الموضوعية والذاتية التي تحددها خصائص المكان والزمان في المراحل السياسية المختلفة. وعليه فأبعاد الشخصية الفلسطينية الواحدة، السياسية والمعنوية، والاقتصادية والجغرافية، والاجتماعية يجب أن تتكامل وتتفاعل مع بعضها، وتراكم فعلها ودورها ضمن نسق نضالي واحد يفضي إلى عوامل قوة واقتدار في الصراع مع العدو.

وشعبنا الفلسطيني اليوم في مناطق ٤٨ هو العامل الأول الذي يفضح ديمقراطية العدو المزيفة، وعنصريته ضد العرب الفلسطينيين في ذات الوقت، حيث لا يستطيع العدو أن يجمع بين صهيونيته وعنصريته من جهة وديمقراطيته من جهة أخرى، إذ كيف لكيان أن يدعي الديمقراطية، والمساواة في الحقوق... وفي ذات الوقت يحرم العرب الفلسطينيين في مناطق ٤٨ وهم أصحاب الحق بالأرض من أبسط حقوقهم، أو أن يساويهم مع حقوق اليهود الممنوحة لهم.. تلك هي الاشكالية السياسية التي يكشفها شعبنا في مناطق ٤٨ ويظهرها أمام العالم حينما يرفع شعاراته السياسية ويحولها إلى عملية صراعية داخل الكيان الصهيوني. هذه العملية الصراعية تجري وتمر في سياق رؤية سياسية وطنية وفي سياق الانتماء للقومية العربية والهوية الفلسطينية.. من هنا يمكن فهم النضال من أجل المساواة لجزء من شعبنا في اطار التأكيد على الهوية الوطنية والانتماء القومي العربي كشكل نضالي يعزز أهداف وطموحات شعبنا الفلسطيني في تأكيد هويته وكنقيض لمفهوم وسياسة الأسرلة التي تمارسها الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة على شعبنا منذ سنوات عديدة..

الكفاح المسلح كان ولايزال مطلوباً، لكن كان ضرورياً ومطلوباً ممارسة أشكال نضالية أخرى من طبيعة مختلفة

سادساً: مرة أخرى من الأهمية بمكان أن نقف ونتأمل مسيرة الخمسين عاماً من النضال ضد الكيان الصهيوني، فذكرى النكبة هي وقفة مع الذات، بما اصابت وبما أخفقت وأخطأت والسياق النضالي والثوري الذي امتد منذ خمسين عاما يفضي إلى نتائج ودروس لابد من ملامستها لعل أهمها أن حركة التحرر العربية والفلسطينية كانت مشدودة إلى حسم التناقض مع العدو تحت يافطة العمل العسكري المباشر. وأن مراكمة القوة العسكرية وممارسة العنف الثوري وحدهما الكفيلان بالتحرير وهزيمة العدو.. وما عداهما

من أشكال نضالية أخرى هي من قبيل تبديد الوقت والجهد وتحويل المسار الثوري..! فالبلدان العربية المعنية بالصراع مباشرة رفعت شعارات الحرب وحشدت الجيوش لخوض الحرب النظامية كما رفع بعضها شعار حرب التحرير الشعبية طويلة الأمد دون القدرة على ممارسته ورفعت الثورة الفلسطينية بفصائلها المتعددة شعارات تمجد العنف الثوري والعمل العسكري المباشر والشهادة في المعركة. وأصبح ممارسة الكفاح المسلح معيار ثورية ومصداقية أي فصيل فلسطيني، وانعكس كل ذلك في الأدب والثقافة والأغنية الفلسطينية، حيث تحولت الأغنية الفلسطينية في كثير من الأحيان إلى لغة عسكرية تخاطب الجمهور ومارش عسكري تحريضي، أما في الممارسة فقد جرى تمجيد وتقديس الأعمال العسكرية المباشرة، كل ذلك تداعى في تكوين عقل فلسطيني وعربي لا يرى إلا الكفاح المسلح والعنف الثوري طريقاً أوحد في الوصول إلى الانتصار.

لكن الواقع بجدليته وحيويته كان يشكل ظواهر مقاومة وممانعة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية أكبر بكثير من ظاهرة الكفاح المسلح، وتمتد مساحتها فلسطينياً وعربياً ودولياً واسرائيلياً هذه الظواهر بمجموعها أنتجت أشكالاً أخرى للنضال إلى جانب الكفاح المسلح، مما جعل الصراع يدور على مساحة أوسع من مساحة فرضتها طبيعة المرحلة الأولى للنكبة. الأمر الذي سمح موضوعياً بممارسة أشكال نضالية أخرى كان ممكناً ويجب استدراكها مبكراً من خلال الوعي لحقيقة تطور الصراع ودينامياته المتجددة.

ولعل الانتفاضة الفلسطينية وما مثلته من تطور نوعي على أشكال المواجهة مع العدو قد حرر العقل الفلسطيني من دوغما الشعارات والأشكال الوحيدة للنضال ودفعه إلى الابداع في انتاج أشكال النضال الشعبية وممارستها وفق خصائص تجمعات شعبنا الفلسطيني.

ان الدرس المستخرج من هذه المسيرة، أن العنف الثوري كان ولايزال مطلوباً والكفاح المسلح كان ولايزال ضرورياً وحتمياً في ضوء غطرسة العدو وعدوانه المستمر ولكن في ذات الوقت كان مطلوباً وضرورياً ممارسة أشكال نضالية أخرى من طبيعة سياسية واعلامية واقتصادية وثقافية، وأن العقل الفلسطيني والعربي المقاوم عليه أن يمتلك رؤية استراتيجية شاملة للصراع توظف فيها كل مكامن القوة لدى الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل وخارجه، وأن توظف التطورات الموضوعية السياسية والاقتصادية التي تتحكم في حركة وجدلية النضال الفلسطيني في عملية الصراع بشكل دائم ومستمر.

وعليه فقد كان على الثورة الفلسطينية والعرب عموماً أن يعوا مديات ومساحات المعركة مع العدو إلى جانب مساحتها العسكرية لتشكل دعماً مادياً وشعبياً للكفاح المسلح وحماية سياسية عربية ودولية لهذا الشكل من النضال.

لقد دلت التجربة أن الحرب الخاطفة ليست أسلوباً وحيداً وناجحاً دائماً سواء بالنسبة إلى الطرف العربي والفلسطيني أو العدو الصهيوني. فقد خسر العدو الصهيوني حربه في لبنان بحرب المقاومة الشعبية وبإطالة أمد المعركة.. وكذلك الحل فقد علمتنا الانتفاضة الفلسطينية أن هناك طرقاً وأشكالاً أخرى للنضال في حال عدم توفر ظروف الكفاح المسلح وهي أشكال فاعلة ومؤثرة وتتحكم في وتائرها التطورات الموضوعية..

والخلاصة أن لا مساحة من السكون والسلبية أو الإنتظار إذا لم يكن ممكناً ممارسة الكفاح المسلح إنما هناك مساحات فعل أخرى على القيادات الفلسطينية والعربية أن تبحث عنها في مقومات القدرة العربية والفلسطينية.

ميزان القوى يفرض استراتيجية عربية دفاعية لمحاصرة أهداف العدو

سابعاً: دأب الصهاينة عبر اعلامهم المنظم والمكثف على تصوير دولة اسرائيل بأنها ضحية الاعتداءات العربية، وأنها في موقع الدفاع عن نفسها في حين أن العرب دعاة حرب وعدوان ولاسامية وقد نجح الاعلام الصهيوني، والخطاب السياسي الاسرائيلي المعلن في ادارة الصراع بمستوى عالٍ من الأضاليل والأكاذيب، وعمل على اختراق الرأي العام العالمي وتضليله وتأليبه ضد العرب، في الوقت الذي كان القادة العرب بجهلهم وشعاراتهم الديموغوجية يغذون من حيث لا يدرون أو يدركون الخطاب السياسي والاعلامي الصهيوني.

فقد كانت هناك مفارقة في الواقع، مغتصبو الأرض ومفجرو الحرب والعدوان يتبنون خطاباً سياسياً سلامياً، وأصحاب الحق الضائع والمغتصب والمعرضين للعدوان يتبنون خطاباً متطرفاً وهجومياً، والنتيجة خسارة أصحاب الحق والأرض والسلام.

تلك المفارقة تعود إلى أن العرب قد غاب عن وعيهم أنهم في موقع الدفاع منذ عام النكبة وإلى اليوم وبسبب من غياب المعرفة عن العدو وقدراته وعن الذات وقدراتها.

وقد كلفت هذه المفارقة الأمة خسائر بشرية وموارد قومية هائلة ما كان يمكن خسارتها لو أن الصراع أدير على قاعدة الوعي بالطرف الآخر وبقدراته ومواطن قوته وضعفه وبميزان القوى القائم، وبمعرفة أي مستوى يقف عليه العرب سياسياً واقتصادياً وعسكرياً في ظل ميزان القوى القائم، ذلك وحده كان كفيلاً بتحديد مستوى الأهداف المباشرة التي يجب تحقيقها، ومستوى التاكتيك المناسب الذي نجابه به العدو، فمن الأخطاء القاتلة أن يكون ميزان القوى يميل تماماً لمصلحة العدو ويدار الصراع على قاعدة الهجوم والتحرير.

ان درساً أساسياً يجب أن نستخرجه من تجاربنا السابقة في صراعنا مع العدو وهو أن الصراع مع العدو الصهيوني صراع تاريخي وبهذه الصفة فهو تراكمي ودفاعي حتى نصل إلى المستوى الذي يمكننا من بناء القدرات الهجومية ويكون فيها ميزان القوى قد اختل لغير صالح العدو، فالدفاع في ظروف وقدرات دفاعية بطريقة واعية ووفق رؤية دفاعية ناجحة سيفشل خطط العدو الهجومية السياسية والعسكرية وسيلحق به خسائر تراكمية، الأمر الذي يتطلب أن نبني استراتيجية دفاعية عربية ضمن رؤية شاملة لأهداف العدو البعيدة والقصيرة، السياسية والعسكرية والاقتصادية، والتاكتيك المستخدم..

ان استراتيجية دفاعية تتحدد فيها الأهداف والسياسة والبرامج والخطط على أساس دفاعي وقادرة على تحويل الدفاع إلى هجوم في الوقت المناسب والزمان المناسب هي بالضرورة سياسة من شأنها أن تحاصر العدو وسياساته التوسعية وأهدافه العدوانية، مما يجعله أسير فشله وخسارته المتكررة أمام صلابة السياسة الدفاعية العربية.

والحديث عن الاستراتيجية الدفاعية العربية لا يستند على رغبات وتصورات إنما يستند إلى. الواقع العربي المادي والعسكري والتكنولوجي ولمخاطبة الرأي العام العالمي بطريقة أخرى..

الصراع يتطلب استخدام العقل والفكر والتخطيط

ثامناً: لقد تحدثنا أن اشتباكنا مع العدو الصهيوني، اشتباك مفتوح وتاريخي وشامل، ويجب أن تجند له كل الامكانيات والطاقات من الأمة العربية وليس هناك من وسيلة إلا ويجب أن تستخدم وتوظف في عملية الصراع حيث أن الصراع مع الامبريالية والعدو الصهيوني يكتسب بعداً حضارياً شاملاً تستخدم فيه كل أدوات العلم والفكر والتطور.. فالتفوق على العدو عملية تراكمية شاملة تتناول استخدام العقل والفكر، والتخطيط، وتعزيز الديمقراطية في المجتمع العربي بأقطاره المختلفة، وتطوير البنى الاقتصادية في البلدان العربية وعبر تطوير مواردها وامكانياتها المختلفة لتوفير مستوى الرفاه للانسان العربي. والتفوق على العدو يتطلب أيضاً استحضار التراث العربي والفلسطيني وتطويره إلى سلاح مواجهة مع العدو حيث أن الصراع له بعده الثقافي والاعلامي والفكري والعلمي.. وبدون استخدام هذه الأبعاد يظل ميزان القوى مائلاً لصالح العدو الذي ما برح يستخدم هذه الأبعاد وهذه الأدوات في صراعه مع الأمة العربية..■■

فلسطين قضية قومية.. مسؤولية قومية

أبو علي مصطفى
نائب الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

كي لا نعيد النقاش إلى زمن مضى حسمت فيه مسألة الانتماء والهوية، يجب أن نتخطى ذلك المستوى لأننا لا نملك الترف للاستمرار في السجال حول مسائل باتت دلالاتها وعلاماتها وحقائقها راسخة في الوعي كما في الوجدان.

فالمسألة لا تكمن في البحث عن مفردات التعريف لوقائع القضية كما تاريخها ومحطاتها، والتي هي بالتأكيد مسألة حاسمة، ولا أظن أن هناك من يدعو لاستهلاك الذهن في هذا الأمر، ونحن اليوم لسنا بصدد تقرير مسألة الانتماء، فالأدب السياسي الوطني والقومي عرّف هذا الأمر بتفاصيله باعتبار فلسطين جزءاً من الوطن العربي وشعبها جزءاً من الأمة العربية، وهي أيضاً شاملة باعتبارها قضية الأمة المركزية.



إذاً الملح الآن أن نسأل الذات عن المسؤولية، فالجنون أن نلهج صباح مساء بأبوتنا لأبنائنا أو أن يلهج أبناؤنا بأبوتنا لهم، بينما المطلوب أن تتحدد المسؤوليات بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تحديداً يحمي فلسطين، ويحمي القومية العربية.

والمسألة هنا مستغرقة في الموضوع كحالة فعل وتفاعل، فيها السلب والإيجاب، القوة والضعف، نظراً لأن الأمور الكبرى في حياة الشعوب لا تختزلها أنصاف الحقائق، ولا تحميها جزئية الرؤية، انها حقيقة تتصف بالشمول، وهو أهم شرط في النظر للمسائل الكبيرة، مع توفر قدر ملائم من النزاهة والشجاعة لرؤية الحقيقة الكاملة والتعامل مع استحقاقاتها.

الأسئلة الكبيرة المستمدة من وقائع مريرة، قد تغفل الإجابة عليها في مرحلة ما، ولكنها لا تكف عن الوجود. أسئلة من نوع أسباب الهزيمة والإخفاق والفشل، وفي الإجابة تتجلى المسؤولية الوطنية والقومية، ليس بهدف تكريس الهزيمة أو التسليم بنتائجها، بل من اجل إنتاج رؤية عربية جديدة ليس لتقرير مسألة الصراع مع العدو الصهيوني، وهي حالة يقينية، بل لتنظيم وتفعيل أدوات الصراع بما يستجيب للرؤيا والمصالح القومية للأمة.

فالمسألة لم تعد تقف عند حدود إقرار مبدئية الصراع بين حق وباطل، بين خير وشر، بل إنها تتخطى ذلك لتشمل تقدير عوامل استحقاق الحق وتوفير شروطه وعناصره وأساسها تعديل ميزان قوى، الذي يقرر في مضمون الصراع ويحوله من صراع بين حق وباطل (كمبدأ) إلى صراع قوى ومن يستحق الحق عليه واجب توظيف إمكاناته لنيله وإعداد شروطه أو على الأقل السير لإعداد تلك الشروط.

لنعود إلى البداية هل السؤال المطروح علينا، رداً على سؤال الهزيمة، هو سؤال حول الانتماء وقومية القضية؟ أم سؤال المسؤولية القومية تجاه القضية القومية؟ باعتبار الصراع يدور بين الأمة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وبين مشروع عدواني طامح لأن يستكمل ذاته في التوسع والهيمنة على عموم المنطقة، فإسرائيل وبعد مائة عام على إعلان الصهيونية وخمسين عاماً على قيامها تجدد ذاتها لإنجاز كامل مشروعها.

وقبل أن نصل للنتيجة لا بد من حسم مجموعة مفاهيم هي من طبيعة إشكالية بدون حسمها يستمر الدوران في الحلقة المفرغة. بل قد تكون كلفة عدم الوضوح كبيرة تأخذ شكل تكرار الفشل والهزيمة أمام مشروع الآخر، فما هي هذه الإشكاليات التي تستدعي تصويب المفاهيم، التي يشكل استيعابها، امتلاك بداية صحيحة لإدارة الصراع على نحو صحيح؟

أولاً: مفهوم ميزان القوى

منذ عقود مضت ومقولة امتلاك ميزان القوى في إدارة الصراع العربي ـ الصهيوني، تتكرر في الأدبيات والخطاب السياسي الفلسطيني ـ العربي عموماً، دون تحديد ماهية عناصر ميزان القوى المأمول من جهة أو حصره بالناحية العسكرية من جهة ثانية، (عدد الدبابات، الطائرات، الأفراد، الأسلحة)، ورغم أهمية هذا الجانب، إلا أنه يسطح ميزان القوى ويتعامل معه كمفهوم جامد وجزئي وليس كحصيلة سياسية اقتصادية اجتماعية علمية.

والآن بعد عقود من الصراع مع الغزوة الصهيونية وكيانها المادي «إسرائيل» ألم يحن الوقت لقراءة علمية وعملية تجيب على سؤال ما هو مفهوم ميزان القوى العربي المأمول مقابل ميزان القوة الإسرائيلية؟

وكما يقول الدكتور علي الدين هلال/ عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة تتحدد الإجابة على النحو التالي «توازن القوى أو التوازن الاستراتيجي لا يقتصر على التوازن بين القدرات العسكرية، وإنما يمتد ليشمل مختلف عناصر القوة القومية للدولة، والتي تتضمن القدرة الاقتصادية ومدى تماسك المجتمع وتجانسه الوطني، ومدى وجود إرادة سياسية فاعلة، وحدود تأييد الرأي العام للأهداف السياسية العليا، كما تتضمن قوة الدولة وما تستطيع أن تعبئه من موارد خارجية ودعم دولي».

نضيف لما قاله الدكتور هلال، أن تكامل البنية السياسية ـ الاجتماعية، وامتلاك المعرفة ومواكبة مستويات التطور بامتلاك وسائل

العلم، والتنمية الاقتصادية، وتوفير أقصى الحقوق السياسية والاجتماعية، من خلال ترسيخ قيم مجتمعية ديمقراطية هي شروط الضرورة القصوى لامتلاك ميزان قوى فاعل.

إذن مفهوم ميزان القوى يعبر عن حصيلة تطور المجتمع وارتقاء معايير أدائه لتتناسب مع متطلبات نموّه وتقدمه من جانب، ومعايير الصراع ضد العدو القومي من جانب آخر. وبهذا المعنى فهو عملية متواصلة ومتحركة في الزمان والمكان.

ثانياً: مفهوم الأمن القومي

ارتباطاً بما سبق لا يمكن لأي شعب أو أمة، أن تتجاهل أهمية حرصها على توفير أقصى قدر من أمنها الوطني والقومي، إلا أن السؤال الذي يتقدم هل يمكن أن يحفظ هذا القدر أو ذاك من الأمن الوطني لأي قطر عربي خارج روابط وضوابط البعد القومي سواءً في السلوك المرتبط بالتطور الطبيعي، أو في حالنا حيث حالة الصراع مع عدو خطير كالعدو الصهيوني؟

بينت العقود الماضية منذ أول غزوة للمشروع الصهيوني لفلسطين، ثم قيام الكيان، وعدوانيته الدورية على الأمة العربية، أن لا حجة لكل منطق يعتقد أنه كفيل بحفظ أمن الدولة القطرية خارج سياق الوحدة، إن لم تكن الكاملة فالمتدرجة صوب الأهداف المحددة، مسألة التنمية، التطور، الدفاع الذاتي، الديمقراطية السياسية والاجتماعية.

كما لا يمكن لأمن قومي أن يتحقق خارج التحرر السياسي - والاقتصادي من خلال الوفرة الإنتاجية والغذائية منها في المقدمة، وتوفير أقصى فرص من الحياة الكريمة للإنسان العربي، حتى يصبح أمن البلد أمناً مجتمعياً شاملاً، وليس سلوكاً بوليسياً يرى الأمن من خلال الحفاظ على صرامة تنفيذ القوانين والانضباط لقرارات الدولة فقط.

إن قيمة هذه المسألة لا تكمن فقط بمعانيها الشكلية والعملية، بل في دلالاتها الاجتماعية، بما يوفر مجموعة قيم اجتماعية أصيلة، ويعزز جوهرها القائم على حماية الذات من التشوه المتولد عن أنماط تغرقه في الاستهلاك ولا تساهم في الإنتاج، وهكذا يتحول مفهوم الأمن من ممارسة بوليسية قمعية إرهابية إلى قيمة اجتماعية.

لذا يصبح الأمن القومي أمن/ اقتصادي، سياسي، اجتماعي يردم الانفصام الحاصل بين الدولة والمجتمع. وذلك أن حالة الفصام تضع باستمرار المجتمع في حالة مواجهة معلنة أو مضمرة مع الدولة، ومن هنا قيمة الديمقراطية بتعبيراتها الشاملة كبوابة للفعل والثقة وإطلاق طاقات المجتمع.

وهذا ما يفسح المجال لقول أن الأمن القومي للأمة جزء رئيسي من عناصر ميزان القوى الاستراتيجي الذي يحفظ لها مكانتها ودورها.

ثالثاً: مفهوم الخاص والعام (الوطني والقومي)

في التاريخ السياسي الحديث لفلسطين، وتحديداً منذ مطلع القرن العشرين، لم تكن يوماً فلسطين خارج عروبتها، ولم تكن العروبة خارج فلسطين كقضية قومية، وهكذا وصولاً لعام النكبة (عام إقامة الكيان الصهيوني) حيث كانت السمة الغالبة هي التوحد العربي والتضحية من اجل حماية فلسطين من الغزوة الصهيونية، رغم ما في هذه التجربة الممتدة من أخطاء وإخفاقات في إدارة الصراع التي انتهت إلى حصيلة سلبية، فما أحوجنا إلى مراجعة جادة وشاملة لدلالاتها في الحالين الوطني والقومي.

رصيد واسع من التضحية وتوقد المشاعر القومية، وانفصام في الأداء السياسي أدى لخيبات وهزائم أصابت جسد الأمة من مشرقها إلى مغربها إثر إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، أمام هذا الواقع اتخذ الحال السياسي اتجاهين:

الأول: رسمي سمته الأساسية التبديد والطمس للشخصية الفلسطينية، الأمر الذي أسهم في تكريس الموقف الصهيوني وإن بصورة غير مباشرة، باعتبار قضية الشعب الفلسطيني مجرد مشكلة لاجئين فحسب.

والثاني: اندماجي في النشاط القومي (حركات وأحزاب وقوى سياسية) لاغياً الخاص الوطني بصفته حالة صراع مع عدو يدعي بأنه أقام دولة على «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

من هنا تشكلت بداية الخلل في مفهوم الوحدة بين الخاص والعام، وجدلية الوطني والقومي، وتفاقم التناقض بصورة خاطئة ومختلة بين الحالين، وكأن لا رابط بين هذا وذاك، وهو بالتأكيد تناقض انفعالي غيب الوجهة الصحيحة للعلاقة بين شعار الوحدة طريق التحرر، وجدلية الوطني والقومي.

إذا كانت الخمسينيات قد شهدت حالة صعود في العام القومي، فالستينيات شهدت حالات إخفاق وتراجع ليس لصالح الخاص الوطني فحسب بل شهد توطيد القطرية القائمة على حساب المصالح الضيقة، تعزز هذا الإخفاق عبر مشاهد صراع دموي امتد على مساحة واسعة من الأردن إلى لبنان، ما بين الخاص الوطني الفلسطيني والسلطات القطرية وكلاهما انتهى إلى هزيمة تعززت بالتسويات مع العدو الصهيوني، ضمن حسابات تتجاهل جميعها المصالح الوطنية والقومية للأمة.

وعليه فالسؤال الملح عن أي مشروع قومي يمكن الحديث عندما يتداول البعض ربط الخاص بالعام والوطني بالقومي؟

إنه لمن السذاجة بمكان إذا اعتقد البعض أن حلاً للتعارض بين الوطني والقومي أو عن مكانة فلسطين يكمن في الانخراط تحت راية هذا النظام أو ذاك، بينما القطري ذاته يتصرف كحالة خارج البعد القومي في المفهوم والسياسة والممارسة، وما لم يتكون في الحال رد على هذا السؤال ومن الجميع، أي عن الخاص وموقعه في العام، والوطني وحدود فعله في القومي سنبقى ندور في ذات الدائرة ولن تتم المغادرة إلا من خلال تعزيز الوطني بما هو حالة صراع مع العدو الصهيوني وبالقدر الذي يؤدي وظيفته على أساس هذا، وفي نفس الوقت تحدد المسؤولية الجماعية القومية للأمة في مد الصراع بذخيرة الإدامة والاستمرار على طريق تركيم نتائج حاسمة في الصراع.

وفي سياق ذات المنهج وضمن نفس الضوابط الفكرية، فلا بد وأن يتم التعامل مع الواقع الفلسطيني باعتباره واقعاً خاصاً ارتباطاً بعام أشمل هو الواقع العربي. وهذه حلقة ترقى إلى مستوى القدسية، في ضوء الجريمة التي جرى ويجري ارتكابها معبراً عنها بمحاولات الوصول لحالة من الانفكاك السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بين القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني وعمقها العربي.

هذه المحاولات وإن كانت لا تخيفنا بالمدى البعيد، بحكم مناقضتها للتاريخ والجغرافيا والمصالح والثقافة العربية، إلا أنها تضيف صعوبات وعراقيل جديدة إلى الصراع، وتساهم في تعزيز قيم القطرية والتمزق التي تنامت في العقدين الأخيرين، الأمر الذي يراكم المزيد من عناصر الكبح في وجه مشاريع الوحدة العربية، والنهوض القومي العربي.

وهنا لابد من الإشارة إلى بديهة أثبتتها التجارب المرّة والحلوة في تاريخنا الفلسطيني والعربي، وهي استحالة هزيمة المشروع الإمبريالي - الصهيوني من خلال مشروع قطري فلسطينياً أو سورياً أو لبنانياً أو أردنياً أو مصرياً كان، الأمر الذي يعني حكماً أن أي نضال قطري يجب أن يكون جزءاً عضوياً من مشروع قومي أشمل، مع ضرورة توحيد المفهوم بالربط الحي بين المسائل الوطنية والقومية وتوحيد الرؤية في المسؤولية تجاه إدارة صراع ناجح يتجاوز حال الهزيمة.

رابعاً: شمولية الصراع وآفاقه:

واقع الهزيمة والاستسلام كانت نتائجها عند البعض حالة من الانكسار وجدت تعبيراً لها على شكل استبدال مفردات سياسية أساسية من نوع/كيان غاصب، سرطان في المنطقة، كيان دخيل ومرفوض، بمفردات/ التعايش، الجوار، دولتان لشعبين، استراتيجية السلام، جسور الثقة، الشرق أوسطية، التطبيع، النزاع..

لقد تراجعت الأولى وانتعشت الثانية في مناخ الاتفاقات والصلح والاعتراف بالعدو/منذ كامب ديفيد، وأوسلو، ووادي عربه.

والمسألة ليست مفردات معزولة عن دلالاتها السياسية، أو القيمية ولهذا أصبح من الملح أن يعاد الاعتبار لوحدة مفهوم التناقض التاريخي والمصيري، بيننا وبين العدو وكيانه المادي المسمى «اسرائيل».

وإن كان من الجائز لنا أن نستخدم التكتيك المناسب للحركة في ظل موازين القوى الراهنة، إلا أنه لا يجوز أن يبتلع التكتيك الراهن الاستراتيجية العليا ومصيرية الصراع وآفاقه التي لا يحق لنا على الأقل وكمسؤولية تجاه الأجيال اللاحقة إلا رفضه ومقاومته على طريق فلسطين عربية ديمقراطية واحدة.

واقع الحال هو امتداد لحال أسبق، تتكرر فيه الأخطاء التاريخية والقاتلة التي تذهب لما قبل إقامة الكيان الصهيوني، حيث تعاملت الحركة السياسية بواقعها الرسمي والشعبي باستمرار مع مسألة الصراع بسياسة جزئية، فاقدة لضوابط اللوحة وشموليتها بدءاً من تحديد من هو العدو، مروراً بفصل التكتيك الراهن عن الأهداف العليا، وصولاً إلى حالة الاستسلام لمقولات العدو التي عبرت عنها الاتفاقات الإذعانية المعقودة معه خلال العقدين الأخيرين.

هذه الحقيقة تدلل عليها خمس ظواهر كبرى:

1 ـ الحركة السياسية الفلسطينية التي ساد على سطحها ومنذ العشرينات والثلاثينات وحتى الأربعينات قوى كانت تمارس سياسة تقوم على الفصل ما بين الاستعمار البريطاني كقوة انتداب حاضنة للمشروع الصهيوني، وبين المشروع ذاته الممتد من مؤتمر بال كإعلان سياسي إلى الهجرة والاستيطان وبناء القوة العسكرية.

2 ـ رهان الحالة العربية الرسمية بضغوطها المعروفة على ثورة 1936 ـ 1939 على الحركة الوطنية الفلسطينية بناء على وعد بريطاني تكتيكي في محطة ما .. (نشوب الحرب العالمية الثانية) في الوقت الذي بقيت الحركة الصهيونية تعد ذاتها لامتلاك عناصر قوة سياسية ـ اجتماعية اقتصادية عسكرية لتنفيذ مشروعها.

3 ـ عند احتدام حالة الصدام الجهادي والإنقاذي والعسكري بين العرب والحركة الصهيونية على أرض فلسطين، وكانت الأمور في لحظات ما تميل للصالح العربي، كانت سياسة الأنظمة العربية تميل إلى قبول هدنات تخدم الآخر وصولاً لعقد سلسلة الهدنات الشهيرة 1949 كل قطر عربي على حده، وكان هذا نزولاً عند المطلب الصهيوني آنذاك. وذات السياسة التي أدت لاحقاً لسلسلة من الانحدار بالقضية.

4 ـ الهبوط بالمفاهيم السياسية من الصراع إلى النزاع وكأن المشكلة بين دولتين جارتين متنازعتين على حدود أو مياه، أو غيرها من الأمور، ومن حالة صراع وجود إلى حالة حدود، ومن تناقض تاريخي ومصيري إلى ادعاء التعايش وحسن الجوار، ومن حالة رفض للاغتصاب والعدوان، إلى حالة إقرار (من البعض) بحق الوجود مرتكبين بذلك إثم التنكيل بالتضحيات والضحايا وبالمفاهيم ومرتكزات الصراع وهذا الأخطر.

5 ـ هكذا حال يقابله حال التماسك في النظر والمفهوم والسياسة والتكتيك والأهداف التي حددتها الحركة الصهيونية لذاتها لتحقيق أهداف مشروعها الذي لم تنته خطواته وخطوطه بعد.

لقد آن الأوان لأن نفهم بأن صراعنا الشامل مع العدو صراع حضاري وعلى كل الجبهات السياسية والثقافية والاقتصادية والعلمية والعسكرية.

خامساً: مفهوم البعد الدولي:

بينما برعت الحركة الصهيونية منذ الإعلان عن مشروعها قبل قرن في استخدام الحالة الدولية لصالحها وبكل المقاييس والمعايير التي خدمت مشروعها، وقد شكلت الحالة الدولية ركيزة أساسية لإقامة الكيان الصهيوني والتي كانت بدونها ترتسم ألف علامة استفهام حول قدراتها الذاتية لوحدها أن تؤدي الغرض المعلن في المشروع.

والحال العربي الذي يكمن مصدر قوته في وحدة أدائه الذاتي، اغفل هذا البعد في إدارة المعركة على المساحة الدولية منذ بدايات المشروع أي منذ مؤتمر السلام في باريس عام 1919 وحتى اليوم، ولم يكن متنوعاً في علاقاته، بل حاصر نفسه في مرجعية واحدة (بريطانيا) في النصف الأول من القرن واليوم باعتماد وحدانية المرجعية الأمريكية.

وعندما وافق العرب على القبول بالقرارات الدولية، فإن قبول النظام العربي عملياً قد استجاب لفعل الآخر دون أن يسهم في صناعة قرار.

بل وأكثر من ذلك عندما تجاهلت القوى الدولية قرارات ما .. كان يمكن أن توظف لصالح القضية، فإن العرب عموماً والفريق الفلسطيني المتنفذ خصوصاً تواطأ وقبلا بالتنازل عملياً عنها مع أنها الآن تشكل إحدى أدوات الصراع (مثال القرار 194 الذي يدعو بعودة الفلسطينيين إلى ديارهم، والذي اتخذته الأمم المتحدة عام 1949).

وعندما قبلت قيادة م.ت.ف المتنفذة التعامل مع القرارات الدولية فإن خيارها وقع على قرار مجلس الأمن (242) من دون كل القرارات المتراكمة ارتباطاً بالقضية الفلسطينية والعربية، وهو الأسوأ بين كل القرارات، والذي هو مولود حالة هزيمة 1967.

ليس هذا فحسب بل إن فعل التوحد لتجييش سياسة فاعلة في الحالة الدولية باستخدام موقع الأمة العربية في الخريطة الدولية، وإمكاناتها وما تملك من طاقات اقتصادية وحضارية وبشرية، لم توضع في المعركة في عملية لتركيم النتائج، والأفدح أننا المتلقي لمفاعيل الحالة الدولية ولسنا الفاعل كما هي الحركة الصهيونية المتكئة وعبر عقود على الإمكانات الدولية.

بذلك نرى عدم وجود ناظم للعلاقة العربية في الحال العالمي، وهل من مشهد أبشع من مشاهد الحصار على عدد من البلدان العربية في الوقت الذي ترسم فيه زعيمة النظام الرأسمالي (الولايات المتحدة الأمريكية) خطاً ناظماً لعلاقاتها مع دول العالم يقوم على أساس الإقرار بأولوية مصالح إسرائيل بينما يغيب أي ناظم عربي موحد عن خريطة الحركة السياسية في العالم.

خاتمة القول، إن وحدة المفاهيم الخمسة وتكاملها تشكل أساساً لاستنهاض مسؤولية قومية تتجاوز بديهية الإقرار بالقضية الفلسطينية كقضية قومية، وذلك بدفع الحقيقة إلى نهاياتها، لتصل إلى نقاش المسؤولية القومية تجاه قضية فلسطين.

وهي ليست دعوة لتجميد الصراع حتى تنجز هذه العناصر، بل هي دعوة لإدامة الصراع المتزامن مع العمل لتوفير آليات الإنجاز، بما يؤمن تحويل الإدامة إلى انتصار محقق.

وأمتنا تختزن طاقات عظيمة وقوى فعل سياسي وطنية وتقدمية متنوعة ترفض الاستسلام وتجمع على ممانعة القبول بالمشروع الصهيوني، وهي تحتاج دوماً إلى وضع فعلها دائماً عند النقطة المتقدمة في كل مرحلة ■■



خطاب إلى الشهيد البطل عبد القادر الحسيني

(بمناسبة مرور خمسين عاماً على استشهاده في معركة القسطل)

فاروق القدومي
رئيس الدائرة السياسة في م.ت.ف

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليك يا رمز الشهادة والفداء، أيها القائد الشهيد الذي سال دمه الطاهر على ثرى فلسطين المقدسة، أدى الأمانة وقدم أعظم إنجاز في مسيرة الكفاح الوطني.

يا أبا موسى، قدت الثورة في أصعب الأزمان، فكان اسمك يقض مضاجع عدوك، وتزلزل أركان الظلم والعدوان. لقد زرعت في الأرض الفلسطينية افكار الثورة والمقاومة فشرب المجاهدون لبن الكفاح والصمود.

كنت داعياً للعدل والحرية والتحرير، فبعثت الأمل في صفوف الشعب والأمة، ودعوت للوحدة الوطنية والتلاحم، فاستجاب لك الشعب، وقاتل تحت رايتك، راية الخلاص، وإنقاذ الوطن من الغزوة الصهيونية، خلفت تراثاً لاينضب ورسمت للأجيال القادمة طريق الحرية والإستقلال، إن التزامك الوطني والقومي قد عزز قضيتنا الفلسطينية، واستقطب كل المخلصين من العرب.

تنام اليوم قرير العين مع من سبقك من إخوتك الشهداء كالشيخ الجليل عز الدين القسام وعبد الرحيم الحاج محمد وسعيد العاص ومن لحقك فيما بعد أبو جهاد وأبو إياد وأبو علي إياد وأبو الوليد وأبو الهول وكمال ناصر وكمال عدوان وغسان كنفاني وعبد الفتاح حمود وأبو صبري وماجد أبو شرار وفتحي الشقاقي ويحيى عياش ومحي الدين الشريف وآخرون من قوافل الشهداء.

لقد كنت عظيماً في جهادك واستشهادك!

إننا نستذكر اليوم مرور خمسين عاماً على موقعة القسطل، يوم أن حررتها أنت ورفاقك، فأبى القدر إلا أن تسقط شهيداً على أرضها الطاهرة، فتحية لك ولإخوانك ولكل الشهداء... فشعب فلسطين لن ينساكم، وهو يعيش اليوم مرحلة من أصعب مراحل كفاحه الوطني، فلقد ادلهمت الخطوب، وطغى العدوان، وتآمر الصهاينة وحلفاؤهم على شعب فلسطين، وها هو شعبك العظيم صامداً أمام القهر والإحتلال البغيض، يقاوم الإستيطان المستشري في أرضنا الطيبة، ولن نيأس، فلنا في تضحية الشهداء قدوة حسنة ولن نحيد عن هذا الطريق مهما عظمت التضحيات..

فطوبى لك في مثواك الأخير، والجنة مسكنك والنصر لشعبك الصامد المقاوم، وستبقى راية فلسطين الحرة ترفرف فوق الأقصى والقيامة■■

في الذكرى الخمسين للنكبة

دعوة إلى انشاء المركز العربي لمقاومة الارهاب الصهيوني

أنيس صايغ

تطل علينا ونحن نمر بالذكرى الخمسين لسقوط فلسطيننا واغتصاب ديارنا عناوين جملة من العوامل التي تضافرت معاً، مباشرة وغير مباشرة، في وقوع النكبة. وسأحصر حديثي في هذه المقالة في واحد من هذه العوامل، وهو عامل بارز وفاعل بشدة، ان لم أعمم قليلاً وأصفه بأنه العامل الأبرز والأكثر فاعلية. انه الارهاب. الارهاب الصهيوني الذي بلغ من الخطورة والتمايز ان تحوّل من مجرد أداة يحقق الصهيونيون بواسطتها مخططاتهم في اغتصاب فلسطين إلى هدف بحد ذاته يوازي الثوابت الصهيونية التقليدية والراسخة في مئة عام. ولعله الارهاب الرسمي الوحيد في عالمنا المعاصر الذي يحمل صفتي الغاية والوسيلة معاً.



زيتون روحي جذور عميقة بالأرض

للارهاب الصهيوني صفات خاصة به يعطينا التعرف عليها بتأن وموضوعية فرصة لفهم الارهاب على حقيقته بشكل عام ولتتبع دوره في اغتصاب فلسطين وقيام الكيان المزيّف (المزيّف بمنطق الحق القومي والارادة الشعبية، وإن كان هو حقيقة قائمة وقوية وذات سطوة في عالم الواقع الراهن) منذ خمسين سنة، اضافة إلى دوره الممتد خمسين سنة أخرى إلى الوراء في عملية التمهيد لقيام الكيان، ثم المتواصل خمسين سنة أخرى بعد الاغتصاب في عملية دعم الكيان وحمايته وتوسيعه.

هذه الخلفية التاريخية، في مدى قرن كامل للارهاب الصهيوني (أي منذ انتظام الحركة الصهيونية في المنظمة الصهيونية العالمية صيف ١٨٩٧) هي الصفة الرئيسية الأولى لهذا الارهاب، فهو ليس وليد سعي صهيوني في زمن وظرف معينين (في أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية وتسلّم الولايات المتحدة زمام حركة تحقيق الأهداف الصهيونية على الصعد السياسية والدولية والاعلامية والمالية وحتى العسكرية أيضاً) لاقتناص الفرصة واعلان انشاء «الدولة» بل هو، كما تنبئنا مخلفات مؤسس المنظمة الصهيونية من مذكرات ورسائل وكتب ومقالات، وكذلك كتابات رفاقه في قيادة الحركة، وليد تصميم مدروس وواضح بأن يلازم الارهاب المساعي المتعددة لتحقيق أهداف تلك الحركة، ويصاحبها في مراحل التمهيد والاعداد ثم خلال عملية التنفيذ المتدرج ثم في ما بعد تجاوز فترة وضع اللبنات الأولى لبنيان «الدولة» التي تشمل الترسيخ ثم التوسيع.

إذن فإن مؤرخ الإرهاب الصهيوني يخطئ إذا توهم أن فصوله بدأت في كنف الإستعداد لإعلان قيام «دولة إسرائيل»، مثلما يخطئ إذا توهم أن «الدولة» اعتمدته لمجرد شعورها بالحاجة إليه لتأمين بقائها وحماية حدودها ـ تلك الحدود التي لم ترسمها قط، ولا في يوم من الأيام، وتركت تحديدها للزمن، طبقاً لامكانات التوسع، بمعنى أن الارهاب أصبح، بعد أيار ١٩٤٨، عاملاً من عوامل تقرير هذه الحدود غير المعلنة رسمياً، بحيث تتوسع كلما أمكنه هو أن يؤمن لها الحماية، أو تراوح مكانها مؤقتاً كلما عجز الارهاب عن أن يقدم ضمانة كافية للامتداد على حساب الأراضي المجاورة لفلسطين.

نقول بكلام آخر ان الارهاب كان ومازال وسيظل إحدى صفات الصهيونية كفكر وممارسة، وكحركة ودولة. ولا يسمح لنا المنطق المجرد ولا البحث التاريخي ولا الاستشراف المستقبلي أن نتخيّل صهيونية غير ارهابية، لا في توجهها العقائدي ولا في برنامجها العملي ولا في ممارساتها اليومية. والصهيونية غير الارهابية، أي المسالمة والوديعة، مثل اسرائيل غير الصهيونية: كلا المصطلحين وهمان زائفان وشطط في تيه التصورات الغيبية الغبية. إذا خسرت اسرائيل صهيونيتها فقدت وجودها، بفقدان المبررات والمقومات والمعاني. وهي، بالتالي، تزول. وكذلك الارهاب. إذا فقدت الصهيونية (واسرائيل) ارهابيتها خسرت قاعدة ارتكازها وسقطت. من هنا تتراءى لنا ملامح هذا المثلث الجهنمي القبيح: الصهيونية، واسرائيل، والارهاب، ووضع الضلع الاسرائيلي وسط هذا المثلث متعمد، فإذا فقد الضلع الاسرائيلي ضلعيه الآخرين، صهيونيته (كعقيدة أساساً) وارهابيته (كركيزة أساساً) سقط المثلث ولم يعد لذلك الضلع وجود. وإذا سمحنا لأنفسنا أن نستطرد نقول تبعاً لما تقدم ان حتمية ترابط هذا المثلث في أضلاعه الثلاثة تعني حتمية استمالة السلام. فالسلام، وهو نقيض الارهاب، يعني وجوده بالضرورة إلغاء لاسرائيل وللصهيونية.

ليس غريباً، إذن، أن تكون للإرهاب برامجه ومخططاته المدروسة مادام هو جزء أساسي من البرامج والمخططات الصهيونية المدروسة. فهو،

في آليته العملية (على مدى قرن من الزمان) انعكاس وفيّ لآلية البرنامج الصهيوني ككل. وهذه هي ثاني صفات الارهاب الصهيوني. لم يكن هذا الارهاب، ولا في يوم من الأيام أو ضربة من ضرباته أو واقعة من وقائعه، اجراء انفعالياً أو رد فعل متسرع أو حاصل غضبة طارئة. لا يعرف الارهاب الصهيوني ردات الفعل العاطفية ولا الأحداث التلقائية ولا العشوائية. وهو، على نقيض ذلك، مجموعة محكمة الترابط بين جزئياتها من التفاصيل المحسوبة بدقة، نوعاً وأثراً وزماناً ومكاناً وهدفاً. يدير العقل المدبّر للارهاب خيوط العملية (في التخطيط المسبق ثم في التنفيذ على أرض الواقع ثم في جني المكاسب المباشرة أو البعيدة) بدقة وعناية واتقان بحيث لا يسمح لخطأ أو جنوح عن البرنامج المعد. وإذا حصل مثل هذا الانحراف فإن البدائل تكون هي أيضاً معدّة سابقاً، لتصحيح الخطأ أو تخفيف آثاره السلبية أو التعتيم عليه وعليها أو التمويه.

الارهاب خطة تختزن ما في العقل الصهيوني (وما يتزود به هذا العقل من علم وتجربة ومرونة وتراكم) من قدرة علمية، خطة عامة ذات أبعاد ومراحل وثوابت وبدائل، عريضة وشاملة تترك فراغات تفصيلية أو ظرفية تملأها وتقررها الأحداث والامكانات المتبدلة أو الطارئة. ولنأخذ أمثلة موجزة على ذلك توضح هذا الترابط بين الخط العريض والثابت والجامد للبرنامج وبين التفاصيل المتحركة والتي نسميها آنية ببعض التحفظ:

○ يتطلب التمهيد الصهيوني لاغتصاب فلسطين، في الثلاثينيات، مواجهة الثورة الوطنية الفلسطينية، الملحمية في بطولاتها وتضحيات أبنائها (بالرغم مما شابها أحياناً من أخطاء وتجاوزات) واضعافها سواء على الصعيد الحربي أو السياسي أو النفسي أو الاقتصادي أو البشري أو العملياتي. لذلك يعهد إلى سلاح الارهاب، وهو أمضى الأسلحة في تلك الحقبة، ان ينزل في الثورة (في عناصرها، أو في شعبها، أو في أسلحتها، أو في طريق مواصلاتها وامداداتها، أو في سمعتها، أو في التحامها مع الجماهير...) ضربات موجعة تشل بعض الحركة أو تحدّ من القدرة على التوسع أو الاستمرار. وهكذا يضرب الارهاب الصهيوني المقنّع ضربات متوالية في أماكن وتجمعات محددة تكفل تحقيق بعض أغراضه التي أوكلت القيادة السياسية إليه أمرها. فيُضرب فريق ثائر ويشاع أن القتلة هم من فريق آخر. ويدمر بيت عبادة لطائفة تبادر فوراً إلى اتهام طائفة أخرى باقتراف الجريمة. وتفجر القنابل في أماكن تجمّع مدنية (كالساحات والمدارس والمستشفيات والمتاجر والمكاتب والشوارع المزدحمة والأسواق التجارية والقطارات) فتفتك بالعشرات (وبالمئات أحياناً) لترويع السكان وحملهم على الهرب، وأحياناً على النفور من الثائرين بالقاء مسؤولية الفتك الصهيوني الجماعي عليهم هم لأنهم لم يؤمّنوا الحماية الكافية.

○ وفي الأربعينيات، تعمل القيادة الصهيونية على الضغط على بريطانيا المثقلة بخسائر الحرب العالمية الثانية وان خرجت منها منتصرة، وهي خسائر تضطرها إلى كسب ود العرب إلى حد ما. ولابد للارهاب من أن يكون رديفاً في عملية الضغط للمساعي الدبلوماسية والاعلامية وشتّى أنواع الضغط المعنوي. ويطلق له العنان بلا قيود ولا تحفظات. فيخطف، ويقتل، ويشنق، ويفجر ويهين أكبر عدد ممكن من رموز الوجود البريطاني في فلسطين أو رموز التعامل البريطاني مع المسألة الفلسطينية خارج فلسطين. وتتساقط الضحايا البريطانية، من ضباط وجنود وموظفين اداريين وقضاة وحكّام ألوية، ومن زوجات وأبناء وبنات مدنيّين، بل ومن وزراء وسفراء أيضاً. ويسقط بالتالي وفي مدى خمس سنوات فقط، من البريطانيين في عمليات ارهابية صهيونية أكثر مما سقط في أي بلد آسيوي أو افريقي ناضل في الأربعينيات من أجل الحصول على استقلاله من الحكم البريطاني، بما في ذلك شبه القارة الهندية التي بلغ تعداد سكانها أكثر من مئتي ضعف عدد اليهود في فلسطين.

ونحن نجد في ما حصده البريطانيون مما زرعوه في أرض فلسطين من اجراءات لصالح الصهيونيين تعبيراً عن المثل العربي «انقلب السحر على الساحر». وقد صدق المثل، فيما بعد، على الولايات المتحدة والأمم المتحدة حينما عضها ناب الارهاب الاسرائيلي بالرغم من كل ما فعل هؤلاء لصالح اسرائيل.

○ ويدرك الصهيونيون، في الثلاث سنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، أن مسيرتهم الطويلة نحو اغتصاب فلسطين قد قاربت الوصول إلى مبتغاها. لذلك لابد من الاسراع بتنفيذ الخطة الموضوعة منذ أواخر القرن التاسع عشر (أي قبل ذلك التاريخ بنصف قرن). وهي ان انشاء الدولة يجب أن يمهّد له، ويصاحبه، ويليه مباشرة، سعي مكثف لاخلاء فلسطين من سكانها لاسكان مهاجرين يهود وافدين إلى فلسطين من أرض الله الواسعة. ولذلك كان على الارهاب الصهيوني أن يقوم بعمليتين مزدوجتين، متعارضتين شكلاً، في آن: ان يقتلع عرب فلسطين من ديارهم، وان يرغم يهود «المهجر» (أي يهود العالم خارج فلسطين) على مغادرة محال اقامتهم والنزوح إلى فلسطين.

قام الارهاب الصهيوني بدوره المزدوج هذا بمنتهى المهارة والاتقان، أي بالحد الأعلى من الوحشية والعنف الدموي وعلى حساب عشرات آلاف من الضحايا البريئة والمسالمة من المدنيين العزّل، من فلسطينيين ومن يهود. وفي هذا الاطار وحده نستطيع أن نفهم مغزى مذابح ومجازر جماعية من نوع ما حصل في دير ياسين والشجرة ربيع ١٩٤٨، ثم في القبية ونحالين وكفر قاسم وقلقيلية والسموع وغزة في الخمسينيات والستينيات. وكذلك ما حصل في عمليات اغراق سفن محملة باليهود الهاربين من أوروبة، أو تدمير المحال والأحياء اليهودية في بغداد، في الأربعينيات.

○ وتتوالى العمليات الارهابية الصهيونية في خمسين السنة الأخيرة في عشرات الأماكن والهجمات ضد مواقع وأفراد وهيئات تختارها القيادة وتحددها في ضوء المعطيات والظروف من ضمن البرنامج الأساسي المعدّ سابقاً لمواجهة مقاومة الشعب الفلسطيني والمؤازرة العربية له في أي مكان أو حال يكفل لتلك الضربات نجاحاً في اضعاف بنية المقاومة أو الحد من نشاطها أو ابعاد التأييد الشعبي والجماهيري عنها أو التشكيك بجدارتها وفاعليتها أو تشويه سمعتها في العالم. أما الرقعة الجغرافية فتمتد من بغداد شرقاً إلى تونس غرباً، وتشمل مئات المواقع، من أحياء سكنية ومخيمات ومرافق عامة وبنى تحتية ومعاهد ثقافية وتربوية وأماكن سياحية ومؤسسات تجارية واقتصادية وبيوت عبادة وملاجئ ومصحّات. ويختار كل موقع بدقة، ليتصاعد عدد ضحاياه إلى الحد الأقصى وليهبط حجم خسارة الأيدي المجرمة إلى أدنى حد.

انها مجرد أمثلة على التنسيق بين الهدف الاستراتيجي والتنفيذ التكتيكي للعمل الارهابي الصهيوني. يحقق الفعل المعيّن (الذي يحدد في ضوء الواقع والامكانات) الهدف الثابت والبعيد على أتم وجه، فيتلاحم الآني المتحرك مع البرنامج الثابت تلاحم الهدف مع الوسيلة، وكلاهما صفحتان لورقة واحدة.

وتكشف هذه الأمثلة (وملف الارهاب الصهيوني مليء بالمئات منها) عن الصفة الثالثة لهذا الارهاب. وهي انه ارهاب ذو رسالة محددة وواضحة، وليس مجرد عقاب وهذه نقطة هامة كثيراً ما نخطىء نحن العرب، ضحايا الارهاب الصهيوني المتواصل، في فهمها. فنفسّر عملية ارهابية ما بأنها مجرد رد على انجاز قمنا به وأوقع بالعدو خسارة فغضب وأراد أن يلقننا درساً. ولو كان الأمر كذلك فعلاً لما كان الارهاب الصهيوني على هذه الخطورة التي ننبّه لها. ولو نحن درسنا أبرز حوادث العنف الصهيوني في مئة عام، ضدنا نحن العرب (من فلسطينيين وغير فلسطينيين) وضد الآخرين، من بريطانيين ودوليين بل ومن حلفاء لاسرائيل من أمريكيين وبل أيضاً من يهود تزعم الصهيونية أنها تعمل من أجلهم، لوجدنا أن في كل عملية تعبيراً عن رسالة ما. حتى أصبح الارهاب أشبه بساعي بريد يوزع رسائل يبعث بها القادة الصهيونيون إلى الآخرين، من أعداء وأخصام، وأحياناً من أصدقاء وحلفاء.

في القاموس العملي الصهيوني مجموعة محظورات وواجبات. وعلى البشر، ذوي العلاقة بتقيد المخطط الصهيوني، أن يتجنبوا المحظورات وان يؤدوا الواجبات. والارهاب هو الذي يبلغ

البشرية بمضامين هذه المحظورات ليتجنبوها والواجبات ليطيعوها. مثلاً: محظور على الفلسطيني أن يقيم في دياره، وعليه أن يتخلى عن مسكنه وأرضه لمهاجر يهودي محتل. ومحظور على اليهودي أن يبقى في بلده العربي وواجبه أن يهاجر إلى «اسرائيل». ومحظور على العربي أن يساند أخاه الفلسطيني وواجبه أن ينأى بنفسه عن الشأن الفلسطيني ولا يتدخل «في ما لا يعنيه». ومحظور أن يقف «الصديق» أو الحليف الأمريكي أو الأوروبي موقفاً محايداً من الصراع العربي الصهيوني، بل أن واجبه أن يقف مع الصهيوني ويدعمه بكل ما أوتي من قوة وامكانات ومجالات دعم. ومحظور على الفلسطيني أن يتحرك للعودة إلى أرضه أو أن يسعى لتحرير بلده وتهديد اسرائيل. محظور عليه أن ينظم صفوفه ويعبئ امكاناته ويهيء نفسه لمواجهة الصهيونيين، وواجبه أن يرضخ لما حصل، ويسكت، ويتأقلم مع الواقع، ويرضى بالذل والهزيمة.

قائمة طويلة، وأمام كل بند منها رسالة واضحة يبثها ارهابي صهيوني بشكل جريمة جديدة.

إذن فالارهاب أكثر من عقاب أو عتاب أو فورة غضب. انه قرار عقلاني. انه تمهيد لمرحلة قادمة أكثر مما هو انهاء لمرحلة سابقة. انه تخطيط لمستقبل أكثر منه رداً على ماض. انه مقدمة فعل لاحق أكثر منه خاتمة فعل سابق. والارهابي كشّاف يتقدم الجيش الغازي أكثر مما هو ملحق لوجستي يلوذ بالجيش لنقل الجرحى ودفن القتلى وازاحة الركام وإتلاف الألغام.

تتطلب الصفات الثلاث المذكورة آنفاً للارهاب الصهيوني صفة رابعة ملتحمة بها. وهي ان للارهاب مرجعية رسمية مسؤولة. ولم يكن الارهاب الصهيوني يوماً عملاً فردياً أو فئوياً أو خارجاً عن المرجعية العليا للحركة الصهيونية أو للدولة. هو جزء من أجهزة القيادة العليا، السياسية أو / والعسكرية، جزء من المؤسسة، يأتمر بتعاليمها وارشاداتها، ويتقيد بقوانينها ومفاهيمها، ويضع نفسه رهناً للبرنامج الارهابي العام بحيث يؤدي الدور المحدد مكاناً وزماناً ونوعاً وهدفاً في ضوء ذلك البرنامج الثابت وتفاصيله المتحركة والمرنة.

لو نظرنا إلى الحركات السياسية في القرن العشرين، وإلى الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في نصف قرن، لن نجد فئة واحدة كانت مسؤولة رسمياً وقانونياً عن أعمال ارهابية بقدر ما هي الحركة الصهيونية (١٨٩٧-١٩٤٨) ودولة اسرائيل (١٩٤٨-١٩٩٨) مسؤولة عن هذا الكم الدموي الهائل من المجازر الارهابية. ونحن هنا لا نبالغ ولا نلقي الاتهام جزافاً. لقد درست لعدة سنوات تاريخ الارهاب الرسمي والمنظم، لا الفردي والصفوي، في مئة السنة الأخيرة، في عشرات الدول المعاصرة، فلم أجد من تتساوى مع الصهيونية كحركة ومع اسرائيل كدولة، أو من اقترب منهما في حجم سجله الارهابي الأسود. مع التذكير بأن ألمانيا النازية لا تؤخذ بالاعتبار لأنها زالت قبل قيام الأمم المتحدة التي تشارك «اسرائيل» في عضويتها، ومع التذكير بأن عمليات الابادة التي تحصل حالياً بين الحين والآخر في بعض دول افريقيا الوسطى ليست معاصرة لسجل الحركة الصهيونية الاجرامي الذي سبق مولد «اسرائيل» ١٩٤٨. المهم انه ليس بين أعضاء الأمم المتحدة من أدانته الأسرة الدولية لأعماله الارهابية بالحجم الذي أدينت به اسرائيل في خمسين سنة.

إذن فإن حكومة اسرائيل، هي المرجعية الرئيسية في هذا الكيان المغتصب، تضرب رقماً قياسياً في المسؤوليات عن الارهاب وفي تبنيه، في تقريره واصدار الأوامر له وفي تهيئة الظروف ومده بما يلزم. ومن دير ياسين (نيسان ٤٨) إلى قانا (نيسان ٩٦) ملف ضخم جداً كانت حكومة اسرائيل هي التي أعدته ونشرته. وهي بالتالي التي تتحمل مسؤوليته.

نتوقف هنا عند ظاهرة ظهور حركات «منشقة» ارهابية، في فترة لا تزيد على عقد من الزمان (قبيل بداية الأربعينيات إلى قبيل نهايتها) قامت على العنف ومارست الارهاب وتحملت مسؤوليته. إلا اننا إذا نظرنا إلى جوهر العلاقات بين القيادة الرسمية للمنظمة الصهيونية (والوكالة اليهودية)، أي المرجعية العليا للعمل الصهيوني، وبين قيادات هذه المنظمات، لوجدنا أن وصف المنظمات بالمنشقة ليس دقيقاً، وربما كان مفتعلاً ومتعمداً. صحيح أن قيادات هذه الجماعات كانت تزايد على المرجعية السياسية المتمثلة بالوكالة اليهودية، وتتهمها بالاعتدال أو التقصير في ارهاب الفلسطينيين (والعرب عموماً) والسلطات البريطانية، وتحاول أن تقوم هي نفسها بعمليات ارهابية لتلقن الفلسطينيين وغيرهم دروساً أكثر مما كانت الوكالة (ويدها الارهابية الهاغاناه) تفعل، إلا أن الصحيح أيضاً والأكيد أن التعاون والتنسيق بين قيادات «المنشقين» و«الوكالة» كانا قائمين في معظم الأوقات والحالات، ولكن بالسر. حتى أنني أبرر لنفسي أن أقول أن الوكالة و«المنشقين» استخدما هذه الازدواجية أو الثنائية للمصلحة العليا للحركة الصهيونية واستطاعا بواسطتهما أن يضربا العرب والانكليز أشد الضربات وفي الوقت نفسه دون أن يتمكن العالم من تحميل الوكالة المسؤولية. وكان الارهاب «المنشق» علناً المتعاون سراً مع قيادته الصهيونية «الشرعية» ينفذ المخطط الارهابي الصهيوني عملياً دون أن يحمّل القيادة الرسمية العلنية عواقب أفعاله. من هنا لم يكن غريباً أن تعلن هذه الجماعات المنشقة عودتها إلى حضن «الشرعية» بعد قيام دولة اسرائيل، حين لم يعد هناك مبرر لوجود هذه الازدواجية - مع الاشارة إلى أن اختتام تلك الحقبة من الازدواجية كان في الواقع في واحدة من أكبر الأعمال الارهابية الاجرامية في تاريخ الحركة الصهيونية على صعيد الاجرام الدولي، وذلك في عملية اغتيال الوسيط الدولي، الكونت برنادوت، ومساعده، في خريف ١٩٤٨ وكان حفلة توحيد الصف الارهابي الاسرائيلي كانت تحتاج إلى مهرجان اعلامي دموي كبير.

لا يعني هذا الوصف للعلاقة بين الجماعات الارهابية وبين المرجعية الصهيونية الرسمية بأن الارهابيين كانوا كلهم وفي كل الحالات مجرد أدوات جامدة تحركها القيادة دون أن يكون للعناصر الارهابية دور خاص، ومشاعر وأحاسيس وأمزجة تختلف بين انسان وآخر. فقد حفل تاريخ الارهاب الصهيوني بوقائع مغالاة بعض الارهابيين، من قيادات وأفراد، في الاستمتاع باقتراف الجرائم وارتكاب المجازر أكثر من غيرهم. كلهم مجرم بلا شك - وليس في الاجرام حمائم وصقور. لكن طبيعة الاجرام تجعل بعض المجرمين أكثر اقبالاً على عملهم، وأكثر شغفاً به، من غيرهم. وهنا يحسن بنا أن نلفت النظر إلى عاملين اسهما في دفع غريزة الاجرام عند بعض الارهابيين إلى حدود تتجاوز الطاقة الاجرامية المألوفة للمجرم العادي.

أولهما تحوّل ضحايا الارهاب، في حال معيّن، إلى ارهابيين ضد آخرين، في حال ثان لا علاقة له بالحالة الأولى. وهذه ظاهرة مرضية يعاني منها بشر صغار النفوس يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم ورد اضطهاد أو ظلم يلحق بهم فينتقمون من جماعة أو أفراد آخرين، لا علاقة لهم بالذين اضطهدوهم من قبل، وينزلون بضحاياهم أصنافاً من الظلم والقسوة والوحشية تفوق ما عانوا منه هم أنفسهم سابقاً. وفي ذلك ضرب من «فش الخلق» عند الضعيف أو العاجز، والحاقد في الوقت نفسه.

تتجسد هذه الحالة المرضية عند بعض الصهيونيين ممن تعرضوا للاضطهاد النازي، أو ممن يعانون مما تعرّض له بعض أقاربهم أو جيرانهم أو أصدقائهم، في ألمانيا والدول التي احتلها الألمان قبل الحرب العالمية الثانية أو خلالها. فأخذوا يمارسون مع غيرهم وحشية تعبّر عن القهر المدفون في داخلهم. وبالطبع كان الفلسطينيون هم هذا الغير، فراحوا ضحية له، ولايزالون حتى اليوم.

وثانيهما تأثر بعض الصهيونيين بالتاريخ العبراني كما ورد في روايات العهد القديم من التوراة، ونحن لا نريد أن نقحم أنفسنا بصحة هذه الروايات أو دقتها أو قيمتها العلمية. لكننا نشير إلى أن صهيونيين كثيرين صدقوا روايات العهد القديم، الذي يعتبرونه تاريخهم المسجل، وأعجبوا ببعض ما جاء فيها من ذكر ووصف لحروب العبرانيين مع الفلسطينيين والكنعانيين والآراميين وغيرهم من شعوب المنطقة، حروباً متواصلة دامت حسب التوراة حوالي ألف سنة. وقد اتسمت هذه الحروب بمنتهى العنف والقسوة



ومحاولات الابادة و«التطهير العرقي» حسب التعبير المعاصر، وقتل الأبرياء واغتصاب النساء وسبي الجماعات وسلب المقتنيات والتنكيل بالأسرى وأخذ الغنائم ـ أي ما نعتبره خروجاً على قوانين الحروب وآدابها وحقوق المغلوبين ومصائر ضحاياها. وقد بلغ الاعجاب الصهيوني بهذه الوقائع المرفوضة في عالمنا المعاصر ان حاولوا التتلمذ عليها وممارستها في مواجهاتهم مع العرب. ولم يخفِ بعض قادة الصهيونيين اعتبار الممارسات القديمة مثلاً يحتذى، واعترافهم بأنهم يفعلون أو سيفعلون ذلك مع ضحاياهم من العرب. وجدير بالذكر ان ثلاثة من رؤساء حكومات «اسرائيل» في نصف القرن (أي ثلث رؤساء حكومات الدولة عموماً) يعتبرون أنفسهم اتباعاً مخلصين ومريدين أوفياء لزعيم الحركة الصهيونية التصحيحية / التحريفية، فلاديمير جابوتنسكي، أول وأكثر من جاهر بين الصهيونيين بأن عبرانيي الألفين الثانية والأولى قبل المسيح هم أساتذته ومثله العليا في تقاليدهم في الحروب ضد الشعوب التي سكنت فلسطين، وأنه سيقتفي أثرهم في حروبه مع فلسطينيّي القرن العشرين.

يجرنا الحديث عن هذه النفسية المريضة التي تملأ الصهيونية حقداً ضد العربي وتدفعه إلى ارتكاب الجرائم إلى الصفة الخامسة من صفات الارهاب الصهيوني. وهي أنه كان وسيلة لبناء المجتمع اليهودي «الجديد» في فلسطين ولتوحيد الجماعات اليهودية المهاجرة إلى فلسطين من عشرات الدول ولقيام شخصية يهودية صهيونية مركبة تتصف بالقوة وبالقسوة والصلابة ـ أي أنه أريد من الارهاب بعث أمة موحدة قاسية القلب، على أرض فلسطين، تتمكن من انشاء الدولة أولاً ثم حمايتها من الرفض العربي ثانياً. وفي حين تسعى أمة، كالعرب إلى أن تتوحد بالقيم والفضائل، وسائر مظاهر الخير، سعى الصهيونيون إلى توحيد «الشتات» اليهودي بالشر.

تكوّن «المجتمع» اليهودي في فلسطين في خمسين السنة بين بدء الهجرة في ثمانينات القرن الماضي إلى ثلاثينات القرن الحالي من جماعتين رئيسيتين: اليهود المشرقيون (ويمكن تسميتهم باليهود العرب) الذين كانوا يقيمون في فلسطين، بأعداد قليلة، من قبل، ويهود أوروبا الشرقية والوسطى الذين تولت الجمعيات الخيرية والاحسانية اليهودية الأوروبية الأولى، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل قيام الحركة الصهيونية ثم بعد قيامها بعدة عقود، تهجيرهم إلى فلسطين بتأمين الأموال اللازمة لنقلهم واعانتهم ثم شراء بعض الأراضي وبناء بعض المستعمرات والمساكن لهم في فلسطين.

وبالرغم من اختلاف اللغة والنشأة والتقاليد والهوية والثقافة بين أفراد الجماعتين، أو الجاليتين اليهوديتين، جمع بينهما صفتان مشتركتان: حال الفقر المادي وتدني المستوى الاجتماعي والثقافي، وحال الضعف النفسي والانحلال المعنوي والشعور العام بالخوف والمسكنة.

وعى هرتزل وغيره من آباء الحركة الصهيونية هذا الوضع المزري ليهود فلسطين، من مقيمين ووافدين، وأدركوا أن هؤلاء وأمثالهم أضعف من أن يشكلوا في المستقبل المجتمع اليهودي الصافي والنقي الذي أرادوا أن يقيموه في فلسطين وطمحوا إلى أن يكون مجتمعاً راقياً ومصدر اشعاع في المنطقة، كما زعم هرتزل في محاولاته لاقناع القوى العظمى بتأييد مساعيه لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. بل أنه دعا إلى أن يكون هذا المجتمع قطعة من أوربا الراقية والمتحضرة في المشرق المتخلف والجاهل. وادرك هرتزل، ومن جاء بعده، ان عليهم أولا تحويل اولئك اليهود المساكين والجبناء والمتخلفين والمقهورين نفسياً إلى عناصر قوية واثقة من نفسها ومستعدة لتحمل الشدائد ولها طموحاتها وتطلعاتها لتتمكن من قهر أهل البلاد. ولذلك سعى هرتزل وصحبه إلى بعث الروح العسكري والحربي لدى يهود كانوا أبعد ما يكونون عن التحلي بهذه الصفة. من هنا كانت «العسكرية» هي احدى الصفات الرئيسية للمجتمع اليهودي الصهيوني الذي عمل هرتزل على اقامته في فلسطين، عسكرية تحوّل الجبان إلى مقاتل، والخائف إلى معتدٍ، وطيب القلب والمسكين إلى ارهابي يدفعه الحقد والكره إلى الاستيلاء على أراضي غيره وإلى محاربته بضراوة.

اشتدت رغبة خلفاء هرتزل في رعاية عملية بناء هذا المجتمع الحربي في الثلاثينات والاربعينات حينما اضيف إلى الجماعات اليهودية المقيمة أو الوافدة إلى فلسطين من قبل جماعة أخرى تختلف أساساً عن السابقة بأنها أكثر تحضراً وعلماً وثقافة وخبرة وأرقى حضارة وأوسع ثروة مادية ومعنوية، وقد جاء معظم افرادها من المانيه والنمسه ومناطق كان يهودها جزءاً من المجتمعات المثقفة والراقية وليسوا من أبناء الأحياء اليهودية الفقيرة والمنغلقة على نفسها «الغيتو» هؤلاء أيضاً، مثل الشريحتين السابقتين، احتاجوا إلى الانخراط في مجتمع يهودي صهيوني عسكري في فلسطين ليمكن دمجهم في المجتمع الجديد وليستفاد من علمهم وخبرتهم وثروتهم في بناء هذا المجتمع فلا يكونون طبقة منعزلة ومنكمشة على نفسها. وليس اقدر من الروح العسكرية في توحيد عناصر المجتمع وصهر افراده على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم وتقاليدهم ولغاتهم وانتماءاتهم.

الارهاب هو المظهر الرئيسي للروح العسكري الصهيوني المنشود. لذلك كان لا بد من انخراط أبناء المجتمع اليهودي في فلسطين في صفوف جماعات عسكرية العقلية والنظام والتقاليد، وارهابية في ممارساتها أو على الأقل في قدرتها على الممارسة. وهكذا تكون الصفة الخامسة للارهابية الصهيونية مظهراً للمجتمع اليهودي في فلسطين يتصف به الفرد حتى ولو لم يقم فعلاً بأعمال ارهابية. يكون المرء ارهابياً احتياطاً إن جاز التعبير، ارهابيا عند الحاجة وفي الملمات، حتى ولو كان في الازمنة العادية طبيباً أو مهندساً أو عاملاً أو كاتباً أو موظفاً.

وهناك سمة سادسة يتصف بها الارهاب الصهيوني منذ نشأته، وخاصة بعد اشتداد عوده بقيام «الدولة» ١٩٤٨. وهي أنه يحل لنفسه أن يستخدم أية وسيلة يختار «أي الوسيلة الامضى سلاحاً والاوسع اجراماً» مثلما يحل لنفسه أن ينزل الاذى بأية جماعة يختارها هدفاً لضربته، بغض النظر عن مدى توافق ذلك مع القوانين الدولية والأعراف والمبادىء الانسانية. انه إرهاب أعمى، يهجم دون أن يقف لحظة يتساءل عن شرعية فعلته. اذ انه يستمد شرعيته لا من

القوانين والأنظمة والمواثيق المرعية والمعروفة وانما من مصلحته هو. أن الغاية تبرر الواسطة. وإذا كان المقصود أن تكون الضربة اكثر أذى فإن الخروج على تلك يكون أفضل.

يبدو هذا الوصف مستهجناً ومرفوضاً من عمل فردي ما. فكيف الحال اذا تذكرنا ان هذا العمل يرتبط دوماً بسلطة رسمية ولا يتحرك الا تحت سقف الدولة؟ الا أن الدولة نفسها لا يهمها الأمر. سواء كان الهدف بيت عبادة أو مأوى عجَز أو مستشفى أو مدرسة أو روضة أطفال، لا فرق. وربما كان مكان مسالم ومدني مثل هذه الاماكن افضل من معسكر كهدف للاعتداء عليه، اذا كان الغرض اشاعة الخوف والذعر والتشكيك بالحقوق وبالنضال وابعاد الجماهير عن قواها المدافعة عنها. من هنا يلاحظ مؤرخ الإرهاب الصهيوني ارتفاع عدد المدنيين (من أفراد ومن مواقع) من ضحايا هذا الإرهاب بالنسبة إلى العسكريين والمقاتلين ارتفاعاً كبيراً جداً. وحتى بين جموع المدنيين، يلاحظ المرء ارتفاع نسبة أهل العلم والثقافة، والأطفال والنساء والعجَز، مقارنة مع الرجال الذين هم في سن الخدمة العسكرية.

إذا كانت هذه هي الصورة الحقيقية للإرهاب الصهيوني كما عرفناه وشاهدناه وذقنا مرارة مجازره في مدى قرن من الزمان، ألا يجدر بنا نحن العرب أن نأخذ الموضوع بأكثر جدية واهتماماً وأن ننصب على درسه لنتمكن من وضع استراتيجية لمجابهته أولاً ولمقاومته ثانياً وللتخلص منه ثالثاً؟ وذلك لابد من مجرد الحديث عن تفاصيله واستعراض تاريخه وفتح سجلاته السوداء، وهو ما اعتدنا عليه، وخاصة بعد كل جولة جديدة لهذا الإرهاب ينقض بها علينا في مكان أو زمان ما، مرة بعد أخرى، دون أن يتوقف أو يتراجع أو يرعوي.

إني أدعو للتعاطي مع موضوع الإرهاب الصهيوني بالجدية والشمول والخطورة نفسها التي يتعامل الإرهاب بها معنا - وإلا بقينا تحت رحمته، لانخرج من هجمة إلا لنستعد لمواجهة هجمة أخرى، وكأن ساحاتنا هدف مباح وأهلنا شعب مستباح.

انتهز فرصة الذكرى الخمسين لإغتصاب فلسطين بوسائل كان الإرهاب أمضاها سلاحاً وأبشعها أثراً لأدعو في هذه المناسبة الأليمة إلى إنشاء المركز العربي لمقاومة الإرهاب الصهيوني. لن ادخل في التفاصيل، في الآلية والخطة والبرنامج والعناصر، فتلك تترك لمن يتجاوب مع الدعوة ويبدي استعدادا للعمل والمشاركة، لكني سأكتفي برؤوس عناوين للنشاطات التي يمكن لمثل هذا المركز أن يقوم بها ليكون وليقدم رداً حقيقياً وفاعلاً للهجمات الإرهابية.

أ- يتولى المركز وضع استراتيجية عربية شاملة «علمية وعملية» وعلى مراحل لمواجهة الارهاب وحماية شعبنا العربي ثم للتخلص منه. وتكون هذه الاستراتيجية في خدمة اية دولة أو جماعة معنية بالامر تبحث بجد عن سبل للمواجهة وفاء لحق شعبها عليها بحمايته وانقاذه من هذا الخطر المزمن.

ب - يتولى المركز دراسة أساليب الارهاب الصهيوني، وفلسفته وطرق عمله، من خلال جمع المصادر والمعلومات ودراسة التجارب. كما يتولى المقارنة مع تجارب الارهاب العنصري أو الاستعماري او الامبريالي في مناطق وازمنه أخرى. ذلك أن شبكات الارهاب تتعاون فيما بينها وتستفيد من تبادل المعلومات والخطط والاساليب.

ج - يضع المركز ملفاً كاملاً ومتكاملاً للارهاب الصهيوني في مئة عام، يتضمن كل المعلومات الدقيقة والصحيحة والمسندة بالمصادر والوثائق عن كل عمل ارهابي. وتكون المعلومات في خدمة من يرغب في الاطلاع عليها، باستخدام وسائل النقل والنشر التكنولوجية الحديثة، كالكمبيوتر والانترنت.

د - يقدم المركز مقترحات علمية وعملية لوسائل حماية الجماعات والافراد التي ربما نصبح هدفاً سائغاً للارهاب الصهيوني. فلا تكون محاولة ضربة ارهابية جديدة مجرد نزهة يتأكد صاحبها بأنه سيعود إلى قواعده سالماً وغانماً.

هـ - نشر وعي بين جماهيرنا لمكافحة الارهاب دون أن يعني ذلك اشاعة الذعر وبثّ الهلع. المقصود الاقلاع عن التهاون بالموضوع وعن التعامل معه كمسألة محتومة و قدرية لا رد عليها، وتوعية الشعب بأن كل موقع هو هدف ممكن للارهاب الصهيوني، وان امكانية التعرض واردة، مهما كان الموقع مدنياً واهلياً وبعيداً عن تشكيل خطر على العدو.

و - جعل كل عربي مقاوماً للارهاب، مثلما هو كل صهيوني جندي للارهاب. ولعلنا نتذكر تلك الصرخة التي ارتفعت في بيروت قبل حوالي الخمسين سنة، بأن كل مواطن خفير. نعم، كل مواطن عربي خفير لحماية نفسه واخوانه من الارهاب، لا يكفي ان يكون مواطننا العربي عدواً لاسرائيل بشكل عام. نريده ان يكون أيضاً، وبشكل محدد، واعياً لخطر الارهاب ومستعداً للمجابهة والمقاومة.

ز - القيام بحملات منظمة ومدروسة وموضوعية وذكية تكشف للعالم الخارجي ولرأيه العام حقيقتين طالما غابا عن نظره بفعل نشاط الدعاية المعادية: وهما فضح الارهاب الصهيوني وكشف ملفاته التي تمتد إلى مئة سنة إلى الوراء، بشواهد واثباتات وبراهين لا يرقى إليها الشك وبعيدة عن المبالغة وذات رصيد عال من المصداقية. هذا من جهة. ومن جهة اخرى توضيح الفرق الجوهري «الخلقي والقانوني» بين الارهاب الصهيوني والجهاد العربي المقاوم في سبيل استرداد الحق السليب، وقد آن الاوان للتصدي بجد وعلم للمقولات المعادية، الصهيونية والاستكبارية التي يقوم الاعلام الغربي بنشرها باستمرار، بان جهادنا ومقاومتنا هما الارهاب وان الإرهاب الذي يمارسه العدو هو نضال مشروع لحماية الذات. علينا أن نحاول تصحيح الصورة في الذهن الغربي، ليتضح من هو الارهابي ومن هو المجاهد فعلاً.

إننا نمر حالياً في منعطف خطير. فبعد اتفاق اقطاب الانحراف الفلسطيني مع العدو على نقاط أقل ما يقال فيها أنها تتنازل عن ثوابتنا الوطنية والقومية وهي تلغي نضالنا وتمنع طموحاتنا وتفرط بحقوقنا، انكشفنا تماماً أمام الارهاب الصهيوني وأصبحنا هدفاً سهلا، أسهل من أي وقت سابق في مدى قرن من الزمان:

لقد عم الاحباط الجماهير وكادت تفقد ثقتها بنفسها بعد أن فقدتها بقيادتها الرسمية، وباتت تتراخى وتتجاهل أمام المخاطر وتيأس من أخذ الحيطة.

وانكشفت اوراقنا أمام العدو، اذ نقلت إليه قيادتنا المستسلمة اساليبنا في العمل والدفاع والحماية والاحتياط والوقاية، كما عرّت اسرارنا ومواقعنا وقوانا.

واتاح تطبيق العلاقات مع العدو، فلسطينياً وعربياً، شبكات الارهاب (وما تحتويه من تجسس واستطلاع ورصد) ان تسرح وتمرح في عدد من مدننا وقرانا، فنكشف ماكان مستورا وتتصرف على ما كان خافياً. ولم تعد تجابه عدوا على بعد الاف الكيلو مترات بل نحن نجابه اليوم في بعض الأماكن عدواً يندس بين صفوفنا ويتحرك بين ظهرانينا بحرية وكأنه واحد منا.

ونصّت بنود الاتفاق مع العدو على أن أي عمل وطني لحماية الذات، ولو عبر الاعلام وعلى صعد البحث النظري والخطاب السياسي، انما هو تحريض ضد العدو مرفوض وعلى «السلطة الوطنية»، والانظمة العربية، المتصالحة مع العدو ان تمنع ذلك وتجّرم الناشطين وتتعقبهم. حتى اصبحت دعوة إلى استنكار الارهاب وحماية الذات عملا يخل بالامن ويعرّض سلامة اسرائيل للخطر ويتناقض مع سياسة المصالحة والوفاق! ان بعض الاتفاقات العربية - الاسرائيلية تعتبر مقالنا هذا عملاً ارهابياً محظوراً! ونقلت الاتفاقات العربية مع العدو مهمة التنكيل بالوطنيين رافضي الاستسلام من الاسرائيليين إلى السلطات العربية، في فلسطين وبعض جاراتها. وهكذا اصبحنا عرضة لارهاب الاهل والاخوان والجيران أيضاً، إلى جانب تعرضنا لخطر الارهاب الصهيوني المباشر. من هنا نقول أننا نمر حالياً، ومنذ سنوات قليلة، في منعطف خطر يدعونا إلى المزيد من التنبه والاستعداد والبذل لحماية الذات حتى نتمكن من مواصلة النضال في سبيل استعادة حقوقنا كاملة.

أن الحماية من الارهاب لا تكمل إلا حينما نتخلص من الصهيونية نفسها التي يشكل الارهاب أحد ثوابتها وأقوى وسائلها. والتخلص من الصهيونية لا يتم إلا بالقضاء على الكيان الذي يجسدها ويحكّمها بوجودنا ومصائرنا.

الإرهاب، في نهاية المطاف، ذنب افعى لا خلاص منه إلا بضرب عنقها.■■

خمسون عاماً على النكبة

صراع متواصل ومواجهة مفتوحة

د. ماهر الطاهر

في الخامس عشر من أيار ١٩٩٨، تمر الذكرى الخمسون لجريمة اغتصاب فلسطين واقتلاع وتشريد أهلها على مرأى ومسمع من العالم أجمع. وبعد مرور خمسة عقود على جريمة العصر مازالت مأساة الشعب الفلسطيني قائمة لم تجد لها حلاً رغم كل التضحيات والبطولات والدماء والمقاومة.



ان ما واجهه الشعب الفلسطيني والأمة العربية كبير وخطير لأن المشروع الصهيوني ما هو إلا نتاج اندماج المصالح الاستعمارية مع الحركة الصهيونية العالمية للسيطرة على مقدرات العرب وعرقلة شروط نموهم وتقدمهم.

وهذا ما عبّر عنه بوضوح حاييم وايزمن أحد زعماء الصهيونية بعد لقائه اللورد بلفور عندما قال:

«بينت للورد بلفور أن اقامة مجتمع يضم أربعة ملايين أو خمسة ملايين من اليهود في فلسطين، سيكون قاعدة اقتصادية كافية، يستطيع اليهود فيها أن ينتقلوا بطريق الاشعاع إلى الأجزاء الباقية من الشرق الأدنى، ولكن هذا العمل يتطلب أول ما يتطلب تنمية الوطن القومي اليهودي في فلسطين تنمية حرة وغير مقيدة، بحيث نتمكن من اسكان العدد المطلوب في غضون جيل واحد، وقد أقنعت اللورد بلفور بأن ما يسمى بالاستعمار ليس إلا الصهيونية بعينها».

لقد وظفت الحركة الصهيونية كل امكاناتها في خدمة الامبريالية منذ مطلع هذا القرن، وأخطر ما في هذه الحركة أنها تختلف عن كل أنواع الاستعمار المعروفة لأنها تستهدف السيطرة من خلال سياسة الاقتلاع والإجلاء والاستيطان.

ان الحركة الصهيونية التي استخدمت الغرب الأوروبي الاستعماري لتحقيق هدفها في قيام دولتها على أرض فلسطين تتحالف اليوم مع الولايات المتحدة لإكمال سيطرتها على الوطن العربي بأسره.

استطاعت الحركة الصهيونية خلال نصف القرن الماضي أن تحقق العديد من الأهداف والمطامع أبرزها: قيام اسرائيل عام ١٩٤٨، واحتلال أراض عربية جديدة وتوسيع حدود الدولة عام ١٩٦٧، واحتلال أراض لبنانية عام ١٩٧٨، واجتياح عاصمة عربية عام ١٩٨٢. وتمكن المشروع الصهيوني من ترسيخ وتدعيم البنية الداخلية لكيانه على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والتكنولوجية في اطار خطة استراتيجية شاملة. ونجح في فرض تزايد القبول به خصوصاً بعد توقيع اتفاقات كامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة.

ان حصيلة ما تحقق للكيان الصهيوني خلال نصف القرن الماضي تجاوز الكثير من التقديرات بحيث بات يشكل خطراً وتهديداً حقيقياً ليس على الشعب الفلسطيني فحسب، بل على الأمة العربية بأسرها. فاسرائيل اليوم وبعد خمسين عاماً على نشوئها، ليست هي اسرائيل عام ١٩٤٨، ارتباطاً بمجمل التطورات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي عاشتها، خاصة بعد دخولها للنادي النووي وامتلاكها لأسلحة القتل والدمار الشامل.

ان اسرائيل حسب قول البروفيسور «اسرائيل شاحاك» وهو مؤلف كتاب «عنصرية الدولة الاسرائيلية»، «تسعى إلى اشعال حرب تمكنها من امتلاك بعض منابع النفط العربي، انها تتطلع إلى ما وراء الصحراء». وبالتالي يخطئ من يعتقد أن المشروع الصهيوني سيقف عند الحد الذي وصل إليه ان لم يواجه باستراتيجية عمل عربية شاملة تدرك مخاطر هذا المشروع وأهدافه الاستراتيجية.

لقد تمكن المشروع الصهيوني من البقاء والاستمرار، لا بل التمدد والتوسع في المنطقة، ولم نستطع كعرب دحره أو ايقاف اندفاعته. ومما لاشك فيه أنه لا يمكن التقليل من أهمية وحجم العامل الخارجي في نشوء الكيان الصهيوني والدور الاستعماري الأوروبي وخاصة البريطاني ومن ثم الدور الأمريكي لاحقاً في حماية اسرائيل وتقديم كل أشكال الدعم لسياستها العدوانية التوسعية.

أشار ونستون تشرشل في مذكراته حول اقامة وتأسيس اسرائيل قائلاً:

«إذا أتيح لنا في حياتنا ـ وهو ما سيقع حتماً ـ أن نشهد مولد دولة يهودية لا في فلسطين وحدها بل على ضفتي نهر الاردن معاً، دولة تقوم تحت حماية التاج البريطاني وتضم نحو ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد بذلك وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح

الحيوية للامبراطورية البريطانية.

وبعد قيام الكيان الصهيوني وبروز الولايات المتحدة الأمريكية كقطب أساسي في العالم اثر الحرب العالمية الثانية تعمق التحالف بين أمريكا واسرائيل عبر علاقات استراتيجية خاصة ساهمت وإلى حد بعيد من تمكين المشروع الصهيوني في ترسيخ دعائمه. ولذلك فإن اسرائيل كواقع استعماري ما كانت لتنشأ لو لم تقم الاندفاعة الامبريالية بعد الحرب العالمية الأولى. كما أنها ما كانت لتتطور وتتوسع بفاعلية لو لم تدعمها الولايات المتحدة وريثة القوى الاستعمارية الأوروبية. لكن كل ذلك وعلى أهميته وضرورة عدم التقليل من دوره وتأثيره، فإنه لا ينبغي أن يحجب الرؤية عن العوامل الذاتية الكامنة في واقعنا والتي لعبت دوراً أساسياً في قدرة اسرائيل على الاستمرار في مشروعها التوسعي. فلم يمتلك العرب خلال الخمسين عاماً الماضية مشروعاً موحداً سواء على الصعيد الرسمي أو على صعيد الأحزاب والقوى السياسية لمواجهة المشروع الصهيوني الامبريالي انما حكمت غالبية القوى رؤى مختلفة ومتناقضة حول ادارة الصراع ووسائل المجابهة، وقد أدى ذلك إلى بعثرة جهود القوى السياسية وتفتيتها واحلال مبدأ التعارضات الذاتية على حساب التناقض الرئيسي مع الصهيونية وتحالفاتها».

فقد وقعت القوى السياسية ومن مختلف الاتجاهات خلال العقود الخمسة الماضية بأخطاء كبيرة عندما ركزت على عوامل الخلاف والصراع ووضعت نفسها في خنادق متقابلة تمترس كل طرف وراءها دون رؤية ودراسة ما يطرحه الجانب الآخر واغفال أهمية وضرورة توجيه الطاقات والامكانيات نحو الخطر الصهيوني والمطامع الامبريالية للسيطرة على المنطقة.

فقد جهد الاستعمار لمواجهة الدين والاسلام السياسي مع القومية العربية ومواجهة القومية مع الماركسية، وعمل كل ما يستطيع لاستغلال وتعميق النزاعات الفكرية والسياسية ولم تدرك غالبية القوى ضرورة التفاهم والتنسيق والاتفاق على ناظم عام بين التيارات المختلفة لمواجهة التحديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يواجهها العرب.

لاشك أن ضعف بنية المجتمع العربي الذي خضع للاستعمار لفترات طويلة، والذي حصلت دوله على استقلالها السياسي في ظل تبلور المشروع الصهيوني، قد أسهم وبحكم عوامل التخلف المتنوعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في قدرة اسرائيل على ترسيخ نفوذها وعدم قدرة الجانب العربي أن يرقى إلى مستوى مواجهة مشروع واضح الأهداف والوسائل يعتمد أداءً متقدماً مقروناً بقوة عسكرية نوعية وتحالفات استعمارية واسعة النطاق.

ان مواجهة المشروع الصهيوني تتطلب توحيد جهود وطاقات الأمة العربية، وهو ما افتقر إليه العرب خلال نصف القرن الماضي والذين عجزوا بحكم عوامل عديدة داخلية وخارجية عن تحقيق وحدتهم رغم التحديات الكبرى والمخاطر التي داهمتهم، بل عمل معظمهم على ترسيخ مفهوم الدولة القطرية واقعاً وسلوكاً في معالجة قضايا الصراع العربي الصهيوني، وكانت النتيجة توقيع بعضهم اتفاقات ثنائية منفردة مع اسرائيل وتوثيق العلاقات معها.

وعلى الصعيد الفلسطيني فقد أخفقت حركة المقاومة الفلسطينية في أن تشكل نواة استراتيجية لعمل قومي عربي رغم ما مثلته من عامل انهاض ورافعة صمود في الساحة العربية بعد هزيمة الخامس من حزيران. ولكن عامل الانهاض هذا تم تدجينه والسيطرة عليه بحيث تم تحويل الثورة الفلسطينية وبالتدريج على يد القيادة الرسمية التي تحكمت في مسارها إلى نظام عربي يبحث عن تثبيت مواقعه ضمن اطار الكيانات العربية وباي ثمن.

كان يمكن للثورة الفلسطينية أن تلعب دوراً مختلفاً في المواجهة وأن تشكل رافعة لحركة الجماهير العربية، لكن ذلك بالضرورة كان يستلزم توفر مجموعة من الشروط والعوامل التي لم تتوفر خاصة بعد انكفاء القيادة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية نحو الاقليمية والانجرار إلى توقيع اتفاق ثنائي مع اسرائيل، أوقع أفدح الأضرار بقضية فلسطين وأضعف إلى حد بعيد أبعادها العربية والاقليمية والدولية.

ان الصراع مع المشروع الصهيوني وبعد مرور خمسين عاماً على تأسيس قاعدته المادية متواصل ومستمر بمواجهة مفتوحة لن تستطيع انهاءها اتفاقات ومعاهدات جائرة طالما أن أسباب الصراع وجذوره قائمة ومستمرة. فلقد كشفت الحقائق خلال العقود الخمسة الماضية أن الشعب الفلسطيني والأمة العربية لا يواجهان مشكلة بضعة ملايين من اليهود يريدون العيش في المنطقة بأمان وسلام، بل يواجهان مشروعاً سرطانياً يهدد صميم وجودهم ومستقبلهم، فعندما يقول نتنياهو في كتابه «مكان تحت الشمس» «ان انسحاب اسرائيل من الأراضي العربية المحتلة وعودتها إلى خطوط عام ١٩٦٧ سيعنيان الابتعاد التدريجي للعرب عن السلام وزيادة أعمال الارهاب واستئناف حالة حرب دائمة وفظيعة تؤدي إلى القضاء على دولة اسرائيل بالطرق السلمية، وهذا ما يجب علينا أن نوقفه».

ألا يبرهن ذلك بوضوح على عقم المراهنات التي توهمت بامكانية تغيير الصهيونية لمفاهيمها وميل اسرائيل للسلام؟.

لاشك أن كل من يتابع الوضع والتطورات داخل اسرائيل يدرك أن التعبئة الأيديولوجية السياسية والدينية المتطرفة التي تحكم الشارع الاسرائيلي لا يمكن تغييرها ببساطة، وهذا ما تبرهنه الوقائع. فإذا كان عصر الأيديولوجيا قد اهتز في أماكن عدة من العالم، فإن هذا النوع من الأيديولوجيا مازال عميقاً ومتأصلاً في المجتمع الاسرائيلي، وهذا يتضح من النتائج والتقدم الكبير نسبياً الذي حققته القوى الدينية في انتخابات الكنيست الأخيرة قبل عامين.

إذا كان المشروع الصهيوني قد تمكن من الاستمرار والنمو والتوسع خلال الخمسين عاماً الماضية لعوامل كثيرة، فإن هذه العوامل لن يكون لها صفة الثبات والديمومة إلى الأبد لأن اسرائيل كيان وجسم غريب له دور ووظيفة امبريالية هدفها التلاعب بمصائر منطقة هامة وحساسة من العالم تمتلك أكبر نسبة من احتياط النفط العالمي.

وانطلاقاً من دورها ووظيفتها، فإن اسرائيل التي مثلت التجسيد المادي لفكرة عنصرية دينية استعمارية يحيط بها وبمستقبلها تساؤلات كبرى بالمعنى التاريخي، فرغم كل القفزات التي تحققت والتي لا ينبغي التقليل من حجمها وخطرها، فإن المشروع الصهيوني يعاني تناقضاته وأزماته، لكن تراجع هذا المشروع يشترط أن يجد الكيان الصهيوني ومن يدعمه أنفسهم في مواجهة وضع فلسطيني وعربي لا يمكّنهم من الاستمرار في مشروعهم العدواني، وهذا يتطلب استخلاص دروس الخبرة التاريخية التي راكمتها تجربة السنوات الخمسين الماضية للاعداد لمرحلة جديدة من الصراع المفتوح والمتواصل والذي تؤكده روح المقاومة المستمرة على الأرض الفلسطينية والعربية رغم اختلال موازين القوى وجبروت القوة والاستبداد.

لقد تمكن المشروع الصهيوني الامبريالي من خلال هجوم متواصل ومن خلال زرع اسرائيل في قلب الوطن العربي من الابقاء على واقع التجزئة والتخلف واستمرار احتلال فلسطين وأجزاء من الأراضي العربية. وفرض معاهدات واتفاقات مجحفة تتعارض مع المصالح الأساسية للجماهير العربية.

وما كان لكل ذلك أن يحصل لولا استناد الصهيونية العالمية وتحالفاتها إلى استراتيجية عمل ورؤية شاملة، ولولا اعتمادها بذات الوقت على ضعف وتشوه العامل الذاتي العربي وعجزه عن بلورة استراتيجية مجابهة مجتمعية شاملة ترتكز لمجمل طاقات وامكانات القوة العربية.

الصراع مستمر وبأشكال مختلفة لأن كل الحلول المطروحة غير قادرة على انهاء جذوره وبديهياته وثوابته، ولن تستطيع الصهيونية أن تزور التاريخ وتلوي عنق الحقائق إلى الأبد■■

المفكر العربي المصري أحمد نبيل الهلالي لـ «الهدف»:

التسويات المنفردة فتحت شهية العدو لمزيد من العدوانية والتوسع

حاوره: هاني عياد - القاهرة

بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاماً على النكبة الفلسطينية، أجرت مجلة الهدف لقاءً مع المناضل والمفكر العربي المصري المعروف الأستاذ أحمد نبيل الهلالي، وفيما يلي وقائع هذا اللقاء.

□ عندما يكون الحديث عن ذكرى مرور ٥٠ سنة على إنشاء دولة العدو الصهيوني، تستدعي الذاكرة - على الفور - ثلاث محطات رئيسية:

- مؤتمر بال، الذي وضع فكرة إنشاء ما يسمى «وطن قومي لليهود».

- ثم وعد بلفور، الذي حدد فلسطين مكاناً لإقامة هذا الوطن المزعوم.

- وأخيراً.. قرار التقسيم، الذي مزج الفكرة بالوعد، وأقام دولة، في سابقة تاريخية لم تتكرر.

هل لنا أن نقف على رؤيتكم لهذه المحطات الثلاث؟

■■ بعد انقضاء نصف قرن على تأسيس «إسرائيل» علينا بالفعل استرجاع الماضي.. لإستيعاب الحاضر.. واستشراف المستقبل.. لكي نضمن أن يأتي الغد الذي طال تطلعنا إليه وانتظارنا له.. من صنع أيدينا.. وليس مفروضاً علينا من أعادينا.

والمحطات الثلاث.. حلقات متشابكة في مخطط استعماري صهيوني واحد.. استغل بدهاء ورياء شديدين آلام اليهود والإضطهادات العنصرية التي تعرضوا لها.. وتمسح في العقيدة الدينية اليهودية.. لخداع يهود العالم واجتذابهم.. وسلخهم من أوطانهم



الأصلية.. وتجميعهم على أرض مغتصبة... ليكونوا وقوداً بشرياً لآلة الحرب والعدوان الصهيونية وأداة لتحقيق مطامع الإمبريالية العالمية وحراساً لمصالحها في المنطقة.

ومنذ أن طرح هرتزل فكرة الوطن القومي لليهود في أواخر القرن الماضي في كتابه (الدولة اليهودية) ارتبط هذا المشروع بكل مشروعات الإستيطان الأوروبي الكولونيالي في هذه المرحلة التاريخية، وعبر المشروع ببساطة شديدة عن الإمبريالية الناشئة المتطلعة إلى مستعمرات فيها وراء البحار..

وجاء مؤتمر بال ليدشن هولة الصهيونية السياسية وليبلور الحركة الصهيونية العالمية كحركة رجعية في خدمة الإستعمار.

• الأنظمة العربية الرجعية لعبت دور القابلة التي ولد التقسيم على أيديها.

• موقف الشيوعيين الذين أيدوا قرار التقسيم كان خطأً فكرياً وسياسياً فادحاً.

• الموقف المبدئي يحتم رفض قرار التقسيم لأنه يتنافى مع ألف باء الماركسية والمفهوم العلمي للقومية.

ثم منحت بريطانيا - دولة الإنتداب على فلسطين - وعد بلفور للحركة الصهيونية العالمية.. لتنقل المشروع الصهيوني إلى حيز التحديد باختيار فلسطين موقعاً جغرافياً للوطن المنشود.

ولم يأت هذا الإختيار الخبيث وليد الصدفة ولم تمله نوازع دينية، بل فرضته المطامع والمصالح الإستعمارية، بعد أن استشعرت الإمبريالية البريطانية مبكراً ارهاصات حركة التحرر العربية وما سوف يمثله تناميها من تهديد لمصالحها في المنطقة.

ولم يخف رئيس المؤتمر اليهودي العالمي جولدهان سر اختيار فلسطين بالذات وأفصح عن هذا السر في ١٩٤٧ معلناً أن فلسطين (هي ملتقى الطرق بين أوروبا واسيا وافريقيا، وهي المركز المخصص للقوة السياسية العالمية والمركز العسكري الستراتيجي للسيطرة على العالم).

ولم يكن وعد بلفور تصرفاً انفردت به الحكومة البريطانية، بل كان بمثابة إعلان عن صفقة بين الصهيونية العالمية والإمبريالية العالمية ككل.

إذ فور إعلان بلفور لوعده طرح الرئيس ولسون التفسير الأمريكي للتصريح البريطاني قائلاً:

(إنني أعلن بأن الأمم الحليفة قد قررت، وبدعم كامل من حكومتنا وشعبنا.. أن تضع أسس الدولة اليهودية في فلسطين).

ثم صدر قرار التقسيم.. وصور يومها على أنه تعويض يكفله المجتمع الدولي لليهود عن مذابح النازية.

وهذه مغالطة تاريخية لأن الحركة الصهيونية العالمية طرحت مشروعها حول الوطن القومي لليهود.. من قبل ظهور النازية بعدة قرون.. ولقد حظي مشروع التقسيم - للأسف الشديد - بموافقة اجماعية من الدول العظمى شرقاً وغرباً - بل وحظي أيضاً بتأييد قوى يسارية وتقدمية وديمقراطية عالمية وعربية.

وحتى الأنظمة العربية الرجعية التي رفضت يومها قرار التقسيم وخاضت حرب فلسطين ١٩٤٨ لعبت في الواقع دور(القابلة) التي ولد التقسيم على أيديها.

وتقاسمت جيوشها مع قوات الإنتداب البريطاني وعصابات الصهيونية الأدوار بهدف غلق، السبل أمام أي حل ديمقراطي لإنهاء الإنتداب البريطاني.

ويوم اقترح المندوب السوفييتي غروميكو في الجمعية العامة في مايو ١٩٤٧ اقامة دولة فلسطين المستقلة تحفظ حقوق جميع السكان على أساس العدل والمساواة.

رفض حكام العرب الإقتراح.. ثم سرعان ما تخلى الإتحاد السوفيتي عن موقفه المبدئي جرياً وراء الإعتبارات العملية معلناً قبوله العظيم باعتباره (أفضل الحلول السيئة).

وفي تقديري أن الإتجاهات الشوفينية العربية التي رفعت يوماً شعارات ذبح اليهود والإلقاء بهم في البحر. وكذلك الأحزاب والتنظيمات الشيوعية العربية التي اتخذت موقفاً ذيلياً للموقف السوفييتي البراجماتي.

كل هؤلاء قد أسهموا أيضاً بنصيب في تمرير الخطط الإستعماري الصهيوني ـ ووقعوا في الشرك الإمبريالي الصهيوني.

وأود في هذا المقام أن أحاكم تحديداً موقف الشيوعيين الذين أيدوا قرار التقسيم في ١٩٤٨، وذلك على ضوء المعطيات والملابسات والظروف السائدة يومها.

إن هذا التأييد من وجهة نظري كان خطأ فكرياً وسياسياً فادحاً، إن الموقف المبدئي كان يحتم على الشيوعية يومها رفض التقسيم باعتباره حلاً يتنافى مع كل المعطيات العلمية والتاريخية ويصطدم مع ألف باء الماركسية والمفهوم العلمي للقومية وللأمة ويضحي بالمبادئ من أجل حل تكتيكي وهمي محكوم عليه مسبقاً بالفشل.

وفي ١٩٤٧ لم تكن هناك (أمة يهودية) أو

● لايوجد أمة يهودية داخل فلسطين أو خارجها من حقها تقرير مصيرها وانشاء دولتها.

● بعد عامين من توقيع اتفاق أوسلو كانت ٣٦ دولة قد أعادت علاقاتها مع إسرائيل.

● وعد بلفور كان بمثابة اعلان عن صفقة بين الصهيونية والامبريالية العالمية كلها.

قومية يهودية داخل فلسطين أو خارجها من حقها تقرير مصيرها، وإنشاء دولتها، لأن الأمة حسب المفهوم العلمي هي مجموعة مستقرة من الناس تكونت عبر التاريخ ومن خلال وحدة اللغة. والأرض والحياة الإقتصادية والثقافية والمزاج النفسي.

وبالتالي فالأمة لايمكن أن تقوم على أساس وحدة الدين فقط، ولايمكن أن يخلقها قرار يصدر من مؤتمر للحركة الصهيونية العالمية أو حتى قرار من منظمة الأمم المتحدة.

فالأمة تكون من خلال عملية تاريخية طويلة ومعقدة، ولطالما حذرنا لينين من أن القول بأن (اليهود يكونون أمة منفصلة هي فكرة مرفوضة علمياً رفضاً باتاً ـ وهي فكرة رجعية من الناحية السياسية) وأن (فكرة القومية اليهودية تسير في اتجاه معاكس لمصالح العمال اليهود.. لأنها تنشر فيما بينهم بشكل مباشر أو غير مباشر روح العداء للإندماج.. روح الجيتو)

ومن جهة أخرى فإن الدولة الإسرائيلية التي أعلن قرار التقسيم قيامها لم يتوافر فيها مقومات الدولة وفق المفهوم العلمي الماركسي. الذي يعتبر الدولة نتاج الوجود الإجتماعي السابق لها، وإنها بناء فوقي ينبثق من بناء تحتي ويرتكز عليه.

فالدولة الإسرائيلية المعلنة كانت بناء علوياً زائفاً مفروضاً من أعلى.. وقلباً للحقائق العلمية رأساً على عقب.

واقتصاد هذه الدولة كان اقتصاداً طفيلياً يعيش بفضل عملية تنفس صناعي وتمويل مباشر من البلدان الإستعمارية وخاصة أمريكا ومن أملاك العرب المصادرة والمغتصبة.

□ ثمة من يرى أن حرب ١٩٧٣، رغم الإنتصار العسكري العربي الذي تحقق فيها، شكلت حداً فاصلاً في تاريخ ومسيرة كيان العدو.. وهناك من يرجح نشوء هذا الحد إلى حرب ١٩٦٧. كيف تنظرون أنتم إلى هذا الأمر؟

■■رغم فداحة النكسة العسكرية في ١٩٦٧، ورغم الإنجازات الهامة التي حققها العرب خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ وفي مقدمتها اجتياح خط بارليف وكسر أسطورة القوة العسكرية الإسرائيلية التي لاتقهر والإستخدام الجماعي لسلاح البترول.

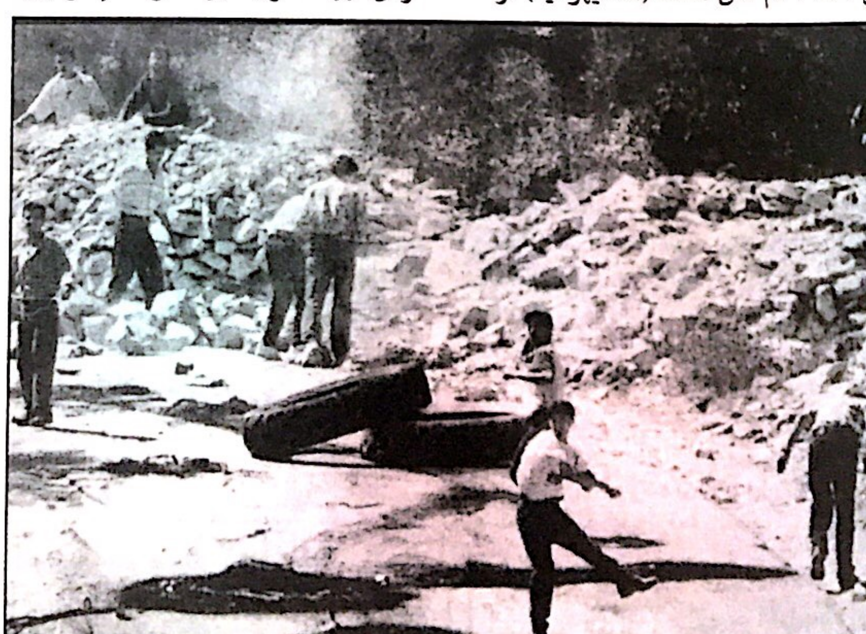
فإن توابع حرب ١٩٧٣ هي التي تشكل الحد الفاصل في تاريخ كيان العدو ومسيرته.

فنهج السلطة المصرية خلال حرب أكتوبر وفي أعقابها والتعامل معها باعتبارها مجرد حرب تحريك لاتحرير. وتعهد السادات فور صمت المدافع بأن تكون حرب أكتوبر هي أخر الحروب. ثم سفر السادات إلى القدس وصفقته المنفردة مع العدو التي أطلقت العنان لمسيرة السلام الأمريكي الصهيوني كل ذلك قد مكن إسرائيل من كسب مواقع متزايدة سواء على مستوى المنطقة على المستوى الدولي. وكسر عزلتها العربية والدولية.

فلقد رفرف علم إسرائيل، فوق سفارتها على ضفاف النيل..

وانسلاخ مصر من معسكر المجابهة مع العدو الصهيوني قد أطلق ذراع العدو الطويل شرقاً وغرباً. فأغار العدو على المفاعل النووي العراقي.. وقصف تونس واجتاح لبنان وضم القدس الشرقية والجولان ويخلص العدو بشكل متسارع من الحصار الإقتصادي العربي المفروض عليه. وفتح الباب واسعاً أمام ادماج اسرائيل في المنطقة وما أصدق تعليق مناحيم بيجن تحت سفح الهرم بعد توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية حيث قال: «أخيراً دخل الخيط الصهيوني في النسيج العربي»

واستعادت اسرائيل مكانتها على المسرح الدولي وبعد عامين فقط من توقيع اتفاق



أوسلو كانت ٣٦ دولة قد أنهت قطع علاقاتها مع اسرائيل وأقامت معها علاقات دبلوماسية كاملة. وتوجت اسرائيل انتصاراتها السياسية على المستوى الدولي بانتزاع قرار من الجمعية العامة بإلغاء قرارها السابق باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري.

□ عندما ذهب السادات إلى القدس، كانت هناك أصوات بررت رفضها وإدانتها للزيارة، بأنها عمل منفرد.. الآن وقد ذهب العرب جماعة إلى مدريد قبل أكثر من سبع سنوات.. ما الذي تحقق؟

■■لاأعتقد أن الإعتراض على المبادرة الساداتية كان من زاوية شكلية فالإرتماء في حضان العدو مرفوض ومدان.. سواء تم بمسلك منفرد أو تم جماعة..

الإعتراض على المبادرة كان اعتراضاً على الجوهر، أي على منهج الإغداق على العدو بالتنازلات المجانية بدون مقابل وتسليم العدو أوراقاً موقعة على بياض.

إن حصاد مسيرة التسوية يشهد بأن كل التسويات الإفرادية التي تمت مع العدو الصهيوني على أرضية الحل الأمريكي الصهيوني.. لم يحقق استقراراً أو أمناً أو سلاماً في المنطقة بل على العكس فإن هذه التسويات تفتح شهية العدو للإمعان في صلفه والتمادي في عدوانيته والإفراط في التوسع.

□ يعتقد البعض أنه لو قبل العرب، بقرار التقسيم، لكانت المشكلة قد انتهت (وهو القرار الذي رفضته اسرائيل، رغم أنها قامت بموجبه!... ويبدو أن الموقف يتكرر مرة أخرى، عندما ترجع بعد الآراء، أسباب تواضع ما حصلت عليه السلطة الفلسطينية في مدريد وأوسلو، إلى الرفض العربي، والفلسطيني خاصة، لاتفاقيات كامب ديفيد.. ما هو تعليقكم؟

■■هذا منطق دعاة الواقعية الانهزامية.. وهو منطق مغلوط يتجاهل الحقائق التاريخية.

فقبول الأنظمة العربية في حينه لقرار التقسيم لم يكن من شأنه انهاء المشكلة واحلال السلام في ربوع المنطقة.

لأن الدولة اليهودية التي أنشأها قرار التقسيم كانت تجسيداً للمشروع الصهيوني على أرض الواقع... وهو مشروع قائم على التوسع المستمر على حساب الشعوب العربية المجاورة.

لذلك فإن الأمر لم يكن يتطلب جهداً كبيراً لادراك أن اسرائيل الوليدة لن تكون أبداً الواحة الديمقراطية التقدمية في جوف الصحراء العربية الرجعية. كما روج البعض.

بل ستكون بؤرة للعدوان والعنصرية... وظاهرة استعمارية توسعية مزروعة في قلب الوطن العربي. وكان من السذاجة توهم أن اسرائيل سترتضي بأن تظل حبيسة حدودها المرسومة في قرار التقسيم وأنها ستحترم قرار التقسيم..

فاسرائيل لم تحترم يوماً تعهداتها الدولية. وحتى اتفاقيات الهدنة التي وقعتها في الأربعينيات انتهكتها باحتلال المناطق المنزوعة السلاح وباعتداءاتها المتكررة على الدول العربية.

وتعاملت اسرائيل دوماً مع التقسيم باعتباره مجرد حجر أساس لدولة اسرائيل العظمى من النيل إلى الفرات.

وفي المؤتمر الصهيوني المنعقد في زيورخ عام ٣٧ علق بن غوريون على مشروع سابق التقسيم اقترحته لجنة بيل قائلاً:

«ان الدولة اليهودية المقترحة لنا الآن حتى لو تضمن المشروع تحسينات جوهرية وممكنة فإنها لا تمثل هدف الصهيونية..

ومن المستحيل أن تحل المشكلة اليهودية ضمن المساحة المقترحة، بيد أنها قد تفيد كخطوة حاسمة في طريق تحقيق الدولة الصهيونية العظمى وسيكون من الممكن بواسطة المشروع تجميع قوة يهودية فعالة تمكننا من بلوغ حدودنا التاريخية».

لقد حرصت الصهيونية العالمية على أن تفرض دولتها كأمر واقع على المجتمع الدولي من قبل أن يصدر قرار التقسيم.

وأعلن قادة المجلس القومي اليهودي في ٤٨/٥/١٤ من طرف واحد قيام دولة اسرائيل، واستبقوا بذلك المناقشات الدائرة يومها في الجمعية العامة للأمم المتحدة حول مستقبل فلسطين.

ولذلك لم يكن غريباً أن تعلن اسرائيل في ٤٩/١٢/١١ - وقبل أن يجف مداد قرار التقسيم - اعتبار القدس عاصمة لها متحدية بذلك قرار التقسيم.

• مسيرة الشعب الفلسطيني النضالية تعكس ما تختزنه أمتنا العربية من طاقات ثورية هائلة.

• مهما بلغ تفريط الحكام ومناقصاتهم، ستظل للشعوب العربية حساباتها الخاصة.

• القوى اليهودية المناوئة للصهيونية والممارسات العدوانية لازالت قوى هامشية محدودة التأثير.

وإذا كانت كل صفقة انفرادية مع العدو بدءاً من كامب ديفيد أتت أشد إجحافاً بالحقوق العربية من سابقتها.

فهذا لا يبرر الترحم على كامب ديفيد... وتحميل مسؤولية مسلسل التردي في التسويات الانفرادية التالية على معسكر الرفض العربي.

فالمسؤولية كل المسؤولية عن هذا التردي تقع على كاهل من ارتضوا هذه الصفقات الاستسلامية منذ أول الخيط.

إذاً كلما انسلخ طرف عربي من خندق المواجهة.. كلما ازداد المعسكر العربي ضعفاً.. الأمر الذي يتيح للعدو الصهيوني فرض واملاء الشروط الأشد اجحافاً.

□ مرت تجربة النضال الوطني الفلسطيني بمراحل متعددة ومختلفة، من مواجهة العصابات الصهيونية، في «فلسطين تحت الانتداب»... إلى العمليات الفدائية في «اسرائيل»...

كيف تقيّمون هذه التجربة؟

■■قبل أن أجيب على هذا السؤال استاذنكم بأن أضيف (... إلى انتفاضة الحجارة)

إن المسيرة النضالية المجيدة للشعب الفلسطيني تسجل تحولاً هاماً وخطيراً.

فلقد ظل مركز الثقل في النضال الفلسطيني لسنوات طويلة هو العمل الفدائي المنطلق أساساً من خارج الأرض المحتلة.

وفي الوقت الذي توهم فيه أعداؤنا... انهم بتشتيت أبناء الشعب الفلسطيني في كل أرجاء الأرض وفروا الأمن والاستقرار للمحتل الاسرائيلي الغاصب. إذا بساحة المجابهة الأساسية تنتقل إلى داخل الأراضي المحتلة.. وإلى قلب كيان العدو.

إن هذه المسيرة النضالية المجيدة تعكس بوضوح ما تختزنه أمتنا العربية من طاقات ثورية هائلة.

ان لهم تاريخ الشعوب يؤكد.. ان الثورات والانتفاضات تتعرض للتقدم والتراجع.. للتصاعد والخفوت.. للمد والجزر لكنها مع ذلك تواصل مسيرتها..

ومهما بلغت قتامة الصورة.. وعتامة الأفق ومهما بلغ تفريط الحكام... ومناقصاتهم.. ستظل للشعوب العربية حساباتها الخاصة.

وسوف تثبت الأيام أن هذه الشعوب العربية لن تقبل أبداً أن تمسخ إلى قطع شطرنج تحركها الأطماع الاستعمارية الصهيونية على رقعة النظام الدولي الجديد.

□ما وجهة نظركم في التحالف الدولي من أجل السلام العربي الاسرائيلي، واعلان كوبنهاغن... وهل تعتقدون ان الحوار مع

انصار السلام داخل اسرائيل والتنسيق معهم، يعد آلية مقبولة وفاعلة، لتعميق التناقضات داخل اسرائيل، ولعزل الاتجاه الصهيوني المتشدد، والتوصل - بالتالي - إلى سلام عادل؟.

■■لا أحد يمكنه أن ينكر ما في المجتمع الاسرائيلي - كأي مجتمع بشري - من تناقضات وصراعات طبقية واجتماعية؟

ولا يمكن أن نتهم كل الاسرائيليين بأنهم صهاينة متعصبين توسعيين.. لكن التخلي عن مواقع النضال.. للانشغال بالرهان على هذه التناقضات وتوهم امكانية تصفية الطابع الفاشي العنصري العدواني لاسرائيل من خلال الصراع الداخلي وحده هو جري وراء سراب. ذلك ان القوى المناوئة للصهيونية والمعارضة للممارسات العدوانية لحكومة اسرائيل محدودة الحجم والتأثير وهي لا تزال قوى هامشية.

لذلك فإن النضال ضد الصهيونية وعدوانية وتوسعية وفاشية اسرائيل يتطلب نضالاً عالمياً وعربياً تتلاحم فيه كل القوى المعادية للفاشية والعنصرية.

ولا يجب أن ننسى أن القضاء على الفاشية في ألمانيا لم يتحقق من خلال الصراع الداخلي.. بل لعب العامل الخارجي دوراً حاسماً في الخلاص من النازية والفاشية.

واختزال المعركة ضد الصهيونية في مجرد مقاومة تعصب الليكود بزعامة نيتنياهو والمراهنة على اعتلال حزب العمل يتجاهل أن العمل والليكود حزبان صهيونيان لا يختلفان جوهرياً عن بعضهما في مواقفهما من قضايا الصراع العربي الاسرائيلي. وتشديد النضال ضد الدولة الصهيونية العنصرية وليس تثبيت وجود هذه الدولة وقبول التعايش معها هو الكفيل بدعم أية قوى ديمقراطية معادية للصهيونية داخل اسرائيل.

وتحالف كوبنهاغن هو في حقيقته بوابة خلفية مؤدية إلى أخطر أنواع التطبيع مع العدو الصهيوني - وأعني التطبيع الشعبي. ولا يجب أن نتوقف كثيراً أمام الزعم بأن فرسان كوبنهاغن يسعون فقط لفتح الجسور مع قوى السلام الاسرائيلية.

ولا أفهم كيف نعتبر رجل الموساد الاسرائيلي ديفيد كيمحي من قوى السلام في اسرائيل؟

وتحالف كوبنهاغن خطوة على طريق تطبيق مقولات مضللة على أرض الواقع من قبل (قانون التحول من صراع الموت للآخر إلى صراع الحياة مع الآخر).

• العمل والليكود حزبان صهيونيان لايختلفان على المسائل الجوهرية في قضايا الصراع العربي الصهيوني.

• تحالف كوبنهاكن في حقيقته بوابة خلفية مؤدية إلى أخطر أنواع التطبيع مع العدو الصهيوني.

• ثقتي كاملة أن قافلة الكفاح ستواصل مسيرتها وتكسح في طريقها كل من يفرط أو يساوم.

وان (أيام الصراع المسلح مع العدو قد ولت إلى غير رجعة وإننا دخلنا مرحلة جديدة هي مرحلة صراع حضاري مع اسرائيل) وكأن كفاح الشعوب العربية من أجل تحرير أراضيها عمل غير متحضر؟

ان ما نجح فيه دعاة حلف كوبنهاغن هو اثارة البلبلة في صفوف المثقفين المصريين، الأمر الذي يخدم بشكل مباشر خطة العدو الصهيوني الهادفة لاختراق جبهة المثقفين العرب، وكسر موقف المثقفين المصريين المناوىء للتطبيع بالذات.

وعلى أية حال فإن ثقتي كاملة... في ان قافلة الكفاح ستواصل مسيرتها.. وسوف تكسح في طريقها كل من يفرط أو يساوم لأن المساومين المفرطين.. يمثلون ماضياً مهترئاً هو حتماً إلى زوال..

بينما المقاومون الصامدون.. يجسدون المستقبل الواعد وهو آت لا محال.

□ الآن، وفي ضوء تعثر ما يسمى عملية السلام، وفي ظل المعطيات الراهنة: عربياً واقليمياً ودولياً.. هل يمكن أن نسأل: ما العمل.. أو كيف تبدو لكم آفاق المستقبل؟

■■الذي أتوقعه هو أن يشهد المستقبل استمرار المواجهة المصيرية بين شعوبنا العربية والعدو الصهيوني. ففي ظل الظروف المتردية الراهنة دولياً وعربياً.. لايلوح في الأفق بادرة حل عادل شامل أو حتى جزئي.

وطالما استمرت إسرائيل - على ما هي عليه - دولة قائمة على أساس ديني ذات صبغة عنصرية وعدوانية وتوسعية فلا إمكانية للتعايش بينها وبين جيرانها.. ولامجال لإحلال السلام في ربوع المنطقة.

وأنا هنا لا أطرح بالطبع العودة إلى شعار إلقاء إسرائيل في البحر وإنما الذي أقصده ضرورة مواصلة نضال كل القوى المعادية للعنصرية والفاشية والمحبة للسلام والديمقراطية من أجل:

تصفية صهيونية اسرائيل: بإلغاء الأساس الديني للدولة.

وتصفية عنصريتها: بإنهاء عدائها للعرب والشعب الفلسطيني وقبولها عودة اللاجئين والنازحين واعترافها بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة.

ولتصفية توسعيتها بانسحاب اسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة ولتصفية عدوانيتها بالخلاص من ترسانة أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها.

ان تحقق ذلك كله هو الذي يفتح الطريق على المدى الطويل أمام إرساء دولة ديمقراطية يتعايش على ترابها سكانها من مسلمين ومسيحيين ويهود وعلمانيين. دولة لامكان في ظلها لا للصهيونية ولا للعداء للسامية.

وما دامت جذور ومسببات الصراع العربي الإسرائيلي قائمة فالمعركة مستمرة وسوف يتجدد باستمرار المواجهات والصدامات مع أعدائنا. قد يهدأ الصراع فترة.. أو يتراجع.. أو ينحسر.. أو ينكسر.. لكنه لن ينتهي.

قد تتغير أشكال الصراع وتتبدل أساليبه، لكنه سيستمر.

قد تتراجع مظاهر انتفاضة الحجارة.. لكن الحالة الإنتفاضية الجماهيرية ستتواصل، والتمرد على الإحتلال الإسرائيلي سوف ينفجر بصورة أعنف وأعنف.

ومهما توالت الصفعات بين العدو الصهيوني وبين هذا الحاكم العربي أو ذاك.. فإن ذلك لن ينهي الصراع المصيري بين العرب والعدو الصهيوني.. وسيظل هذا الصراع فارضاً نفسه على الجميع رغم إرادات الحكام.. ورغم صفقات الإستسلام.

وفي ظل المعطيات العربية والإقليمية والدولية الراهنة لاتملك الشعوب العربية بالطبع عصا سحرية قادرة على تحقيق المعجزات بتحويل الهزيمة إلى نصر بين عشية وضحاها.

المعركة طويلة.. التحديات جسام.. التضحيات فادحة.

المهم أن نتحدى الهزيمة بالصمود.. بالتشبث بقضيتنا العادلة بمواصلة مسيرة الكفاح الصهيوني الذي لايستعجل النتائج.

والمهم أيضاً ألا نستسلم لليأس.. وأن نثق بالنفس وأن نؤمن بأن التردي العربي الراهن ليس قدراً محتوماً مفروضاً علينا إلى الأبد.

وإن اختلال توازن القوى العالمي ليس وضعاً ثابتاً دائماً ■■

في الذكرى الخمسين لقيام الكيان الصهيوني

الحاجة الماسة إلى تأكيد الثوابت

سعيد سيف

الأمين العام للجبهة الشعبية في البحرين

بعد الإنتصار الأمريكي الكاسح في حرب الخليج الثانية، وتفكك الإتحاد السوفييتي، سرت جملة من الأوهام حول العلاقة الأمريكية الإسرائيلية، والدور الذي سيقوم به الأميركان لفرض قرارات الأمم المتحدة أو مجلس الأمن على الفرقاء المعنيين في كافة مناطق العالم، طالما أن واشنطن قد جعلت من نفسها شرطياً وقاضياً عالمياً. وستأخذ سلة القرارات الدولية وتحكم بالعدل بين الدول والشعوب المتصارعة!! وكانت تلك الأوهام ضرورية في ملف التعبئة الأمريكية لإقناع الشعوب ليس فقط بأنها شرطي العالم، وإنما هي الحكم العادل والنزيه في الصراعات الدولية، وإنها تريد نشر رسالتها التمدينية، خاصة بعد أن«أثبت» يوكوهاما بأن الرأسمالية وفكرها الليبرالي هو نهاية التاريخ وإن الإشتراكية قد فشلت في تقديم البديل!!!



الآن بعد سبع سنوات على انتهاء حرب الخليج الثانية، على حرب التجويع الممتدة من البصرة إلى زاخو، وليبيا، وبعد مرور خمسين عاماً على إقامة دولة اسرائيل، هل هناك حقائق يجب التمسك بها أم أن علينا أن نركض وراء السراب في الصحراء العربية؟

السؤال الأول والأساسي الذي تتفرع منه جملة من الأسئلة هو ما هو الدور الأمريكي في المنطقة وما هي حقيقة العلاقة بين واشنطن وتل أبيب.

يحلو للبعض أن يبسط الأمور، فيقول بأن اليهود هم المسيطرون على السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وأن الرئيس الأمريكي لايستطيع أن يتحدى قرارات اللوبي الصهيوني. وعلى النقيض يحلو للبعض أن يقول بأن اسرائيل ثكنة متقدمة للإمبريالية الأمريكية وأن واشنطن قادرة في أية لحظة على اعطاء الأوامر لقاعدتها لفعل ما تريد؟

كلتا وجهتي النظر خاطئتان، والخطأ في الثانية أقل كثيراً من الخطأ في الأولى.

فالولايات المتحدة الأمريكية هي دولة رأسمالية كبرى، بل هي الدولة الإمبريالية الأولى في العالم، وهذا الدور جاء نتيجة تطور مكونات المجتمع الأمريكي، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً وثقافياً، وضمن آلية متداخلة وشديدة التعقيد نتيجة الصراع بين مختلف مكونات القوة الأمريكية، العسكرية منها والإقتصادية، إضافة إلى مراكز الضغط لمجموعات كبيرة من الناس المنحدرين من أصول مختلفة، ويختلف دور مراكز الضغط حسب مصالح القوى في تلك المسألة المعنية من غيرها، لهذا البلد أو ذاك، إلا أن المقياس الأساس هو المصلحة السياسية والإقتصادية للولايات المتحدة، خاصة وأنها تجمع مفتوح إضافة إلى الدور الكبير لوسائل الإعلام التي تملكها مراكز القوى الإقتصادية الأساسية وتجند بالتالي كافة إمكانياتها لكسب الرأي العام في مسألة محددة في صراع واشنطن مع خصومها في مناطق العالم. وبالتالي فإن القرار لايمكن إلا أن يكون أميركيا، وليس اسرائيلياً، إلا أنه منحاز لإسرائيل حسب المصلحة الأمريكية وحسب قوة الضغط من الطرف أو الأطراف الأخرى في المسألة المعنية.

والولايات المتحدة التي برزت كقوة عظمى بعد الحرب العالمية الثانية، وتمكنت من وراثة الدول الإستعمارية القديمة، وأصبحت القوة العظمى بعد انهيار الإتحاد السوفييتي، تنظر إلى منطقتنا بالمنظار الإمبريالي نفسه، ذلك المنظار الذي نظر من خلاله البريطانيون والفرنسيون وغيرهم من المستعمرين الذين استولوا على جزء من الأرض العربية ـ صغر أو كبر. وبالتالي فإن الدوافع التي حدت بالإمبرياليين أن يسيطروا على المنطقة العربية هي ذات الدوافع التي تدفع الأميركان أن يسيطروا حالياً مع تبدل الظروف والإمكانيات والقدرات لهذا الطرف الجديد.

فالطرف الدولي القوي يرى بأن من مصلحته السيطرة على المنطقة العربية لموقعها الإستراتيجي، ولثرواتها النفطية والزراعية وسوقها الكبير، ولابد بالتالي من إزاحة الخصوم الآخرين الذين يريدون أن يحصلوا على مواقع اقتصادية أو نفوذ سياسي في هذه المنطقة، وبات من المعروف أن تخفيف تكاليف السيطرة على هذه المصلحة يكمن في

ابقائها مفتتة، والوقوف ضد كل مشاريع التوحيد العربية أو الإسلامية لأن توحد المنطقة العربية يعني بالضرورة بروز قوة كبيرة سيكون قدرتها على القرار المستقل أكبر بكثير من قدرات أية دولة عربية أو الدول العربية مجتمعة، ولايمكن لأي دولة عربية موحدة إلا أن تدافع عن مصالح شعبها، وثرواته، وبالتالي ستصطدم بالخطط الأميركية والأوروبية والروسية وغيرها التي تريد أن تحصل على كعكة من المائدة العربية بأقل الأثمان.

لاشك أن هناك كثرة من المتغيرات في العالم، وثورات في مختلف مجالات الحياة، ولكن الإنسان هو الأساس، وبالتالي فإن القائمين على الأمور في الولايات المتحدة أو أوربا لايمكن أن يكونوا رسل المحبة والسلام والعدالة والمساواة والإخاء لمجرد أن الإتحاد السوفيتي قد انهار، أو أننا في عصر الإنترنيت وثورة المعلومات، والقرية الكبيرة.. الخ من المقولات التي تعبر عن التطور الكبير والتغيرات الكثيرة في عالمنا، إلا أن النظام الرأسمالي لايقوم إلا على اللامساواة واللاعدل والتمايز الطبقي وبالتالي استمرار نظام الفروقات الطبقية والتمييز بأشكاله المختلفة، والتطور نفسه يدفع الرأسماليين نحو المزيد من الشراهة والشراسة والإستكلاب والإقتتال، بوسائل متعددة، اقتصادية واعلامية وسياسية، لتحقيق النصر على الخصوم دون حروب عسكرية تسفك فيها الدماء إن أمكن ذلك.

وإذا ابتعدنا عن النظريات المثالية، وألقينا نظرة على الواقع المعاش، فإننا نلاحظ بأن التطور العلمي وثورة المعلومات وكافة وسائل التطور الكبير في العالم، تسخر من قبل الإمبرياليين لصالحهم بالدرجة الأساسية دون أن يعني ذلك أن الآخرين لن يستفيدوا شيئاً، وبالتالي فإن طبيعة الإمبريالية لم تتغير، وإن القوانين التي تتحكم بالفرقاء المعنيين لم تتغير إلا ظاهرياً، حيث يصعب اللجوء إلى السلاح، لأنه أكثر تدميراً ويلحق الأذى بكل الأطراف المتصارعة وقد ينهي الوجود البشري نفسه، ولاتنطلي الدعوات الأخلاقية إلا على البلهاء أو الضعفاء أو من يريد تبرير تقاعسه عن خوض الصراع، أو من يريد تبرير ارتباطه بالمعسكر الأمريكي بحجة أن هناك متغيرات كثيرة يجب أخذها بعين الإعتبار ويتنازل عن حقوقه ومصالحه، ويعتبر بأن الإلتحاق أفضل من الإستقلال!!

إن السلوك الأميركي في المنطقة العربية وسائر بلدان العالم يبرهن بأن هذه الإمبريالية هي أسوأ الإمبرياليات التي مرّت على المنطقة العربية، إنها لاتكتفي بمحاصرة شعب عربي وتجويعه والإبقاء على الطاغية لتبرير سلوكها العدواني، وإنما تسعى لتدمير المجتمعات العربية من الداخل بخلق مؤسسات مرتبطة معها، وبإجبار الدول على تغيير نمط حياتها واقتصادها لتسير في دبر نصائح بنكها الدولي، ولا تتورع عن إدخال أنفها في كل صغيرة وكبيرة من شؤون بلدان العالم، بدءاً من الجمهوريات الإسلامية الأسيوية المستقلة عن الإتحاد السوفيتي السابق، وانتهاء بيوغوسلافية والصومال وزائير وتايلند واليابان عروجاً إلى القمر والمريخ!!

إنها لاتريد مالاً عربياً يتراكم، ولا تتردد عن تحطيم بنك الإعتماد الدولي لأنه محسوب على النفط العربي، إنها تتحدث عن حقوق الإنسان لكنها تتمسك بسيطرتها على النفط العربي وتدعس الإنسان العربي بالدبابة الأمريكية، وتدعم أجهزة القمع العربية التي تذبح المواطن بالرصاص الأميركي أو بالمحقق الأمريكي أو البريطاني أوالمحلي. إنها لاتريد تكتلاً دولياً، فكيف عربياً، قد يضعف من قدرتها على الإمساك بالأمور، لذلك فإنها تحشر نفسها في مجموعة آسيان، وهي عضو في الحلف الأطلسي رغم انهيار حلف وارسو وهي مع التكتل الأمريكي الشمالي والجنوبي لتقوية مركزها في مواجهة الخصوم، وهي حاضرة في المؤتمر الدولي لتنمية الشرق الأوسط بقيادة اسرائيل، وهي الأقوى في مؤتمر الدار البيضاء وقرارات القات!!

إنها تريد التغلغل في كل بيت لتجنيد كل الأجيال، ويكفي مشروع المخابرات الأمريكية للأطفال في العالم على شبكة الإنترنت حيث تريد تجنيد الكفاءات منذ البدء ليكونوا في خدمتها في المستقبل!

هذه الإمبريالية لاتتحكم فيها العواطف، ولا الضغوطات الخجولة، إنها تعمل ضمن آلية معينة، حسب القوانين الرأسمالية في الوضع الراهن، فلا الأخلاق ولا قيم حقوق الإنسان ولا قيم الإنسانية تتحكم في هذه الإمبريالية، وإنما تتحكم فيها قوانين عمياء جامدة وعلىمن يريد أن يتقي شرها أن يعرف جيداً هذه القوانين ليحد من شرورها عليه، وينتقل بعد ذلك إلى موقع التأثير المحدود، بدلاً من التأثر اللامحدود.

والإمبريالية الأمريكية التي ترى العالم كله وما فوقه وما تحته، والكواكب السيارة وغير السيارة، ساحة لشركاتها المتعددة القوميات، تتعاطى مع الوضع العربي على ضوء مصالحها، وعلى ضوء موازين القوى، آخذة بالإعتبار أن الدولة الصهيونية هي الأكثر ارتباطاً معها. إنها الحليف الإستراتيجي الحقيقي، إنها القاعدة المتقدمة للغرب الإمبريالي في مواجهة العرب والمسلمين، إنها الدولة «الديمقراطية» في وسط أنظمة شمولية!! وبالتالي صورة الغرب في هذه المنطقة، وبئس الصورة.

والكيان الصهيوني منذ نشاته ليس تجميعاً لليهود لحل المسألة اليهودية، تلك إحدى الخرافات التي وزعتها الحركة الصهيونية، هذه الحركة التي هي أحد افرازات النظام الإمبريالي العالمي، فلماذا لم تنشأ الحركة الصهيونية في المغرب أو العراق أو اليمن حيث كثرة من اليهود وسط المسلمين، ولماذا لم تنشأ عندما عمت موجة العداء للمسلمين واليهود في الأندلس بعد سقوط الدولة والإمارات العربية هناك واشتغل الذبح باليهود والمسلمين على حد سواء. فلجأ الكثير إلى المغرب، ولماذا لم يتذكر اليهود فلسطين إلا في القرن العشرين، بينما تذكرت أوروبا بيت المقدس في حرب الفرنجة لـ «تحريرها» من قبضة المسلمين في تلك الحروب التي شكلت الرافعة لنقل أوربا من الإقطاعية إلى الرأسمالية؟!

لقد أراد الغرب الإمبريالي أن يسيطر على هذه المنطقة من العالم، لأنها نقطة تقاطع استراتيجية في المواصلات الدولية، فمن يسيطر على فلسطين أو المنطقة الممتدة من النيل إلى الفرات، يمكنه أن يتحكم ليس فقط بعقد المواصلات الدولية، وليس فقط بمهد الحضارات القديمة، وإنما أيضاً باحتياطات النفط العالمية الموجودة في المشرق العربي. ولعل من مكونات المجتمعات الأوروبية ثم الأمريكية تلك القوى اليهودية الديانة، التي أرادت أن تكون مطيتها الدين اليهودي لإقامة قاعدة غربية متقدمة في المنطقة العربية، لاتحرسها القوات الأوربية وإنما قوات من مختلف بلدان العالم بما فيها العربية، إذا أمكن استثارة العصبية الدينية وجمع يهود من مختلف بلدان العالم ليقوموا بالدور الذي يحتاجه مشروع الدفاع عن مصالح الغرب، أو منع المنطقة من تحقيق أهداف تصب في خانة معادية للغرب، أو عرقلة تطور المنطقة واستنزاف قدراتها وامكانياتها البشرية والإقتصادية وجعلها باستمرار تحت هاجس الدفاع عن النفس.

إلا أن اقامة الدولة الصهيونية قد أوجدت قوانين وآليات لعملها المستقل، حيث ان القائمين على هذا المشروع يريدون تقليص عامل التأثير الخارجي عليهم وزيادة دورهم في

المحيط العربي أو العالمي وبالتالي قوتهم على مقاومة ضغوط المراكز الأساسية التي أوجدتهم ، وتحسين شروط أوضاعهم بحيث لايكونون أداة عمياء في يد القوى الخارجية لتحقيق مآرب تلك الدول على حسابهم الخاص، وهنا يزداد الصراع بين أطراف متعددة داخل وخارج الكيان الصهيوني. فالمعادلة الأساسية تقول بأن اسرائيل قاعدة متقدمة للغرب الإمبريالي، وأن الدولة الإمبريالية الأولى هي صاحبة القرار الأساسي في هذا الكيان، والقوى الإجتماعية والسياسية والعسكرية في القاعدة تريد تحسين شروط تبعيتها لهذا المركز الإمبريالي من خلال ما تملكه من وسائل ضغط في ذلك المركز، ومن خلال الدور الذي تلعبه في المنطقة ومن خلال تبيان فوائد أو خسائر خططها في المنطقة لصالح المعسكر الإمبريالي بأكمله في مواجهة حلفاء السوفيت أو النهوض القومي العربي أو النهوض الإسلامي أو الإرهاب.. أو أية ذرائع في كل مرحلة من مراحل الصراع.

وحيث أن هذا المشروع هو جزء عضوي من مكونات النظام الإمبريالي العالمي، فإنه يعمل لخدمة هذا المعسكر في مواجهة الخصوم التاريخيين لهذا المعسكر أي في مواجهة الإشتراكية أو الإسلام أو العروبة أو حركات التحرر الآسيوية والأفريقية، من خلال منظومة العلاقات مع الغرب الإمبريالي أو من خلال نشاطاته المستقلة والتغلغل في البلدان الأسيوية والأفريقية وتقديم نفسه كنموذج يستطيع أن يقدم خدمة كبيرة للدول الحديثة الإستقلال أو التي لاتريد الإرتباط بالإمبريالية وترى في الكيان الصهيوني شيئاً مختلفاً في الظاهر! عبر الهستدروت أو حزب العمل واشتراكيته.

وبالتالي ليست الأمور بيضاء أو سوداء، إنها ألوان متداخلة إلى أبعد الحدود، لكن العودة إلى الجذور ضرورية لفهم المشروع نفسه ودرجة ارتباطه وعلاقاته بالدول الإمبريالبة وبالتالي درجة استقلاليته. فالكيان الصهيوني قاعدة للإمبريالية العالمية منذ نشاته وللوقت الحاضر، وتزداد تبعيته لهذا المركز أو ذاك على ضوء تغير مراكز القوى في الإمبريالية ليس فقط على صعيد الدول وإنما على صعيد القوى داخل المركز نفسه، ولكن درجة تبعيته لواشنطن أقل بكثير من تبعية الكثير من الدول العربية خاصة الخليجية لهذه الدولة الإمبريالية رغم أن الكيان قاعدة والدول العربية الخليجية دول مستقلة!

خمسون عاماً على الكيان الصهيوني، وقرن على المؤتمر الأول للحركة الصهيونية، أي قرن من الزمان على الصراع مع وجه من وجوه الإمبريالية، الوجه الأكثر قبحاً، لكنه الأكثر تعبيراً عن الإمبريالية، فالصهيونية عنصرية استيطانية توسعية، تستند على الخرافات والأوهام التوراتية لتبني قلعة متقدمة في مواجهة الأمة العربية، وفي قلب العالم القديم: الآسيوي والأفريقي، والإمبريالية عنصرية استيطانية وتوسعية لم تتردد عن إبادة شعوب بكاملها في أمريكا واستراليا ونيوزيلندا وعدد من المناطق في افريقيا، ومارست سياسة التمييز العنصري في جنوب افريقيا وسياسة الإستيطان في الجزائر والتوسع في الولايات المتحدة الأمريكية وجزر فوكلند. لكن الحركة الصهيونية هي الأكثر قبحاً والأكثر عدوانية والأكثر توحشاً لأنها تستند على الأوهام التوراتية. وتسير في الخط المعاكس لسير التاريخ، من حيث التسامح الديني او العرقي أو القومي، وبالتالي فإن مقومات استمرارها كما خطط لها بناتها مستحيل وهي مجبرة على التراجع لتقوية المواقع التي سيطرت عليها، وتغيير خططها بحيث تلبي ليس فقط أوهام غلاة الرجعيين في الكيان وإنما أيضاً القوى الجديدة التي ترفض الإستمرار في المقولات القديمة وتريد ترسيخ الكيان بمقولات أكثر عصرية مستندة على الإمكانيات والقدرات الإسرائيلية وتحالفاتها الدولية.

وبالتالي يصعب القول بأننا أمام مشاريع للسلام العادل والدائم في المنطقة.

فهذه المنطقة لايمكن أن تعرف السلام الدائم والعادل، ليس فقط لأنه لا سلام ولا عدل في هذا العالم المليء بالكواسر إلا إذا تمكنت البشرية من تحقيق شروط تحررها الإنساني، وألغت نظام العبودية الرأسمالي، وإنما لأن المنطقة نقطة تقاطع بين مصالح أمم ودول كثيرة، تصب صراعاتها فيها، ولايمكن تحقيق سلام إلا إذا تمكنت المنطقة من خلق شروط ذاتية تكون فيها احد اللاعبين الأساسيين بدلاً من أن تكون منطقة اللعب للآخرين، وتفرض شروط اللعبة على الآخرين بما يتفق ومصالحها السياسية والإقتصادية، بدلاً من أن منطقة مصالح حيوية للآخرين.

ونقطة البدء هي العمل لوحدة الأمة، وضرورة هذه الوحدة في هذه المرحلة، ليس لمواجهة العدو الصهيوني، وإنما لمواجهة تحديات العصر، لمواجهة الأطماع الدولية الكبيرة، لمواجهة الأعداء والأصدقاء من موقع قوي يفرض احترامه على الجميع، يكون عقبة حقيقية على العدو، وعامل قوة للصديق.

والوحدة لايمكن تحقيقها بدون الإنسان العربي. إن الوحدة للإنسان وليست للارض. فالأرض موحدة على صعيد الكرة الأرضية، لكن الإنسان هو خالق الحدود التي لاتعترف بها الحيوانات السارحة والطيور الطائرة دون أن يكلف شرطي أو مخبر أو عسكري نفسه بعرقلة حركة الكلب أو الشاة أو الخروف أو الطيور طالباً منها جوازات سفر!!

والإنسان العربي يحتاج إلى الحريات الديمقراطية، إلى شروط الحق في التعبير والتجمع وإبداء الرأي في قضايا وطنه وشعبه وأمته، في كل بلد عربي وعلى صعيد الوطن الكبير. فقد عشنا الخمسين عاماً تحت الهيمنة والسيطرة البريطانية أو الفرنسية أو غيرها من السيطرة الأجنبية المباشرة، ثم انتقلنا إلى أنظمة محلية طورت الكثير من مرافق الحياة، وسعى بعضها إلى تقليد التجارب الشرقية أو الغربية، بحجة الثورية أو الليبرالية، لكنها اعتبرت مصلحة الوطن متطابقة مع مصلحتها الخاصة، وأن الضرورة تقتضي أن تكون مصلحة المواطن مطابقة لمصلحة الفئة أو الأسرة الحاكمة، دون أن يخالجها شعور بأنه قد تكون مصلحة الوطن تتجاوز مصلحتها الخاصة وأن مصلحة المواطن ليست بالضرورة متطابقة مع مصلحة الأسرة الحاكمة، الملكية أو الجمهورية على حد سواء.

وعندما نقول بأن الإنسان العربي يحتاج إلى الحريات الديمقراطية، فإننا نعني أن يكون لدينا مكونات قوية للمجتمع، أناس أحرار ينتمون إلى الوطن، ويخافون على مصلحة المجتمع والوطن، وبالتالي كلهم معنيون بالوطن والمجتمع على قدم المساواة، يسهرون على تقدمه وعلى مواجهة خصومه، ومن خلال صراعهم الطبيعي غير المكبوت وغير الخاضع لرقابة هندرسون وأشباههم العرب والأجانب على حد سواء، يمكنهم أن يدافعوا عن مصالحهم السياسية والإقتصادية، ويتقدموا الصفوف للدفاع عن الوطن والمساهمة في تحرير الأرض المحتلة.

خمسون عاماً من الصراع ضد الإستيطان الصهيوني العنصري التوسعي تقدمنا في مجالات كثيرة إلى الأمام، وتقدمنا في مجالات أكثر إلى الوراء، ونحن بحاجة إلى أن تكون المحصلة إلى الأمام لمواجهة مشروع يتقدم إلى الأمام أكثر من تقدمه إلى الخلف.

ذلك هو التحدي الذي يواجه الحركة الشعبية العربية في هذه المرحلة، خاصة بعد أن تحولت الكثير من الحركات من الهم القومي إلى الهم القطري، نتيجة القمع المحلي والهجمة الإمبريالية والخسائر الهائلة التي الحقتها بنا أنظمة لايفكر زعماؤها ابعد من انوفهم■■

اليسار المصري والصراع العربي الاسرائيلي

د. رفعت السعيد*

ثمة قضايا تبقى المواقف فيها دوماً على طرفي نقيض

لعل قضية ما.. لم تكن ملتبسة وظلت كذلك، مثل قضية موقف اليسار المصري من الصراع العربي الاسرائيلي.

ولعل سر الالتباس هو أن موقف اليسار ظل وعلى الدوام نقيضاً لموقف اليمين. لم يتقارب الموقفان، ومن ثم ظل الالتباس المقصود درعاً يحتمي به اليمين أو يحاول.

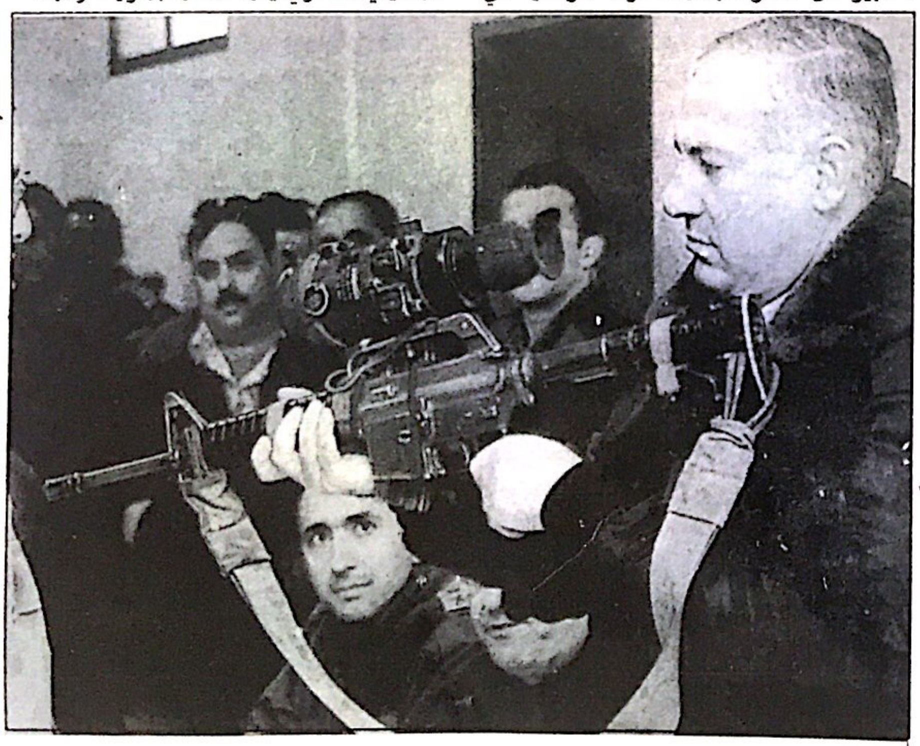
وابتداءً نعتقد أنه من الضروري أن نحدد المواقف إزاء «العروبة» ومسألة التوحد العربي في مواجهة النقيض.. إستعماراً كان أو صهيونية.

ففي الوقت الذي كانت فيه البرجوازية المصرية تنأى بنفسها عن أي معترك عربي (منذ اشتعال ثورة ١٩١٩) تعرف اليسار المصري على واجباته العربية سريعاً وفور النشأة المبكرة لحزبه (١٩٢١). وبدأت شعارات «وحدة الشعوب العربية» ضد الاستعمار تتردد كثيراً في بياناته. وعندما تأسست «عصبة النضال ضد الامبريالية» في بروكسل لعب الشيوعيون المصريون دوراً نشطاً في دعم أفكارها على نطاق الوطن العربي كله محاولين تأسيس شعبة لها في مصر تضم ممثلي مختلف القوى الوطنية المصرية، ثم شعبة مماثلة في مختلف البلدان العربية بأمل أن تتكون لها قيادة مركزية تقرر أن تسمى «عصبة تحرير البلدان العربية».

وفي وثائق الخارجية البريطانية نجد وثيقة تقول «انه قد تم الاتصال بالفعل بعدد من الشخصيات المصرية لتكوين فرع للعصبة بالقاهرة، وأن هناك اقتراحاً بعقد مؤتمر عربي للنضال ضد الامبريالية بالقاهرة وذلك بهدف تعزيز النضال العربي المشترك». وتمضي الوثيقة قائلة «ان اتصالاً قد تم بعدد من الشخصيات المصرية لبحث مسألة عقد هذا المؤتمر معها ومن بين هذه الشخصيات عضو بالبرلمان المصري، وسوف يدعى إلى هذا المؤتمر أيضاً مندوبون من الصين وأندونيسيا وانكلترا والهند».

كذلك فإن بياناً صادراً عن «عصبة النضال ضد الامبريالية» تحت عنوان «النضال من أجل حرية الشعب العربي» (لاحظ تسمية الشعب العربي وليس الشعوب العربية) يقول «لقد أوضحت أحداث فلسطين الأخيرة حقيقة أن القضية الوطنية العربية تشكل في الوقت الراهن إحدى القضايا الهامة في السياسة العالمية، والعرب يمتلكون كل الحق في القضاء على تقسيم وطنهم، وأن يكونوا دولة موحدة، قوية مستقلة وحرة تماماً. دولة عربية عظمى يتحدد شكلها ومستقبلها ليس بواسطة الامبرياليين الأجانب، وانما وفقاً لمصالح وإرادة الجماهير العربية الكادحة، فلاحين وعمالاً وبدواً»، ويمضي البيان قائلاً: «ان العصبة وقد تابعت باهتمام المظاهرات الرائعة التي تفجرت في فلسطين كتعبير عن النمو الهائل للحركة الوطنية في البلدان العربية جميعها لترسل بأحر تحياتها إلى المناضلين دفاعاً عن حقوق الأمة العربية. (لاحظ عبارات: وطنهم، دولة واحدة، الأمة العربية)».. ويمضي البيان ليدعو العرب في كل مدينة وقرية إلى تكوين لجان قاعدية لمناهضة الاستعمار على أساس برنامج وطني، وبحيث تنتخب هذه اللجان ممثليها للجنة أعلى حتى تتكون لها قيادة ثورية في كل بلد عربي، ثم تنتخب هذه اللجان المجلس القومي العربي (All National council)، ومثل هذا التنظيم يقوم على أساس تعبئة كل القوى الشعبية في مجرى التحرر الوطني لتخوض كفاحاً لا ينتهي إلا بالنصر الحقيقي. ويختتم البيان بالشعارات الآتية «عاش النضال التحرري للشعب العربي» و«فليسقط الامبرياليون» و«ليسقط انقسام البلدان العربية» و«لتحيا الدولة الفيدرالية العربية الموحدة الحرة».

ولعل الشعارات كان مبالغاً فيها من حيث صبغتها العربية، ولعل الطموحات كانت من قبيل الأحلام صعبة التحقيق لكنها ـ وعلى أية حال ـ تعبر عن موقف ينتمي للعروبة في وقت كان فيه كل اليمين المصري يتباعد عنها بل ويتنكر لها.



فإذا ما أتينا إلى القضية الفلسطينية نجد اليسار المصري هو أيضاً الأسرع إلى تأييدها في وقت وقف فيه اليمين أو أغلبه إما متجاهلاً القضية، أو في الاتجاه المضاد لها.

ففي الوقت الذي كانت فيه القوى الصهيونية تنشط سافرة في مصر، وكان ليون كاسترو (الذي ساند سعد زغلول في بداية الثورة) يعمل جاهداً لتأسيس «الاتحاد الصهيوني بمصر» في ظل صمت رسمي، وصمت يميني أيضاً، ربما كان أحد أسبابه تجاهل فكرة العروبة، وربما كان أيضاً ذلك التآخي في مجالات الاستثمار الاقتصادي بين النخبة اليهودية المصرية وطبقة كبار الملاك وكبار المستثمرين المصريين. في هذا الوقت وقف اليسار المصري وحده ليواجه خطر الصهيونية.

ففي عام ١٩٢٥ وعندما افتتحت «الجامعة العبرية» في تل أبيب، لم يجد أحمد لطفي السيد باشا أية غضاضة في السفر لحضور حفل الافتتاح على أساس أن افتتاح جامعة هو خطوة هامة نحو التنوير بالمنطقة، بينما تنشر «الحساب» الجريدة العلنية التي كان يصدرها الحزب الشيوعي المصري (دون أن يضع عليها اسمه) مقالات عديدة تستنكر هذا النشاط الصهيوني وتدعو العرب جميعاً لمواجهته. وتقرأ على صفحات «الحساب».. «احتفل الصهيونيون في فلسطين بتأسيس جامعتهم العبرية يوم أول ابريل الجاري فدعوا لحضور ذلك نخبة رجالهم وجميع الذين يعطفون على قضيتهم ويساعدونهم في عملهم الاستعماري وكان في مقدمة المدعوين اللورد بلفور صاحب التصريح المشهور الذي أصدره باسم الحكومة الانجليزية، والذي بموجبه أعطت انكلترا فلسطين لليهود الصهيونيين، رغم إرادة سكانها، وضد كل شرع وعرف وقانون».. «وقد أعلن أهل فلسطين الاضراب العام بمناسبة وصول بلفور إلى بلادهم فأغلقت المتاجر والمصانع والورش وحوانيت البقالة... وامتنع التلاميذ عن حضور دروسهم.. ووضع أهل فلسطين شارات الحداد على دورهم ومتاجرهم، وإنّا لنحيي هذه النهضة البديعة في فلسطين، ونأمل أن يواظب الفلسطينيون الكرام على أمجادهم وجهادهم في سبيل استقلال بلادهم» .

فإذا انتقلنا إلى الثلاثينيات فإننا نتوقف أمام فقرة هامة في البرنامج الجديد الذي أصدره الحزب الشيوعي المصري في عام ١٩٣١ تقول: «النضال من أجل تحرير كل الشعوب العربية من القهر الاستعماري ومن أجل وحدة عربية شاملة تنتظم فيها كل الشعوب العربية الحرة» .

كذلك فقد حرص يسار مصر في هذه الفترة في التواصل مع القوى التقدمية العربية في مختلف البلدان، وفي قضية الشيوعية التي اتهم فيها عصام الدين حنفي ناصف (١٩٣١) ضبطت لديه مخطوطات لمقالات نشرها في مجلة «الحديث» اللبنانية، و«الاخاء الوطني» العراقية، و«القبس» اللبنانية، و«ألف باء» السورية.. وعندما سأله



المحقق عن سر اهتمامه بالنشر في هذه المجلات قال انها «مجلات تجديدية» .

كذلك فقد نشط شيوعيون مصريون في صفوف الحزب الشيوعي اللبناني والحزب الشيوعي الفلسطيني أمثال (محمد دويدار) كما نشط شيوعيون سوريون ولبنانيون في صفوف الحزب الشيوعي المصري (أنطون مارون ـ شفيق باسيور ـ رفيق جبور ـ محمد وهيب المالك).

فإذا أتينا إلى الأربعينيات نجد الحرص اليساري على التلاقي مع قضايا اليساريين العرب والدفاع عنهم والدعوة للعمل المشترك معهم مثل الدعوة لتأسيس «اتحاد عام لعمال الشرق العربي» كما دافع الشيوعيون المصريون عن شيوعيي البلدان العربية حال وقوع أي اضطهاد عليهم.

«يا أيها الوطنيون في مصر والشرق العربي أوقفوا هجوم الاستعمار، طالبوا بزوال المشانق، أوقفوا الاستبداد عن جماهير شعبنا».

انها عناوين مقال نشرته «الجماهير» استنكاراً لحكم الاعدام ضد الرفيق فهد سكرتير عام الحزب الشيوعي العراقي واثنين من رفاقه وتتساءل «الجماهير» بتهمة الشيوعية اعدام؟ سجن خمسة عشر عاماً؟ أية جريمة ارتكبها القوم .

.. كان هذا عن الموقف تجاه العروبة بشكل عام فماذا عن الموقف من الصراع العربي الاسرائيلي تحديداً؟

كما قلنا كانت الصهيونية تجد لنفسها مرتعاً خصباً في مصر.

فبعد نشاط واسع عبر الثلاثينيات بدأت تتبلور حركة صهيونية نشطة ومنظمة أسمت نفسها، «الاتحاد الصهيوني بمصر».

وفي لائحة الاتحاد التي وزعت باللغة الفرنسية تقرأ «م١: الاتحاد الصهيوني بمصر يتكون من تجمع الصهيونيين المقيمين على أرض مصر، وهو يمثل الفرع المصري في المنظمة الصهيونية العالمية، ويسعى الاتحاد لتوحيد جميع الصهيونيين الموجودين بمصر بهدف تحقيق الأفكار الصهيونية وتأكيد برنامج بازل والقرارات التي يتخذها المؤتمر الصهيوني، والقيادة التي يختارها هذا المؤتمر». أما المادة ٢٢ من اللائحة فتنص: «يختار الاتحاد الصهيوني بمصر مندوبيه إلى المؤتمر الصهيوني العالمي» .

وقد نشط الاتحاد الصهيوني وسط الشباب اليهودي وفي أندية المكابي نشاطاً علنياً واضحاً واتخذ لنفسه مقراً في شارع عماد الدين، وأخذ علناً في تحريض اليهود على الهجرة إلى فلسطين دون أن تتحرك الحكومة لاتخاذ أي اجراء ضده ولعله من المثير للدهشة أن الذين تحركوا ضد هذا النشاط كان بعض عقلاء اليهود ومنهم رينيه بك قطاوي رئيس الجالية اليهودية، وكذلك اليهود الشيوعيين.

أما رينيه قطاوي فقد وجه رسالة عنيفة إلى ليون كاسترو رئيس الاتحاد الصهيوني يحذره فيها من ممارسات الاتحاد التي «تؤدي إلى تشكيك الشبان اليهود في ولائهم للبلد الذي نشأوا فيه والذي عاملهم بترحاب» وأكد قطاوي في رسالته «ان مثل هذه الممارسات والتي يتحمل الاتحاد الصهيوني مسؤولية تؤدي إلى استفزاز الرأي العام المصري» .

وقد سبق لقطاوي أن وجه رسالة إلى كاسترو ينتقد فيها بشدة عملية تهجير «الشباب اليهود من الجنسين» وتقول: «ان الحاخام الأكبر لليهود قد

تلقى عدة شكاوى من عديد من الأسر بسبب الدعايات التي تدعو أبناءهم من الجنسين للهجرة إلى أرض الميعاد تاركين عائلاتهم» وتمضي الرسالة قائلة: «ان جاليتنا تعتبر أن مثل هذه الدعايات تضر بالعلاقات الأسرية وتهدد استقرار الأسر تهديداً خطيراً»، ثم تقول: «اننا كيهود، وكمواطنين في بلد ديمقراطي نعتقد أن لكل يهودي كامل الحرية في اعتناق ما يشاء من أفكار ولكننا كمسؤولين عن الدفاع عن مصالح الجالية اليهودية بمصر فإن مجلسنا لا يمكنه أن يقبل بالأنشطة اليهودية الجماعية التي تضر باستقرار الجالية، أو التي تضر بغالبية المجتمع المصري الذي تعتبر الجالية اليهودية نفسها جزءاً منه» .

وباستثناء هذه الصرخة اليهودية التي لم تدم طويلاً، فإن مجمل اليمين المصري قد سكت سكوتاً مريباً عن النشاط الصهيوني في مصر، بل كان المريب حقاً ذلك النشاط الارهابي والعدواني ضد جماعتي الاخوان المسلمين ومصر الفتاة ضد أبناء الجالية اليهودية في مصر، الأمر الذي أسهم اسهاماً مباشراً في إنجاح خطط الاتحاد الصهيوني لتهجير اليهود من مصر، فقد قدمت الأعمال الارهابية دليلاً لا يدحض على أن اقامة اليهود في مصر لم تعد أمراً سهلاً ولا آمناً.

أما اليمين المصري الحاكم فقد التزم الصمت المريب.

وحتى عندما قبض البوليس المصري بالصادفة البحتة على ثلاثة من اليهود كانوا يحاولون في ١٩٤٦ «شراء ستمائة مسدس من أمين أحد مخازن الأسلحة الحكومية بقصد تهريبها إلى الحركة الصهيونية في فلسطين» .. فإن الحكومة لم تحرك ساكناً.

بل أن هناك أدلة قانونية على أن الحكومة الوفدية وحتى بعد حرب فلسطين قد تغاضت في عام ١٩٥٠ عن تصدير القطن المصري إلى اسرائيل عبر ايطاليا أو فرنسا .

.. ولكن الشيوعيين المصريين يخوضون المعركة المستمرة ضد الحركة الصهيونية، يخوضونها بالكتابة وبالنشاط العملي وبالمواجهة في أماكن تجمع اليهود وأنديتهم.

وفي عام 1947 تنشر «صوت الأمة» (الوفدية المعارضة) خبراً يقول أن الشيوعيين والديمقراطيين اليهود تجمعوا أمام نادي مكابي الظاهر واقتحموا أبوابه التي أغلقها الصهاينة بدعم من البوليس وكان المقتحمون يهتفون «تسقط الصهيونية» «يحيا الشعب المصري» ووقع صدام عنيف وقبض على العديد من الطرفين، وتستمر «صوت الأمة» قائلة: «ولقد بلغت الوقاحة بأحد الصهيونيين وهو ألبرت خاتشويل إلى حد الاعلان أمام رجال البوليس المصري بأنه صهيوني لحماً ودماً، وأنه ينتمي إلى عصابة شيترن وأنه سيمضي في طريقه، ولن تستطيع قوة أن تحد من عمله» .

.. وفي يونيو ١٩٤٧ تأسست «الرابطة الاسرائيلية (اليهودية) لمكافحة الصهيونية» وقد تشكلت أساساً من عناصر شيوعية منتمية إلى منظمة حدتو، وعناصر تقدمية ويسارية يهودية.. وثمة برقية من السفارة البريطانية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية في لندن تقول «ان هذه الرابطة هي شيوعية بالأساس» . وكان شعار الرابطة «ضد الصهيونية في صالح اليهود ـ في صالح مصر».

وقد بدأت هذه الرابطة نشاطها بإصدار كتيب حللت فيه وبشكل علمي ظاهر الصهيونية وأدانت الفكر الصهيوني ودعت اليهود المصريين إلى مواجهتها ورفض دعاياتها، وفي ختام الكتيب نتوقف أمام عبارة بالغة الدلالة «لقد اقتصرت الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية على قبول اليهود دون غيرهم كأعضاء عاملين فيها، لأنها تعتبر نفسها حركة يهودية تعمل أساساً بين الجماهير اليهودية، وبمناهضتها للصهيونية تخدم المصالح الحقيقية للطائفة اليهودية المصرية» .

كذلك أصدرت الرابطة عدة منشورات من بينها منشور معنون «نداء إلى يهود مصر» جاء فيه «أيتها الأمهات نريد أن نحمي أطفالكن من أكاذيب الدعاية الصهيونية التي ترمي إلى ارسال أولادكن ليعيشوا في فلسطين وسط عداء أغلبية السكان وفي نظام كله استبداد واضطهاد.

أيها اليهود ـ أيتها اليهوديات: تحاول الصهيونية الجر بنا في مغامرة، تساهم الصهيونية في جعل فلسطين بلاداً لا يمكن العيش فيها، تريد الصهيونية عزل اليهود عن جماهير الشعب المصري، الصهيونية عدوة اليهود، فلتسقط الصهيونية، ولتحيا أخوة العرب واليهود ـ وليحيا الشعب المصري» .

وإذا كانت منظمة حدتو قد انفردت بقيامها بأعمال تنظيمية ضد الحركة الصهيونية سواء داخل أندية المكابي أو بتأسيس الرابطة، فإنه يمكن القول أن جميع الفصائل الشيوعية قد أسهمت وبحماس في الحملة الاعلامية ضد الصهيونية.

ولعله من الصعب سرد عشرات بل مئات المقالات والمنشورات والكتيبات والكتب التي أصدرها الشيوعيون في هذا الصدد ولهذا سنكتفي بنموذج واحد من كل تنظيم شيوعي.

فإذا بدأنا بالحركة التروتسكية نجد أن أنور كامل قد أصدر في ١٩٤٤ كتيباً عنوانه «الصهيونية» يحلل فيه أسباب نشوء الحركة الصهيونية ويعلن «نحن نحارب الصهيونية، نحاربها حرباً لا هوادة فيها حتى نشهد مصرعها الأخير.. نحاربها هذه الحرب لا لأن بنا كراهية طبيعية نحو اليهود، وانما لأننا نعتقد أن الصهيونية حركة استعمارية مركبة (استعمارية بحكم أهدافها الذاتية، واستعمارية لاستخدام القوى الكبيرة لها» .

أما مجموعة الفجر الجديد التي تسمت فيما بعد بأسماء متعددة لعل أكثرها شهرة هو «طليعة العمال» فقد حشدت في مجلتها «الفجر الجديد» عديداً من المقالات ضد الحركة الصهيونية نورد نموذجاً واحداً منها «الصهيونية حركة استعمارية ليست في الواقع سوى شكل قديم جديد لتصدير رأس المال والاستيلاء على الأسواق.. ان الصهيونية لم تكن في يوم من الأيام لتدافع عن اليهود أو لتحارب أعداءهم انما كانت في الواقع الصحيح الصريح تستغل آلامهم وتستفيد من مآسيهم ومصائبهم لتستعمر فلسطين وتستغل مواردها» .

أما منظمة ايسكرا فقد أصدرت عن طريق مؤسستها العلنية «دار للأبحاث العلمية» كراساً عن القضية الفلسطينية وقد تضمن هذا الكراس عديداً من المقالات والدراسات والقصائد تساند كلها الحق الفلسطيني وتدين الصهيونية..

فلطيفة الزيات تكتب مقالاً بعنوان «ما هي الصهيونية؟» تقول فيها: «الصهيونية كلمة تذكر فيذكر معها الاستعمار والرجعية. فالصهيونية هي حليفة الجشع والاستعمار وعميلة الاحتكار والاستبداد».

أما عبد الرحمن الشرقاوي فيدين في قصيدة عَدُوان هما الاستعمار والصهيونية ويقول:

همان ـ صهيونية مدفوعة مجنونة للتخريب والافناء

ونكير بطشك فوق أعراف الربا كالعار. يرهق خاطر العذراء .

أما الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني فقد أصدرت فيضاً من المنشورات والبيانات وكرست عدداً من مقالات جريدتها «الجماهير» لهذه المسألة.. وفي أحد المنشورات التي وزعتها حدتو نقرأ «اننا نطالب بحل عادل للقضية الفلسطينية يكفل الحقوق العربية في كل الشرق الأوسط، ويكفل تحرير واستقلال الدول العربية المحتلة» ويختتم المنشور بشعارات تقول «عاش الكفاح الفلسطيني المشترك ضد الامبريالية والصهيونية ـ تسقط الامبريالية الأنجلو ـ أمريكية ـ تسقط الصهيونية عدوة الشعوب» .

وبعد هذا الاستعراض المتعجل... نأتي إلى المسألة الأكثر إلتباساً وهي الموقف من قرار التقسيم. وقد أثار موقف الشيوعيين المصريين بقبول قرار التقسيم الكثير من الأقاويل والاتهامات..

وسنحاول أن نقدم وجهة نظرهم في هذا الأمر مستندين إلى وثائقهم، لعل هذه المحاولة تقدم تفسيرهم لهذا الموقف.

ولست أعتقد أنه من الضروري أن نتعرض هنا لملابسات صدور قرار التقسيم (١٩٤٧) ولا ملابسات الحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى فقط سنتعرض لموقف الشيوعيين من هذه القضية.

وابتداء نقرر أن الشيوعيين وافقوا على قرار

التقسيم مؤكدين أنه أفضل الحلول السيئة. كما أنهم عارضوا التورط في حرب فلسطين دون استعداد جدي، وفي ظل السيطرة العسكرية البريطانية على مسار القوات المصرية ومجال تحركها الأساس.

كذلك نقر أن حملة شرسة قد وجهت ضد هذا الموقف، وفسره الكثيرون ولم يزالوا على أحد أساسين، أو عليهما معاً:

١- سيطرة اليهود على الحركة الشيوعية المصرية.

٢- التزام الشيوعيين المصريين بالموقف السوفييتي.

فكيف يفسر الشيوعيون موقفهم؟

في البداية.. شكلت الأمم المتحدة لجنة تحقيق لبحث القضية الفلسطينية، لكن الهيئة العربية العليا «قررت مقاطعتها».. وقد انتقدت «الجماهير» هذه المقاطعة مؤكدة أن «الاستعمار قد بذل جهده لابعاد قضية فلسطين عن النطاق الدولي» و«أن في موقف الهيئة العربية العليا بمقاطعتها لجنة التحقيق تشكيك صريح في هيئة الأمم المتحدة الأمر الذي يؤدي إلى تجريد الشعوب العربية من سلاح قوي في كفاحها ضد الاستعمار، وهو نقل قضاياها إلى المجال الدولي، وفضح الاستعمار على نطاق عالمي» .

وفي عدد تال تقول «الجماهير» «لقد أصبح من الواجب العاجل في الوقت الذي تستعد فيه لجنة التحقيق الدولية لوضع تقريرها ورفعه إلى الأمم المتحدة أن يتضامن سكان فلسطين تضامناً قوياً في مناهضتهم للاستعمار والنسك بندائهم: جلاء المستعمر واقامة حكومة ديمقراطية» .

أي أن موقف الشيوعيين المصريين كان حتى قبيل قرار التقسيم هو تضامن سكان فلسطين (عرباً ويهوداً) ضد الاستعمار ومن أجل اقامة حكومة ديمقراطية مستقلة.

وعندما أعدت لجنة التحقيق الدولية تقريرها انتقدته «الجماهير» نقداً حاداً قائلة «وأول ما يؤخذ على هذا التقرير دراسة مشكلة فلسطين على أنها مشكلة تسوية علاقات العرب واليهود، مع أنها أصلاً كفاح سكان هذه البلاد ضد مستعمريهم ومستغليهم.. وقد أغفلت اللجنة الدولية المطلب الأساسي للعرب واليهود معاً ألا وهو جلاء الجيوش الاستعمارية» «ويختتم المقال مطالباً الشعوب العربية بالنضال، دفاعاً عن حريتها والمطالبة بجلاء الجيوش الاستعمارية عن فلسطين، واقامة حكومة ديمقراطية فيها تنظر في كيفية حل المشاكل المعلقة بين العرب واليهود»..

وعندما يبدأ الحديث عن الحرب تنتقد «الجماهير» «التحضير لحرب دينية، حرب صليبية بين العرب واليهود، وليس حرباً تحريرية ضد الاستعمار» وتقول «ان أجل خدمة تقدمها الحكومة المصرية للاستعمار وللمستعمرين هي صرف أنظارنا عنه.. عن العدو الحقيقي لنا وللشعوب العربية جميعاً وتوجيه اهتمامنا إلى حرب دينية لا يفيد منها سوى الغاصب، سوى الاستعمار الأنجلو أمريكي.. ان تحرير وادي النيل، وتوجيه ضربة قاصمة للاستعمار البريطاني في مصر، هو خير مساعدة نقدمها لفلسطين وللشعوب العربية، فتحرير مصر خطوة هامة وأساسية نحو تحرير الشرق من الاستعمار» .

ويبدأ الصراع حول قرار التقسيم، وتبدأ الحملة الشرسة ضد الشيوعيين الذين أعلنوا تأييدهم المحدود والمشروط لقرار التقسيم، وتبدأ الحملة الشرسة ضد الشيوعيين الذين أعلنوا تأييدهم المحدود والمشروط لقرار التقسيم وتصرخ «الجماهير» ليشهد التاريخ، ولتشهد الشعوب العربية اننا الوحيدون في مصر الذين نقف باخلاص من أجل تحريرها من ربقة الاستعمار، ومن أجل حياة سعيدة حرة، ديمقراطية.

ثم تعلق في ذات المقال على اتهامات لأحمد حسين وجهها منتقداً موقف الشيوعيين قائلاً: «ان ما يطرب له كل أوروبي وأمريكي أن تنتزع فلسطين من يد العرب والمسلمين لتعطى إلى اليهود» فتقول: «كلا أيها الفاشي، اننا لا نريد انتزاع فلسطين من يد العرب لنعطيها لليهود، اننا نريد انتزاعها من يد الاستعمار لنعطيها للعرب واليهود دولة مستقلة ديمقراطية، ويجب أن يعلم أحمد حسين وأمثاله أننا لا نوافق على مشروع التقسيم إلا مضطرين وكأساس لاستقلال فلسطين، وأمامنا بعد ذلك كفاح، وكفاح طويل للتقريب بين وجهات نظر الدولتين العربية واليهودية المستقلتين، وتوحيدهما في دولة واحدة مستقلة وديمقراطية».

ويقول «لقد أيدنا ونؤيد وسنؤيد دائماً قيام دولة موحدة عربية يهودية بفلسطين ولكن على شرط، وشرط واحد.. أن تتمتع بالاستقلال التام والديمقراطية. ولذلك كنا نهاجم دائماً الفاشيين وأذناب الاستعمار الذين نفذوا أهداف الاستعمار بدقة، والتي هدفها جعل التعاون بين الجماهير العربية والجماهير اليهودية مستحيلاً في المرحلة الحالية».

ويشير المقال إلى كلمة جروميكو أمام مجلس الأمن التي قال فيها «اننا أمام أمرين، اما استقلال فلسطين، واما ابقاء حالة الانتداب» ويمضي المقال متسائلاً: «ولكن كيف يتم تحقيق هذا الاستقلال وزعماء العرب وزعماء اليهود رفضوا التعاون، ورفضوا اقتراح جروميكو الذي يرمي إلى انشاء دولة موحدة ثنائية مستقلة.

وهنا لم يكن أمام الديمقراطيين ومحبي الشعوب وأعداء الاستعمار إلا أن يقبلوا حل التقسيم كأساس لاعلان استقلال فلسطين، ونحن نعترف أنه حل رديء، لكنه الحل الوحيد الذي يؤدي إلى انهاء الانتداب واعلان استقلال فلسطين» .

.. هذا هو موقف الشيوعيين من قرار التقسيم.

ويبقى بعد هذا أن نسجل أن الشيوعيين قد دفعوا ثمناً غالياً مقابل هذا الموقف فقد ترتب عليه حملة اعلامية ضارية وجهت ضدهم، واتهمتهم تارة بالصهيونية وتارة بالعمالة للسوفيت، كما ترتب عليه حملة اعتقالات واسعة تم تبريرها جماهيرياً أيضاً، وترتب عليه كذلك سلسلة من الانقسامات ضد القيادات اليهودية والأجنبية، التي أصبحت بحكم الواقع عبئاً على القبول الجماهيري للحركة.

.. ثم يبقى أخيراً سؤال مشروع: هل كان صحيحاً رفض قرار التقسيم؟

وماذا لو كان العرب قد قبلوه؟.

ثم تأتي ثورة يوليو

وبعد فترة من التجاهل للقضية الفلسطينية، عادت لتنفجر من جديد بسبب العدوان الاسرائيلي المفاجئ - وغير المبرر - على القوات المصرية في غزة، ثم سلسلة الانفجارات التي دبرت في القاهرة والاسكندرية فيما أسمى بفضيحة لافون.

وبعد فترة من التردد أعلن عبد الناصر موقف حكام يوليو من مسألة الصراع العربي الاسرائيلي، فقد أدلى بحديث إلى مراسل النيوزويك الأمريكية أعيد نشره في جريدة الجمهورية جاء فيه «أعتقد أنه من الممكن أن يكون هناك تحسن في العلاقات بين العرب واسرائيل، إذا أظهرت اسرائيل رغبة في قيام سلام عادل. اننا لا نطالب بأن يكون السلام على أساس شروطنا، ولكننا نتمسك بأن تظهر اسرائيل رغبة طيبة واخلاصاً لقبول قرارات الأمم المتحدة» وعندما سأله المراسل عن الشروط التي تؤدي في وجهة نظره إلى السلام بين العرب واسرائيل. أجاب: «ان الشرط الأول هو أن تبدي اسرائيل رغبة صادقة شريفة في اقرار السلام والتعايش السلمي»، ورداً على سؤال آخر أجاب «ليست لدينا أية مقاصد عدوانية ضد اسرائيل أو ضد أية أمة أخرى. وانني كجندي أود أن أقول انني شاهدت كثيراً من ويلات الحرب بحيث أصبحت أشعر بالرغبة المخلصة في السلام» .

وكان طبيعياً أن يعلن الحزب الشيوعي المصري الموحد تأييده لهذا الموقف.

كذلك أعلن يوسف حلمي (السكرتير العام للجنة الوطنية المصري للسلام في ذلك الحين، والذي كان هارباً في باريس وكان وثيق الصلة بالشيوعيين) تأييده لهذا الموقف وأشاد به في خطابه أمام «الجمعية العالمية لقوات السلم المنعقدة بهلسنكي ١٩٥٥».

وأعلن يوسف حلمي صراحة وبشكل مباشر في خطابه أمام الجمعية «أننا نريد سلاماً عادلاً بين الشعوب العربية وشعب اسرائيل.. ولقد آن الأوان لكي يأخذ المدافعون عن السلام في البلاد العربية وفي اسرائيل زمام المبادرة من أجل اقرار سلام بين الشعوب، سلام شعوبي لا سلام امريكي»، ويمضي يوسف حلمي في خطابه «على الشعوب أن تتحرك.. على أنصار السلام في اسرائيل وفي البلاد العربية أن يبادروا ويتحركوا ويتجمعوا وينسقوا جهودهم وكفاحهم لفرض السلام الذي تريده شعوبنا العربية وشعب اسرائيل أن السلام بين العرب واسرائيل ضروري ليس فقط من أجل السلام العالمي، بل من أجل استقلال وازدهار بلادنا».

ثم يتساءل لم لا يعقد مؤتمر بين المدافعين عن السلم في الشعوب العربية واسرائيل لوضع أسس مبدئية للسلام العادل وللتعايش السلمي .

ثم يبادر يوسف حلمي إلى توجيه رسالة إلى جمال عبد الناصر رغم ما بينهما من خلاف أدى إلى هروبه من مصر بعد فترة طويلة من الاعتقال.

وتبدأ الرسالة ساخنة بلهجة يوسف حلمي المميزة:

«السيد البكباشي جمال عبد الناصر ـ رئيس مجلس الوزراء.

لك مني التحية بقدر ما أنت مخلص لقضية الاستقلال الوطني والسلام العالمي الذي أثبتت الأحداث انهما كل لا يتجزأ كما لعلك توافقني»، ثم تمضي الرسالة لتشرح وجهة نظر اليسار المصري في قضية الصراع العربي الاسرائيلي من بدايتها ثم تتساءل ماذا ستفعل مع اسرائيل؟ ويجيب «سيقول بعضهم وهم موجودون في معسكرك وحولك، وفيمن يدعون أنهم رجالك... سيقول هؤلاء الحمقى أو الجواسيس ان شئت، أو ان شئت فعملاء الاستعمار، نلقي اسرائيل في البحر. ولاشك أنك تعي أن أقل ما يستحقه قائل مثل هذا الهذر أن يموت ضرباً بالنعال لا بشيء آخر.

واذن.. لا حل إلا تنفيذ قرار باندونج: الحل السلمي لمشكلة فلسطين على أساس قرارات الأمم المتحدة» .

ولعلنا لسنا بحاجة إلى القول بأن يوسف حلمي قد دفع ثمناً فادحاً لهذه الرسالة ذات الأسلوب المميز جداً.

وفي نفس الوقت وجه يوسف حلمي خطاباً مفتوحاً إلى شعب اسرائيل تحدث فيه طويلاً عن القضية الفلسطينية واختتمه قائلاً: «اننا نريد السلام، وانكم لتريدونه يا شعب اسرائيل، فارفعوا في وجه دعاة الحرب شعارات السلام، ولندعُ لعقد مؤتمر دولي يجمع الدول العربية ودولة اسرائيل ودولاً أخرى من الشرق والغرب لايجاد حل لهذه المشكلة تعترف للشعب الاسرائيلي بحقه في دولته المستقلة الديمقراطية وللشعب العربي الفلسطيني بالحق نفسه ليعيش هذان الشعبان مع باقي شعوب المنطقة في أمن وصداقة ورخاء وسلام» .

.. وبرغم تصريحات عبد الناصر لمجلة نيوزويك السابق الاشارة إليها فقد اعتبر هذا الموقف من جانب يوسف حلمي واليسار المصري مروقاً، وتعرض أصحابه لاضطهاد شديد، وظل يوسف حلمي يدفع ثمن هذا الموقف حتى وفاته.

.. ويواصل الشيوعيون دفاعهم عن موقفهم الثابت: دولتين مستقلتين ديمقراطيتين لشعبين.. ولعله من حقنا أن نذكر بأن ذات الموقف الذي اقترب منه وتبناه الكثيرون... الآن، وربما بعد ضياع العديد من الفرص.

وفي ديسمبر ١٩٥٥ تحدد جريدة «كفاح الشعب» لسان حال الحزب الشيوعي المصري الموحد ـ ومن جديد ـ موقف الحزب في مقال مطول عنوانه «القضية الاسرائيلية» تقول فيه:

ومن الممكن وضع حد لحالة التوتر القائمة بين اسرائيل والدول العربية على أساس من النقاط التالية:

١ـ تطبيق قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ (قرار التقسيم).

٢ـ عودة اللاجئين العرب إلى ديارهم.

٣ـ تشكيل حكومة ديمقراطية عربية فلسطينية ينتخبها الشعب الفلسطيني في انتخابات حرة».

وفات محرر المقال أن يقرر صراحة أن الفرصة قد ضاعت لتنفيذ قرار ١٩٤٧.

وتحارب مصر.. وتهزم وتكون النكسة، وتبتلع اسرائيل أرضاً جديدة وينسى الناس قرار التقسيم وتنحدر آمالهم إلى تنفيذ قرار ٢٤٢ الذي يتحدث عن الانسحاب من «أراض» محتلة.. ويدور صراع غربي مجدب ومرير حول قبول قرار ٢٤٢.

ويظل الشيوعيون متمسكين بموقفهم الأساس «تسوية سلمية عادلة وشاملة» و«دولتين لشعبين» وفي هذا الاطار انفرد الشيوعيون المصريون واليسار المصري عموماً بموقف ميزهم عن كل من عداهم من المصريين، بل وميزهم عن كل الشيوعيين العرب، وهو أنهم أقاموا جسوراً دائمة وممتدة مع قوى السلام الاسرائيلية.

بل ونجحوا في عام ١٩٧٢ وبمبادرة شخصية من خالد محي الدين في عقد مؤتمر دولي في ايطاليا أسمي «مؤتمر العدل والسلام في الشرق الأوسط» وفي ظل هذا المؤتمر كان أول لقاء بين قوى السلام في اسرائيل وبين ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية.

وتاتي حرب اكتوبر، والمباحثات المصرية الاسرائيلية، ثم زيارة السادات للقدس، فاتفاقيات كامب ديفيد ويكون غريباً أن ينفرد اليسار المصري بمعارضتها.. فقط حزب التجمع والحزب الشيوعي المصري عارضاها ودفعا ثمناً غالياً في معارضتها.

ولعله من الخطأ تصور أن الموقف من كامب ديفيد كان ثنائياً مع أو ضد، وان كان الكثيرون قد حاولوا أن يروجوا لهذا الخطأ. فالحقيقة أنه إزاء كامب ديفيد كانت هناك ثلاثة مواقف..

أ ـ أنصار كامب ديفيد. ب ـ أعداء السلام مع اسرائيل: جـ ـ المعارضون لكامب ديفيد والمؤيدون للسلام العادل والشامل في آن واحد.

وكان اليسار المصري (التجمع والحزب الشيوعي) هم وحدهم أصحاب الموقف الثالث لقد عارضوا اتفاقيات كامب ديفيد، وأعلنوا في ذات الوقت تمسكهم بموقفهم الثابت والدائم بالسعي نحو تسوية سلمية شاملة وعادلة. بل انهم برروا معارضتهم لكامب ديفيد بأن هذه الاتفاقيات تجهض السلام العادل والشامل.

فعقب زيارة السادات للقدس أصدرت السكرتارية العامة لحزب التجمع بياناً جاء فيه «يتطلع الشعب المصري بكل طبقاته وفئاته إلى تحقيق السلام العادل وتجنيب البلاد ويلات الحروب، وعياً من جماهيرنا بأن السلام هو الاطار الأمثل للبناء والقضاء على الارهاق الاقتصادي، الذي يئن الجميع تحت وطأته، ونحن مع شعبنا وأمتنا في التطلع المشروع إلى السلام، ولهذا فإننا أمانة مع الشعب وصدقاً مع النفس، وحرصاً على مستقبل البلاد نؤكد أن ما جرى ويجري لا يسير بنا نحو السلام الذي ننشده، السلام الذي يمنع كل الحروب. السلام الذي يحقق الاستقرار لمصر ولمنطقة الشرق العربي».

وعندما توقع اتفاقيات كامب ديفيد يعلن التجمع والحزب الشيوعي رفضهما لها على أساس انها صلح منفرد، لا يحقق سلماً عادلاً ولا شاملاً..

ويخوض الحزبان معركة معارضة هذه الاتفاقيات من منطلق مغاير لكل معارضيها الآخرين، فالآخرون يرفضون مبدأ السلام مع اسرائيل، بينما اليسار المصري برفض كامب ديفيد لأنها لا تحقق السلام المنشود بل تحقق صلحاً منفرداً يبقي القضية الفلسطينية، وقضية الأراضي المحتلة في الجولان ولبنان بلا حل، ويدفع باسرائيل إلى المزيد من التعنت بعد أن أخرجت مصر بكل ثقلها من ساحة المواجهة.. ولعل كل ما يجري الآن يؤكد كيف أن الصلح لم يكن سلاماً لا شاملاً ولا عادلاً ولا مستقراً.

.. وكالعادة دفع اليسار المصري ثمناً باهظاً من أجل تمسكه بموقفه الثابت من أجل سلام عادل شامل ودائم..■■

* كاتب مصري.

نعتذر عن ايراد المصادر لضيق المساحة

في الذكرى الخمسين لعام النكبة

لماذا؟ ثم ماذا بعد؟

دانيال نعمة
عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري

مدخل إلى الموضوع

قبل خمسين عاماً وقعت الواقعة، وحلت النكبة بفلسطين.. والأمة العربية. فبعد القرار الجائر بتقسيم فلسطين، أواخر العام ١٩٤٧، وفي الرابع عشر من شهر أيار لعام ١٩٤٨، تم الإعلان عن قيام الدولة اليهودية. أما الدولة الفلسطينية، فقد تأجل الإعلان عن قيامها إلى أجل غير مسمى. وبدأت الحرب الإسرائيلية ـ العربية الأولى.

وكان الرأي الطاغي، في الأوساط الشعبية العربية، أن عمر الدولة المغروسة حديثاً، في أرض فلسطين العربية، لن يطول. فقد هبت الجيوش العربية الفتية إلى دخول فلسطين لتحريرها. وظن مئات ألوف الفلسطينيين الذين كانوا قد غادروا منازلهم، إلى الأقطار الشقيقة، بطلب من الجامعة العربية، أنهم عائدون قريباً. ولكن الذي حصل، على أرض الواقع، كان مغايراً لكل التوقعات العربية وشكل صدمة نفسية قاسية. وأصيبت الأحلام العربية الطموحة بأول الخيبات وأعمقها.

وهكذا كانت بداية النكبة، وكانت مضاعفاتها وامتداداتها التي تبدو بدون نهاية.

ويطرح هذا الكثير من التساؤلات: ترى لماذا كانت هذه النكبة، وما هي أسبابها؟ ولماذا لم يجر الإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية المستقلة قبل إعلان الصهاينة عن قيام دولتهم؟ وكيف وكيف الخ إلخ..

ومثل هذه التساؤلات ستظل تطرح حتى يكون الجواب الصحيح: أي حتى يتحقق الحل العادل لقضية العرب الأولى ونعني القضية الفلسطينية.

في الأسباب البعيدة والقريبة للنكبة

لقد قيل وسيظل يقال الكثير في أسباب هذه النكبة وعواملها. فهي نكبة لم تكن بدون أسباب بعيدة وقريبة.

أما البعيدة منها فتعود أولاً، إلى ما قبل مؤتمر بال برئاسة هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية العالمية، هذا المؤتمر الذي شكل فيما بعد المرحلة الثانية في السعي لإقامة الدولة اليهودية على أنقاض فلسطين، وتعود، ثانياً، إلى التزاوج بين الحلم اليهودي لدى ممثلي الرأسمال الصهيوني وبين المطامع الإستعمارية لدى الدول الغربية في تقاسم تركة الرجل المريض. وإذا كانت نقطة الإنطلاق الفعلية في هذا التزاوج هي وعد بلفور البريطاني، خلال الحرب العالمية الأولى، فقد كانت فترة ما بعد الحرب العالميةالثانية وتحديداً يوم اتخاذ قرار التقسيم المشؤوم بداية مرحلة تجسيد هذا التزاوج على ارض الواقع.

واليوم يتجسد هذا التزاوج بأوضح أشكاله في هذا التحالف الإستراتيجي بين الإمبريالية الأمريكية وبين الدولة الإسرائيلية، وهو تحالف موجه بالدرجة الأولى ضد الأمة العربية ولو انه كان تغطى في مرحلة ما بخطر الشيوعية والإتحاد السوفييتي.

وقد سهل لهذا التزاوج وقوعه أمران: الإضطهاد النازي لليهود، وتلك التجزئة التي فرضت على الأمة العربية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وإقامة الدويلات العربية المجزأة ووضعها تحت السيطرة الإستعمارية، بل يمكن القول: إن هذه التجزئة كانت نتاجاً لذلك التزاوج بين الصهيونية العالمية وبين الإستعمار الغربي والبريطاني بشكل خاص، وشرطاً ضرورياً لإستمراره.

أما الأسباب القريبة فتعود إلى أسلوب إدارة الصراع من قبل النافذين، مع الصهيونية يومذاك، على الساحة الفلسطينية والساحات العربية، ومحاولة الفصل بينها وبين علاقاتها الوثيقة بالإستعمار الغربي. وبالفعل هل من شك في أن الأسلوب العلمي والعملي الذي قاد به العدو الصهيوني وحلفاؤه معركتهم، قد تفوق على الأسلوب غير العلمي، غير الواقعي، الذي جابه به العرب هذه المعركة. فباستثناء عدد من القوى التقدمية والعلمانية، بمن فيهم الشيوعيون، لم يكن هناك وضوح كاف حول طبيعة الصهيونية كممثل للرأسمال اليهودي وعلاقتها بالرأسمال العالمي، بالإمبريالية، وتجلى ذلك خصوصاً لدى الطبقة الإقطاعية وأنظمتها الحاكمة.

ومع ذلك سنبقى طويلاً نبحث في عوامل النكبة من أجل معارك اليوم والمستقبل. وسيبقى في الأذهان لماذا لم تعلن القيادة الفلسطينية، يومذاك، قيام الدولة الفلسطينية، ولماذا لم تكن الدعوة للتمسك بالأرض والمنازل وليس بمغادرتها؟! في الآثار المباشرة وغير المباشرة للنكبة.

وكان طبيعياً أن تترك النكبة آثارها على مجمل التطور اللاحق في جميع الأقطار العربية، وأن يحمل الحكام مسؤولية ما حصل. وتتالت الإنقلابات العسكرية هنا وهناك. وكان العنوان الرئيسي لكل ما حصل هو تأكيد الإستعداد للثأر. واصبح تحرير فلسطين، كامل فلسطين وعودة مئات ألوف اللاجئين إلى ديارهم فيها، هو الشعار الرئيسي لكل الشعوب العربية، ولغالبية الحكام العرب. وأخضع كل شيء، على الأقل بالكلام، لهذا الهدف، وحتى الأحكام العرفية تم اعلانها، والتشبث بها، بالإنطلاق منه.

وأخذت الثقة بالعودة إلى النفوس نتيجة للصعود الذي شهدته حركة التحرر الوطني



العربية منذ مطلع الخمسينات. وتم ذلك خصوصاً بعد قيام الوحدة السورية المصرية، ثم بعد انطلاق حركة التحرر الوطني الفلسطينية على طريق الكفاح المسلح. وترقبت الجماهير العربية عموماً، والجماهير الفلسطينية بخاصة، بزوغ فجر التحرير. ويوم أعلن عن بداية حرب حزيران بلغ التفاؤل مداه. ولكن ما ان انتهت الأيام الستة حتى كانت الكارثة قد حلت. وولدت النكبة الثانية. وهكذا وضعت دولة اسرائيل اليهودية يدها على باقي الأراضي التي كان يفترض بموجب قرار التقسيم ذاته أن تقوم عليها الدولة الفلسطينية المستقلة، وعلى أراضٍ عربية أخرى بما فيها الجولان السوري.

وللحقيقة فلولا حرب تشرين التحريرية لكانت روح التشاؤم التي تولدها الهزائم والخيبات قد سيطرت كلياً على المزاج العربي العام. لقد شكلت هذه الحرب انعطافاً جذرياً في الحياة العربية وبالنسبة للعالم كله. وفتحت المجال أمام احتمالات كثيرة بما فيها احتمال التوصل إلى السلام العادل الشامل بكل مقوماته، كما خلقت جواً جديداً من الثقة بالقدرة ليس فقط على الصمود والتصدي، وإنما على تحقيق الإنتصار في ظروف مناسبة.

طبعاً لقد مر على هذه الحرب ربع قرن ومازالت الأهداف التي توخت تحقيقها غير متحققة بغالبيتها، وهي تنتصب اليوم بكل الجدية أمام العرب والعالم. أما الأسباب في مثل هذا الوضع فتعود إلى استمرار سيطرة القوى المعارضة للسلام. المعادية للحقوق الفلسطينية والعربية على الحكم في قلب اسرائيل وإلى الدعم الذي تتلقاه من الأوساط النافذة في قلب الولايات المتحدة الأمريكية.

ويطرح هذا العديد من التساؤلات بما فيها: وماذا الآن؟ وماذا بعد؟ أما ماذا الآن فهو معروف. ففي أعقاب انهيار نظام القطبين، في العالم، ومحاولة تفرد قطب واحد بمصائره، ازداد التعنت الإسرائيلي، واصبحت الغلبة في اسرائيل للقوى اليمينية والأكثر عنصرية. وتتمثل هذه القوى اليوم في أبشع صورها بنتنياهو وحكومته وحلفائه من غلاة المتدينين.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد اشتد الإنعطاف نحو الرضوخ لهذه القوى، والعمل بما يقوي مواقعها ويحميها. أما الأدلة فلا تعد ولا تحصى ولن يكون آخرها الموقف من الإتفاقيات المنفردة الموقعة مع السلطة الفلسطينية على هزالها، ولا الموقف من القرار ٤٢٥ المتعلق بالإنسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان دون قيد أو شرط إلى آخره، ولا الموقف الإسرائيلي المعبر عن الإصرار على عدم الإنسحاب من الجولان، هذه الأرض التي ستبقى سورية إلى الأبد. وأما ماذا بعد، فهذا هو بيت القصيد.

إن هذا السؤال على إيجازه يضعنا أمام احتمالات عدة أهمها اثنان، أولهما تحقيق السلام العادل الشامل بكل مقوماته: تحرير الأرض العربية المحتلة واستعادة الحقوق المغتصبة وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على الأرض الفلسطينية التي احتلت نتيجة حرب حزيران عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشريف. وإذا كان هنالك إمكانيات واقعية لتحقيق مثل هذا الحل، فهي إمكانيات تحتاج إلى الكثير من الجهد والنضال وفي المقدمة رص الوحدة الوطنية داخل الأقطار العربية الأساسية بخاصة، وتأمين وحدة الشعب الفلسطيني على نحو مقبول، وتوسيع وتعميق التضامن العربي والإفادة إلى الحد الأقصى من الإمكانيات الدولية المتاحة والتعمق أكثر فأكثر في معرفة واقع العدو كما هو موضوعياً، وليس كما نشتهي أو نتمنى، والتغلب قبل كل شيء على المواقف التي تقفها الولايات المتحدة الأمريكية بعيداً عن المطلوب من الراعي العادل والنزيه والحريص على تنفيذ وعوده، والعمل لتجسيد ما تعهد به سواء بشكل خاص أو عبر موافقاته على قرارات الشرعية الدولية. فبهذا كله يمكن القول: إن الوضع بالنسبة لإسرائيل سيصبح أصعب، وبأن قوى السلام فيها ستصبح أقدر على أن تلعب الدور الذي يعود لها، وينبغي أن تلعبه. ولكن مثل هذا الإحتمال، فيما يبدو، مازال لعوامل كثيرة بعيداً وبعيداً جداً؛ أولا، نتيجة للأوضاع السائدة في العديد من البلدان العربية إن لم يكن فيها كلها، وثانياً، لإصرار نتنياهو على التمسك بمشروعه المعلن في كتابه «تفاحي» أو موقع تحت الشمس، وهو المشروع القائم على الإستمرار في بناء وتوسيع المستوطنات، وصولاً إلى الإستيلاء الكامل على كامل الأرض والإرادة الفلسطينية، وعلى أراض عربية أخرى وصولا إلى بناء إسرائيل الكبرى، وفرض الإستسلام على العرب، ومن ثم لقدرته (أي لقدرة نتنياهو) على التحكم بالموقف الأمريكي. وبالرغم من ذلك كله، يبقى هذا الإحتمال، ونعني احتمال الحل السلمي العادل الشامل، احتمالاً قائماً، وحوله ينبغي أن يتمركز النضال العربي حالياً، ولابد من العمل في سبيله بجدية، ووفق استراتيجية كاملة وطنية وقومية وأممية.

أما ثاني الإحتمالين فهو الإحتمال الذي تهيء له سياسة نتنياهو والأوساط الداعمة له، وهو الذي ستكون له الغلبة، وسيتصدر جدول الأعمال، فور الإعلان عن سقوط عملية السلام الراهنة بالشكل النهائي، وعندئذ ستكون الإنفجارات الصغيرة والكبيرة. وهذا ما يثير قلق الرأي العام العالمي كله منذ الآن، وتتحدث عنه الأوساط النافذة في العديد من دول العالم.

ولاريب أننا ونحن نعمل بكل طاقاتنا من أجل أن ينجح الإحتمال الأول، علينا ألا نغمض العين، ولو للحظة، عن ثاني الإحتمالين، وأن نكون جاهزين لملاقاته بكل الجاهزية المطلوبة.

وبالفعل هل يمكن لأحد أن يتجاهل ماذا تعني سياسة نتنياهو وممارساته الفعلية، وما يقوم به على الأرض. إنه يريد أن يحتفل، على أوسع نطاق، بالذكرى الخمسين لغرس دولة اسرائيل في ارض فلسطين، بل أكثر من ذلك، فهو يعمل كي تصبح أرض فلسطين كلها أرضاً اسرائيلية متخطياً بذلك حقائق التاريخ، والحقوق التي رتبتها قوانين الشرعية الدولية وقراراتها. ولايهتم نتنياهو بما تثيره سياسته هذه من احتجاجات لدى العرب والرأي العام العالمي، بل وبما تثيره من قلق لدى اوساط أوسع فأوسع بما في ذلك داخل اسرائيل. وفي بعض الأوساط اليهودية العالمية والاوساط الأمريكية. ويتناسى نتنياهو أن مثل هذه السياسة ستطرح على بساط البحث، طال الزمن أم قصر، مصير الوجود الإسرائيلي في المنطقة. ولن يلغي مثل هذه الحقيقة كل التطمينات التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل، وكل ما تفعله لكي تبقي اسرائيل متفوقة عسكرياً على جميع العرب.

ويبقى من حقنا، وقد قلنا بعض ما يمكن قوله، أن نتساءل: ترى من كان السبب بما أصاب فلسطين والعرب أهو النقص في الإستعداد للبذل والتضحية، أو في إرادة الحفاظ على أرض الوطن والحقوق؟ ونعجل فنقول: لقد كان النضال الفلسطيني ويبقى بطولياً، فمن يمكن أن ينكر الأثر الكبير للثورات الفلسطينية، ومآثر الشيخ عز الدين القسام واستشهاد القائد عبد القادر الحسيني أو بطولات أطفال الحجارة؟ والوف شهداء المقاومة الوطنية الفلسطينية والعربية الأبرار؟!

ويمكن الحديث بمثل هذا عن البطولات التي أبدتها جماهير الأمة العربية والتضحيات التي قدمتها القوات المسلحة العربية عموماً والسورية والمصرية بخاصة، وإذا كان هذا كله قد وقع وستكون له آثاره العميقة مستقبلاً أيضاً فأين المشكلة إذن؟ والجواب الأولي الذي يحتاج إلى الكثير من التأمل والتعميق هو في أسلوب قيادة الصراع، وفي الفروق بيننا وبين أعدائنا في النظرة إليه. فهذا العدو وهو ابن الحضارة الغربية المتقدمة قد أدار هذا الصراع عبر استراتيجية مدروسة بعمق ومن خلال تكتيكات متناسبة مع الظروف وعلى أساس معرفة عميقة بأوضاعنا. فيما كنا، نحن العرب، عموماً، وفي فلسطين كذلك نخوض هذا الصراع (وربما مايزال بعضنا يخوضه الآن أيضاً) بدون استراتيجية واضحة، وبدون التكتيكات المناسبة مرحلياً. وإلى البحث في هذه المسألة على ضوء النظرة النقدية سنظل ندعو. ذلك لأن معركتنا كما تدل الدلائل جميعها، مازالت طويلة وقاسية، وهي تتطلب الكثير من العمل والجهد، ومن العرق والدم، وتتطلب، قبل كل شيء تغليب العقل والعقلانية على الإنطلاق من ردود الافعال.

وختاماً نقول بإيجاز: علينا ونحن نتذكر يوم النكبة، ونتحدث عن عواملها وأبعادها وما أدت إليه، وما نحن فيه، أن نعمل لتوحيد الصفوف وطنياً وقومياً ودولياً من أجل فرض السلام العادل الشامل، أما إذا لم نتوفق بالتوصل إلى مثل هذا الحل، لأسباب خارجة عن إرادتنا، فعلينا أن نكون ومنذ الآن، وعلى أساس استراتيجية واضحة، مستعدين لأسوأ الإحتمالات. والا توسعت أكثر فأكثر رقعة النكبات ■■

بعد خمسين عاماً:

من فلسطين.. إلى «مستوطنات فلسطينية»!

حلمي شعراوي

ظل الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين طوال أكثر من قرن ينتقل من مرحلة لأخرى مرتبطاً بهدف ثابت هو إخلاء أرض فلسطين لصالحه وحده، رافضاً مبدأ «شعبين» أو قوميتين ناهيك عن دولتين.

وطوال رحلته تلك، فإنه كان يبث من الأوهام والتحليلات التي يعرف مدى ضلالها، ولكنه يجد دائماً من يقبلها من العرب، ومن يروجها بالطبع في دوائر الرأسمالية الامبريالية العالمية، حتى يكادوا لا يحتاجون إلى كل ذلك مع احتفالهم بمرور خمسين عاماً على إقامة كيانهم «المستقر» اقليمياً ودولياً.

كانوا في البداية مجرد «أهل ملة» ذوي حقوق في الإدارة الذاتية، وقالوا إن التنظيمات العثمانية من السماحة ورحابة الصدر بما يقبل بذلك... ثم كانوا من «المستضعفين المضطهدين» هنا وهنالك يرغبون في مستوطنة زراعية أو أخرى في عصر «المحميات» الاستعمارية التي روجها المجتمع الرأسمالي عن أراض بلا أهل، وقيل يومها إن اليهود «قوة زراعية» تتحملها الأرض الشاسعة والقاحلة في فلسطين أو أنهم «طاقة تقدم» تتوحد مع عملية التحديث التي تحملها معها الرأسمالية والاستعمار دائماً رغم سوءاتهما!

وفي جو الاقطاع العربي المتخلف، والمسكون «بتجارب التبادل لا الانتاج» بدت «التجارة اليهودية» - دون العربية - مقبولة وجزءاً من الرأسمالية الحديثة المنتجة! لكن المستوطنات اليهودية «المحدودة الهدف» لإيواء من يعطف عليهم روتشيلد وبيوت المال اليهودية تتحول من أدوات إنتاج زراعية محدودة إلى نظام اجتماعي اقتصادي بمسميات الكيبوتز والموشاف والهستدروت، وتحت إشراف صناديق ووكالات دولية مركزية منظمة، ومع ذلك ينتقل هذا «التطور التأسيسي» عند بعض العرب من «التحديثية» إلى نماذج اشتراكية ماركسية أو اشتراكية ديمقراطية ذات تاريخ بين الجاليات اليهودية، رغم أن ماركس ولينين، وحتى فرويد قد نبهوا جميعاً لمخاطر الانزلاق القومي اليهودي، اقتصادياً واجتماعياً وتنظيمياً وحتى نفسياً!

ولا ندري أن «لوبي صهيوني» في حركة اليسار العربي وخاصة في مصر جعلها تقبل بما لا تقول به «الدوغما» التي اتهموا بها أصلاً في كافة القضايا الأخرى!

وكان علينا أن ننتظر حتى يكشف جهد مفكر كبير مثل مكسيم رودنسون «اكذوبة الاشتراكية الاسرائيلية عام ١٩٦٨» في كتاب «الرفض العربي لاسرائيل».

وانتقل الكيان الصهيوني من «الأرض الخالية» بحدود ١٩٤٨ إلى أرض فلسطين المأهولة في حدود ١٩٦٧، وبتطور الأحداث والاعلام الحديث ووجود «اسرائيل» الدولي في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أصبحنا أمام نمط «استعمار استيطاني» صارخ ينافس قرينه في جنوب افريقيا وروديسيا.

ووفرت العلاقة العضوية بالرأسمال العالمي المالي والصناعي إمكان القول بأن اسرائيل «امبريالية صغرى» في منطقة الشرق الأوسط تقوم على قاعدة الاستعمار الاستيطاني وتتفوق على نمطه في افريقيا في جانبها «العالمي» ذاك.

لكن مثقفين عرباً راحوا يهدئوننا بأنها ليست من نوع الامبريالية الفرعية بسبب: اعتمادها الكبير على الامبريالية الكبرى، وليست مشاركة في خصائصها، وأنه بتجسيد الامبريالية الكبرى «الولايات المتحدة» أو بالاعتراف المتبادل إقليمياً، نصبح أمام تنافس إقليمي محدود قد يتفوق فيه العربي!.

ووقعت كامب ديفيد في هذا الإطار...

وكان الملفت أن حركة الاستيطان الصهيوني قد تبلورت نظرياتها واتسعت خطواتها مع التطور الامبريالي الرأسمالي الذي بشرت العولمة الأمريكية ودعاتها بأنه سيعني تطورات جذرية مختلفة في أشكال العلاقات الاقليمية والدولية، وحتى تصفية نظام الأبارتهيد في جنوب افريقيا لم تحسب لصالح حركة الرفض الوطنية بل وضعت في إطار التطور الرأسمالي العالمي - بدون امبريالية طبعاً! - وقال البعض أن تسارع



المستوطنات عمل محدود وتستهدف به اسرائيل تأكيد وجودها الاقليمي - لا العوالمي - لأن هناك مشروع الشرق أوسطية الذي ترغب به أن تكون «دولة من دول الشرق الأوسط».

لكن الكيان الصهيوني أعلن أن خطته الاستراتيجية هي استيعاب خمسة ملايين مستوطن يهودي جديد خاصة من معسكر الاشتراكية القديم، كما نجح في الانتقال بصفة «الشعب الفلسطيني» من «لاجئين» - وفق ٢٤٢ - إلى «فلسطينيين» في كامب ديفيد إلى تجاهل كامل في أوسلو.

ان اسرائيل تتجاوز فكرة الشرق أوسطية نفسها بخطوات متسارعة، والصهاينة الذين يحكمون بثلثي الأصوات حالياً في اسرائيل لا يرغبون - بوعي - فيما قد تطرحه الشرق أوسطية رغم الرفض العربي لها.

فهي قد تطرح وجود الشعب الفلسطيني في «دولة» من «دول المنطقة»، كما تجعل «دولة اسرائيل» عادية في «الاقليم»، وإذا ما اشتدت مقاومة «الاقليم العربي» للعولمة فقد تشد الفلسطينيين إلى مواقف جديدة من المشروع كله بدلاً من قبول إدارتهم الحالية بدور المعبر البشري والاقتصادي والشرعي لاقليم الشرق أوسطية.

إن الشرق أوسطية باقليم فلسطين «للفلسطينيين» تعني استمرار الصراع، وتقبل باستمرار الرفض العربي للامبريالية الصغرى داخله، كما أن آليات العولمة نفسها قد تنتج التنافس المتبادل داخل المشروع الشرق أوسطي.

لكن المشروع الصهيوني، لا يقبل الآن بالمنافسة، ويؤكد مركزيته وقيادته في «الاقليم». ويتحسب للحركة الوطنية العربية والفلسطينيين، ويتطلب ذلك استمرار عزل العرب عالمياً بالابقاء على تخلفهم وخضوعهم لقيادته المالية والتكنولوجية (مشاريع الصندوق والبنوك والمياه والغاز والمناطق الحرة... الخ) وهذا من الناحية الاقليمية؛ أما فلسطينياً فإن التفكير الآن هو ألا يصبح «ما تبقى من فلسطين» معبراً بشرياً أو كياناً متماسكاً يفكر في المنافسة أو التكامل مع الطرف العربي المناوىء.

التطور الذي نشهده هو تصعيد في صهيونية اسرائيل - وليس سقوط المشروع الصهيوني مع المشروع القومي العربي كما يقول أصحاب كوبنهاغن بل إنه يرفض أي فرصة «لقوى السلام» أو قوى التاريخ الجديد التي لم تؤكد بدورها رفض المشروع الصهيوني أو مضاعفة الهجرة اليهودية ولذا يتحول مشروع الاستيطان مجدداً إلى «استراتيجية» وليس مجرد أداة حماية أو توطين المهاجرين الجدد.

إن له استراتيجية لبناء أسوار بشرية مسلحة حول «المشروع الصهيوني» الرافض «للذوبان» و«العادية»، استراتيجية لمحاصرة «الفلسطينيين» ليتحولوا إلى مجرد «فلسطينيين» مستوطنين داخل المشروع الصهيوني - إسرائيل. والصراع مؤخراً حول ٢٪ أو ٣٪ هو صراع في هذا الاتجاه لتتحول فلسطين إلى مجرد مستوطنات داخل «المعسكر الصهيوني». والتذكير النشط بالهولوكوست هو تذكير لليهود «بالمعسكر»؛ ان كانوا حرقوا فيه مرة، فإنهم يبنونه الآن حصناً مرة أخرى بعد خمسين عاماً، وان عليهم أن يستفيدوا من هذه «الذكرى» لوضع أعدائهم «العرب» الفلسطينيين في معسكرات إيواء في مناطق من «المستوطنات الفلسطينية». ومن ينظر لخريطة المستوطنات ومشروعات شارون بشأنها يستطيع إدراك حصار الوطن الفلسطيني من كل جوانبه ومن داخله. لقد كان الحديث عن بانتوستانات عربية يعني بعض مميزات البانتوستانات الافريقية!.

مثل الاتصال بالآخر الافريقي، و«الاقتصاد المحلي»، بل ونوع من الاستقلال الذاتي بلغ حد تسميته بعضها بالجمهوريات.. وأتاح ذلك تركيز تهمة الارهاب على عناصر المؤتمر الوطني «بالخارج» وعلى ما يلقونه... من دعم الدول الافريقية المشاغبة أو دوائر «التطرف الديمقراطي» في الغرب لكن اسرائيل تجد الآن في البانتوستان الفلسطيني سلبيات لا تقبلها، وإنما تريد تدمير الفلسطينيين في الداخل وبأيديهم وتحولهم «لمستوطنات» متهمة كلها بالارهاب والعنف والتكاثر غير المرغوب، ومن ثم فترتيبات الأمن - وليس السلام تصبح هي المطلب، وعلى بقية العرب أن يدربوا أنفسهم والفلسطينيين على هذا المفهوم حتى يهدأ «الاقليم» في ظل قواعد «العولمة» التي تتقن اسرائيل وليس العرب لعبتها■■

• مدير مركز البحوث العربية في القاهرة.

الحركة الصهيونية خطر يهدد الأحرار في كل العالم

د. عمار بكداش
عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري

الصهيونية والإمبريالية:

ليس من الصدفة أن يتواقت نشوء الحركة الصهيونية بشكلها المعاصر مع دخول الرأسمالية إلى المرحلة الإمبريالية، أي مرحلة سيطرة الإحتكارات المالية والتوسع الإستعماري بشكله البربري المتوحش. وقد أشار ماركس في اواسط القرن التاسع عشر إلى أن «اليهودي كعنصر رأسمالي موجود قبل نشوء الرأسمالية كنظام، وعند حلول النظام الرأسمالي يحتل اليهودي بحق مكان الصدارة في هذا النظام» إن دراسة تطور النظام الرأسمالي تدلنا كيف احتل اليهود مكان الصدارة الإقتصادية في الدول الرأسمالية الأكثر تطوراً، كانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية، ومن ثم بدؤوا يستولون على المراكز المفتاحية السياسية فيها. ولعل أول الظواهر في تثبيت مواقع ممثلي الرأسمالي اليهودي كان وصول دزرائيلي إلى رئاسة وزراء بريطانيا في عام ١٨٦٨. وما كان بإمكان هذا اليهودي، حديث التنصر أن يصل إلى المركز الأول في أكبر امبراطورية رأسمالية آنذاك والمعروفة بشدة تيارها المحافظ، لولا الإندماج العضوي للرأسمال اليهودي في الرأسمال البريطاني اقتصادياً، واندماج ممثليه في التنظيم السياسي الأساسي المسيطر بشكل مخيف على المجتمعات الرأسمالية، ألا وهي المحافل الماسونية. وبعدها بفترة وجيزة نشاهد الظاهرة نفسها في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث احتلت الإحتكارات المالية المسيطرة عليها من قبل الرأسمال المالي اليهودي مكان الصدارة في الحياة الإقتصادية، وكانعكاس لذلك تبوأ المنتمون للمحافل الماسونية المسيطر عليها من اليهود مواقع النفوذ السياسي.

والصهيونية كما هو معروف، هي الحركة الرجعية العنصرية ذات الطابع الفاشي، والممثلة لصالح الرأسمال المالي اليهودي. لذلك وجهت الصهيونية منذ نشاتها كل جهودها نحو تخريب الحركة الثورية العالمية وضربها وخاصة أحزاب الطبقة العاملة الثورية.

نضال الصهيونية ضد الحركة الثورية العالمية:

مع دخول الرأسمالية للمرحلة الإمبريالية وازدياد نهبها وقمعها الموجهين ضد الكادحين والشعوب المستعمرة، زادت أيضاً ردة فعل هؤلاء ضدها. وفي ظل الإمبريالية تبين إمكانية انتصار الثورة الإشتراكية في أضعف حلقاتها. كما أنه ازدادت جماهيرية وقوة، الأحزاب الإشتراكية، وظهرت أحزاب ثورية من طراز جديد تضع نصب عينها الإزاحة الثورية للأنظمة الرأسمالية، واحلال مجتمعات العدالة الإجتماعية محلها، أي المجتمعات الإشتراكية ومن ثم الشيوعية. وإلى جانب ذلك بدأت الثورات والحركات الوطنية، التحررية تنهض في البلدان المستعمَرة وشبه المستعمَرة مما زاد التهديد على السلطة العالمية للرأسمالية.

وكانت الصهيونية ألد عدو للتيار الثوري العارم المهدد لسيطرتها العالمية. فهي من جهة شجعت كل أعمال القمع ضد الحركة الثورية ومن جهة أخرى مارست النفوذ التخريبي من داخل هذه الحركة الثورية من خلال تأثيرها على اليهود المنضمين إلى الأحزاب والحركات الثورية. ومن المعروف بشكل عام أنه بالنسبة ليهودي الرابطة الملية مع أولاد طائفته هي أقوى الروابط، وهو يخضع باقي ارتباطاته إلى ولائه ليهوديته.

لذلك ليس من المستغرب أن اليهود تولوا مواقع الصدارة في التيارات الإصلاحية الداعية إلى الوئام مع الرأسمالية داخل الأحزاب الإشتراكية. فالأغلبية الساحقة لزعماء المناشفة في حزب العمال الإشتراكي الديمقراطي في روسيا والذين حاربوا التيار الثوري اللينيني بشراسة كانوا من اليهود.

ويكفي أن نذكر اسماً مثل: مارتوف (تسيدرباوم)، وتروتسكي (برونشتاين)، وليبير، ودان..الخ.

وبعد انتصار ثورة أكتوبر الإشتراكية العظمى حارب ممثلو التيار الصهيوني أو المتصهينون الخط الثوري اللينيني بلا هوادة، ولعل ابرز رموزهم هو ليف تروتسكي بذاته إلى جانب زينوفييف (رادوميلسكي ـ ابفلباوم) وكامينيف (روزينفلد) وبوخارين. ولكن في تلك الفترة استطاع التيار الثوري اللينيني أن يُلحِقَ الهزيمة بالتيار الإنتهازي المتصهين. وذلك بفضل صلابة ومبدئية الحرس اللينيني بقيادة الثوري الفذ جوزيف ستالين. هذا الحرس اللينيني البلشفي الذي استطاع أن يلهب حماس وقدرة الجماهير لبناء أول مجتمع للعدالة الإجتماعية عرفته البشرية وإلحاق الهزيمة بكل أعدائه. ومن الدلالة بمكان ما كتبه ديفيد بن غوريون مؤسس اسرائيل الصهيونية أنه عندما سمع نبأ نفي الحكومة السوفييتية لليف تروتسكي إلى خارج أرجاء الإتحاد السوفييتي عرف أنه لايمكن إيجاد اللغة المشتركة مع الحركة الشيوعية العالمية





وحصنها الإتحاد السوفييتي. وبن غوريون صرح لاحقاً بأن الصهيونية والشيوعية كالماء والنار يستحيل جمعهما.

إن الضربة الكبيرة التي وجهها الحزب الشيوعي السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية إلى المحرفين والمتصهينين بشكل خاص سمحت للإتحاد السوفيتي أن يتوصل إلى مرتبة أقوى دول العالم، وأن يلحق الهزيمة بأعتى قوى رجعية بربرية آنذاك ألا وهي ألمانيا الهتلرية.

وكما أشار قائد الحزب الشيوعي السوري الرفيق خالد بكداش في أوج حملة البريسترويكا الصهيونية في اواخر الثمانينات: «إن الصهيونية لاتغفر لستالين هزيمته للتروتسكية كما أن الإمبريالية لاتغفر له هزيمته للهتلرية».

ويجب القول إن الصهيونية عملت جهدها لتقوية وتعزيز مواقع الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية، أي تلك القوى التي تمرر مصالح ونفوذ الرأسمالية إلى داخل الطبقة العاملة ومن المعروف أنه في الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية الرئيسية، أي الأوروبية تحديداً، لايمكن للمرء أن يتبوأ مكان الصدارة إذا لم يكن وثيق الصلة بالصهيونية أو ماسونياً وهو المفهوم نفسه.

إسرائيل بؤرة للرجعية العالمية:

من المعروف أن الهدف الأساسي من وراء إنشاء اسرائيل، والذي تواكب بإحدى أكبر جرائم القرن العشرين وهي تشريد الشعب العربي الفلسطيني من أرضه وبمجازر اكتسبها الصهاينة في خبرة النازيين، كان إنشاء كيان يمرر مصالح الإمبريالية العالمية، والأمريكية خاصة في المنطقة ذات بعد استراتيجي في الصراع بين القوى الإمبريالية والتحررية في العالم.

وإلى جانب ذلك كان لإنشاء الكيان الإسرائيلي هدف لايقل أهمية بالنسبة للإمبريالية العالمية. فمن المعروف أنه بعد انتصار الإشتراكية في الإتحاد السوفييتي، وبعد تكوين المنظومة الإشتراكية عقب انتصار الشعب السوفييتي على ألمانيا الهتلرية أزيلت القاعدة الطبقية للرأسمالية في تلك البلدان. والإمبريالية والصهيونية في صراعهما ضد الأنظمة الإشتراكية أصبحتا تعتمدان على اليهود، بصفتهم الحاملين الأساسيين للروح الرأسمالية في تلك البلدان، ومن أجل ذلك كان لابد من تأسيس كيان لليهود لمنع عملية تماثلهم الطوعي في المجتمعات التي يعيشونها ؤخلق انتماء آخر لهم وهو كيان لم يروه لاهم ولا أجدادهم. إذ أن عملية تماثل واندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها كان سيؤدي إلى فقدان قوى الرأسمالية العالمية لأرضيتها الإجتماعية الأوسع في الدول الإشتراكية. وهذا ما استطاعت الإمبريالية أن تتجاوزه من خلال إنشائها لإسرائيل الصهيونية.

لذلك فإسرائيل الصهيونية، ومنذ نشوئها، ليست فقط عدواً لدوداً للشعوب العربية ولحركة التحرر الوطني العربية، بل وبمقدار لايقل عن ذلك، عدواً غداراً وشرساً للأنظمة الإشتراكية وللحركة الثورية العالمية.

خطة الصهيونية
في تخريب الدول الإشتراكية:

لعل أكثر التصريحات صراحة حول موقف الصهيونية من الإشتراكية العالمية ما جاء في النداء «إلى كل يهود العالم» والذي صدر في برلين في عام ١٩٢٤ عن تجمع اليهود من أصل روسي والذي جاء فيه حرفياً:

«إن تجمع اليهود من (الأصل) الروسي ينطلق من القناعة الثابتة بأن البلاشفة يشكلون الخطر الأعظم على اليهود. وأن النضال بكل القوى والإمكانيات ضد سيطرة الغوغاء على روسيا هو واجبنا أمام الإنسانية والحضارة والوطن والشعب اليهودي. إننا مقتنعون أنه بانتصارنا على هذا الشر العظيم، سنجد بعد ذلك في أنفسنا القوة والعزم على النضال ضد المصاعب المستجدة. إن هدفنا الأساسي هو بث هذه القناعة بين اليهود في كل العالم وتعبئة الرأي العام اليهودي في كل أنحاء العالم من أجل النضال ضد البلشفية» فإذن هذا هو منطلق الصهيونية المعلن بصراحة أمام الأساليب والسبل لتحقيق هذا الهدف فهناك عدة وثائق حولهما. ولكن لنورد ما جاء في تقرير يعقوب بيرمان الصهيوني البولوني المعروف، والذي قرأه أمام الإجتماع السري لمنظمة محبي صهيون الذي عقد في عام ١٩٥٠ يشير بيرمان في تقريره هذا إلى عدة نقاط أساسية:

١- أنه بعد انهيار ألمانيا النازية ازدادت قوة الشيوعية العالمية، والإتحاد السوفيتي خاصة، بعد تكوين الكتلة الشرقية.

٢- التجربة أثبتت أن العائق الأساسي للسيطرة اليهودية على العالم هي الحركة الشيوعية، والتي لايمكن اخضاعها ولذلك فيجب تحطيمها.

٣- من أجل تحطيمها يجب التغلغل في صفوفها.

٤- من الهام جداً السيطرة على وسائل الإعلام.

٥- يجب بذل كل الجهد من أجل تحطيم الإقتصاد الإشتراكي.

٦- من الضار احتلال المركز الأول في الحزب والدولة، لأن ذلك سيفتح العيون على نشاطنا ولكن يجب إحاطة هذا المركز بشبكة من الأعوان والمستشارين من قومنا وأنصارنا.. الخ.

ويختم بيرمان تقريره بأنه فقط بعد القضاء على السلطة الشيوعية بإمكاننا أن نفرض حكم شعب الله المختار على الغويا، (أي على كل شيء غير يهودي حسب التعريف التلمودي).

وفعلاً بدأ الصهاينة العمل التخريبي حسب هذه الخطة. ولكن القيادة السوفييتية آنذاك، وممثلة بيوسف ستالين، كانت منتبهة لهذا الخطر، وخاصة أنها استطاعت أن تحصل على الوثائق الصهيونية العالمية.

وفي بداية الخمسينات جرى اعتقال رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا سلانسكي ومعه ستة من عملاء الصهيونية وجرت محاكمتهم في براغ بتهمة التعاون مع اسرائيل الصهيونية والمراكز الإمبريالية العالمية. كما بوشر بحملة التطهير من العناصر الصهيونية والمتعاملة معها في بولونيا وهنغاريا.

وفي الإتحاد السوفيتي جرى كشف مؤامرة الأطباء اليهود والتي تجسد هدفها الأساسي في

تصفية القيادة السياسية للبلاد. كما انتبهت القيادة السوفييتية إلى مساعي الدوائر الإمبريالية والصهيونية لزرع الروح الكوسموبوليتية (اللاوطنية) بين مواطني الإتحاد السوفييتي، وخاصة بين المثقفين. ومن هنا أتت الحملة الواسعة التي قامت في الإتحاد السوفييتي، وبمبادرة من ستالين، لمكافحة الكوسموبوليتية ولاذكاء الروح الوطنية الحقة، والتي تعني في الوقت نفسه الروح الأممية الصحيحة، فجوهر الحملة ضد الكوسموبوليتية كان مكافحة التغلغل الفكري والإجتماعي والسياسي للصهيونية في نسيج المجتمع الإشتراكي.

الإقتحام بدون سلاح:

إن فشل المحاولات المسلحة لقلب الأنظمة الإشتراكية في ألبانيا عام ١٩٥١ وألمانيا عام ١٩٥٣، والمجر عام ١٩٥٦، جعلت الإمبريالية العالمية تعتمد بالدرجة الأساسية على اسلوب الثورة المضادة الزاحفة، أو الإقتحام بدون سلاح، كما أطلق على هذه التسمية الباحث السوفييتي البيلوروسي بيغون، والذي قتله الصهاينة بعد الثورة المضادة في الإتحاد السوفييتي في عام ١٩٩١.

ومن الجدير ذكره أنه إلى جانب الإعتماد الأساسي على العناصر الصهيونية من أصل يهودي استخدمت المراكز المعادية للإشتراكية أيضاً التنظيمات التي هي غاية في السرية، لتكوين شبكة غير كبيرة العدد ولكن عظيمة التأثير مما أطلق عليه لاحقاً تسمية «عملاء التأثير». وفي ذلك المجال جرى الإعتماد على التنظيمات الماسونية الضيقة. ولم يكن هدف هذه التنظيمات الدعاية الواسعة والكسب الجماهيري بل تجنيد عناصر مؤهلة للتقدم اللاحق في جهاز السلطة الإشتراكية.

ولتثبيت ولاء هذه العناصر كان يجري عادة تزويجهم من يهوديات، وليس من الصدفة أن زوجتي كل من غورباتشوف ويلتسن يهوديتان.

إن ما قوّى مواقع العناصر المعادية للإشتراكية، والصهاينة بالدرجة الأولى، هو التبدلات الكبيرة التي جرت في القيادة السوفييتية بعد وفاة ستالين، وإزاحة الحرس البولشفي المخلص ووصول إنسان للسلطة غير ملائم فطرياً للفكر الإشتراكي ألا وهو نيكيتا خروتشوف. إن خروتشوف في عدائه الشخصي لستالين ونهجه وجد حلفاء له ثابتين وهم العناصر الصهيونية، لذلك لقد ترقى هؤلاء بشكل سريع في عهده وكونوا شبكة من المستشارين والأعوان. ونفس العملية جرت أيضاً في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وفي ألمانيا الديمقراطية، وبشكل متفاوت.

لاشك أن ما ساعد على تقوية مواقع القوى المعادية للإشتراكية، وخصوصاً الصهاينة، أخطاء كبيرة ارتكبت في ادارة المجتمعات الإشتراكية، وفي حياة الأحزاب الماركسية، اللينينية، منذ المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ولكن هذا حالياً ليس مجال بحثنا، وقد بدأ وجهة نظرنا في ذلك في ابحاث أخرى وما يهمنا في هذا البحث هو الدور التخريبي للصهيونية.

المحاولة الجدية الأولى لقلب السلطة الإشتراكية بأسلوب الثورة المضادة الزاحفة أو الإقتحام بدون سلاح جرت في تشيكوسلوفاكيا في الأعوام ١٩٦٧-١٩٦٨. ففي ذلك الحين نصب في مركز السكرتير الأول للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي اليكساندر دوبتشيك، وهو سلوفاكي محاط بحاشية صهيونية يكفي أن نذكر منها: شيك، وسمور كوفسكي، كريوغر وملينارج. وتحت راية تجديد الإشتراكية بدأت عملية نسف اسس المجتمع الإشتراكي من كافة النواحي. جرى التركيز خاصة على الجانب العقائدي والسياسي. وتحت حجة حرية التفكير جرى اضطهاد الشيوعيين المخلصين لمبادئهم، وكل الأوضاع قد هيئت لإعلان سقوط النظام الإشتراكي لولا التدخل في حينه من قبل قوات حلف وارسو، وبالدرجة الأولى الإتحاد السوفييتي.

ومن الملفت للإنتباه أن ملينارج الذي احتل خلال فترة ما سمي بـ «ربيع براغ» لمنصب سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي لشؤون الإيديولوجيا والذي فر بعد فشل الثورة المضادة إلى فيينا حيث عمل في عدة مراكز صهيونية، صرح علناً لجريدة أزفيستيا السوفييتية عام ١٩٩٠ بانه اعتنق سراً الأفكار المعادية للإشتراكية وهو يدرس في كلية الحقوق في موسكو في أوائل الخمسينات. وأنه كان خلال فترة دراسته هذه يسكن في نفس الغرفة مع الطالب ميخائيل غورباتشوف والذي كان يعتنق الأفكار نفسها.

وهذا أحد الأدلة على ما يميز سياسة التخريب الصهيونية - الماسونية. ألا وهو التغلغل بعيد المدى والتخريب بدون كلل، وعلى فترة زمنية طويلة، من أجل الوصول إلى الهدف النهائي. ومن الملفت للنظر أن هذه الشلة تضمنت أسماء عديدة احتلت لاحقاً مراكز حساسة في الإتحاد السوفييتي وبعض الدول الإشتراكية الأخرى، وإلى جانب العمل على تغلغل عملاء التأثير، عملت المراكز الصهيونية والإمبريالية على تشجيع احتلال المناصب الهامة في الدول الإشتراكية من قبل عناصر انتهازية ووصولية لامبدأ عندها سوى مبدأ المكاسب الشخصية، ولاشك أن الآلية البيروقراطية وتحجيم ممارسة الديمقراطية في المجتمع بشكل عام، وفي الأحزاب الحاكمة بشكل خاص، سهل هذه المهمة.

لذلك فبعد فشل المحاولة الإمبريالية الصهيونية لقلب النظام الإشتراكي في تشيكوسلوفاكيا استمر الإقتحام بدون سلاح وحقق نجاحات ملحوظة خاصة في بولونيا وهنغاريا. ففي هذين البلدين أصبحت غالبية المراكز الحساسة في الدولة والحزب بيد العناصر المعادية، وخاصة الصهيونية منها، وكما بدأ يظهر ذلك جلياً منذ الثمانينات.

البرسترويكا الغورباتشوفية.. قمة التآمر الصهيوني:

يجري الزعم بأن النظم القائمة في الإتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية والوسطى انهارت بسبب عيوب ذاتية في الإشتراكية، وأن لادخل للعوامل الغربية عن الإشتراكية في هذا الإنهيار. إذ يقولون بأن النظام المناعي (أو المقاوم) للإتحاد السوفييتي لم يعمل، وهذا دليل على ضعف الإشتراكية. ولكن عندما يموت شاب قوي مفتول العضلات وكامل الصحة إثر طعنة بالخنجر من الظهر لا أحد يزعم بأن سبب موته هو ضعف جسمه ومناعته.

ولاشك أن أحد الأسباب الرئيسية لعودة الرأسمالية إلى بلدان الإتحاد السوفييتي، و(خاصة روسيا) إلى جانب الأسباب الأخرى هو التحول الطفيلي لقيادة الحزب الشيوعي السوفييتي وجزء هام منه وأن السبب الأساسي لتحطيم المنظومة الإشتراكية العالمية ولتفكك الإتحاد السوفييتي يكمن في تشوه الخط السياسي من قبل قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي وانتهازيتها اليمينية. فلم تكن مرحلة البريسترويكا مرحلة الإصلاحات، بل كانت مرحلة القضاء على الدولة السوفييتية، والذي قاد هذا التحول في البداية، ولو ظاهرياً على الأقل، القيادة الإصلاحية لمخائيل غورباتشوف، أي الإنتهازية اليمينية التي تسللت لقيادة الحزب الشيوعي السوفييتي. وكما أثبتت التجربة فإن الإنتهازية اليمينية هي الحليف الأساسي للإمبريالية في نضالها ضد النظم الإشتراكية والأحزاب الشيوعية.

ولاشك أنه حتى أواسط الثمانينات قد تشكلت في الإتحاد السوفياتي مصاعب اقتصادية - اجتماعية لايستهان بها ناجمة عن عدة عوامل ليس سباق التسلح آخرها. وكما تبين التجربة التاريخية فقد كان باستطاعة الإتحاد السوفييتي حل كل المصاعب الإقتصادية، طالما كان الخط السياسي الذي اتبعه يتصف بالثبات الماركسي - اللينيني. ولكن عندما بدأ التغيير الجذري في هذا الخط أصبح مستعصياً أيضاً حل المسائل الإقتصادية - الإجتماعية لمصلحة أكثرية السكان.

يشير رئيس لجنة الأمن في الدوما الروسية الحالية فيكتور ايليوخين انه خلال الحرب



الباردة بلغت نفقات العالم الغربي على هذه الحرب ٤ تريليونات دولار (٤ آلاف مليار دولار) وعلى إنشاء ما يسمى «بحركة المنشقين» و «النقابات الحرة» و «لجان الدفاع عن الحقوق» جرى إنفاق ٨١ مليار دولار أميركي. ومن المعروف أن قيادة ما يسمى بحركة المنشقين كانت كلية في يد العناصر الصهيونية من أمثال اناتولي شرانسكي الذي يشغل حالياً منصب الوزير في حكومة نتنياهو.

وفي بلد شاسع متعدد الجنسيات والديانات، كما كان عليه الإتحاد السوفييتي، كان يعني فقدان الحزب الشيوعي لمواقعه القيادية إنهياراً للدولة بذاتها في حدودها تلك، وبالتالي كارثة اقتصادية وتفككاً للمجتمع بأسره. في بداية الستينات وضع مجلس الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية مشروع القضاء «السلمي» على الإتحاد السوفييتي. وقد ورد في هذا المشروع أنه بدون تحطيم الحزب الشيوعي السوفييتي لايمكن هدم الإتحاد السوفييتي وأن القضاء على الحزب الشيوعي السوفييتي ممكن من خلال التغلغل إلى مراكزه القيادية. واستطاعت الإمبريالية، بمساعدة الصهيونية، أن تنفذ هذه المهمة من خلال تكوين القيادة الغورباتشوفية.

ولعب الصهاينة دوراً بارزاً في هذه القيادة. ومن أكثر الشخصيات ظلامية كان اليكساندر ياكوفليف الذي أنيطت به مهمة الإشراف على الإعلام والسياسة الفكرية في قيادة الحزب والدولة. ففور وصوله إلى هذا المنصب بدأ يسلم تدريجياً المراكز المفتاحية في الإعلام إلى الصهيونية بشكل خاص، وإلى كل العناصر المعادية للإشتراكية بشكل عام. وبذلك تحقق لهم الإستيلاء على الراديو والتلفزيون وكبريات الصحف والمجلات الصادرة في الإتحاد السوفييتي. وبدؤوا بحملة غسيل دماغ لم يشهد لها التاريخ من مثيل.

ومن المعروف أنه من أجل زعزعة أي مجتمع يجب في البداية تخليصه من ذاكرته الوطنية التاريخية وهذا ما جرى خلال البريسترويكا، في البداية بشكل متستر، ولكن سرعان ما أخذت الحملة شكلاً واضحاً بتحطيم أحجار الأساس للتاريخ السوفييتي. فقد جرى الهجوم على المنجزات الإشتراكية وآلية انجازها مثل التصنيع وحملة نشر التعاون في الريف، بل حتى وضعت اشارة الإستفهام حول الطابع العادل للحرب الوطنية العظمى ضد الهتلرية. وأصبحت كل الأساليب مبررة ومتاحة من أجل ضرب معنويات البشر.

وكان التمايز الإجتماعي ـ الثقافي لشعوب الإتحاد السوفييتي يعوض، في مرحلة ما قبل الغورباتشوفية، بالأواصر الإيديولوجية المشتركة، والتي استطاعت بشكل أقل أو أكثر صعوبة، أن تنعكس في ثقافة الشعوب المتنوعة، وكانت الإيديولوجية الموحدة للإتحاد السوفييتي تستند إلى افكار ومثل عظيمة، وهي مثال أسرة الشعوب وفكرة المصير التاريخي المشترك. ولكن ما إن رفع النظام السياسي راية السوق انهارت المنظومة، إذ أن تحطيم الإيديولوجية الرافضة للسوق (اللاسوقية) أدى إلى تفاضل حاد في فكر ونمط حياة الشعوب والأقاليم. ولعب الإقتصاديون والمنظرون الصهاينة دوراً أساسياً في إدخال العناصر المنافية للإشتراكية، بل المدمرة لها، في مجال الحياة الإقتصادية، الإجتماعية للإتحاد السوفييتي. وكانت القوى المضادة للثورة تخفي بمكر صهيوني هدفها الحقيقي، والوسيلة الهامة لتحقيق ذلك كانت استخدام واستغلال الأخطاء والتشوهات التي أصابت الإشتراكية بشكل متفاوت بدءاً من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي في عام ١٩٥٦. وفي البداية لم يتكلم أحد بصراحة حول إعادة الرأسمالية بل جرى الكلام حول تعديل النموذج، وحول اقتصاد السوق الإشتراكي وعن الإشتراكية الديمقراطية. والوسيلة الإيديولوجية الأهم كانت الصراع ضد «الستالينية». والنموذج الإقتصادي القائم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج أطلق عليه اسم النموذج «الستاليني» الذي لابد من تعديله إلى نمط «السوق» من أجل إزالة ما سمي بالتشوهات للتطور الإشتراكي الطبيعي، أو بكلام آخر، إلى إدخال الرأسمالية من الباب العريض تحت شعار غامض ودون محتوى طبقي ألا وهو «اقتصاد السوق».

إن الإتحاد السوفييتي، بالرغم من كل المصاعب التي مرت في تاريخه، بما فيها مراحل قسوة النظام، أمن ذلك النمط من الحياة الذي ضمن الحفاظ على كيان كل شعب وقومية حتى اصغرها. والإتحاد السوفييتي على الرغم من تواضع حجم ثروته الوطنية المدخرة (بالمقارنة مع المراكز الإمبريالية التي راكمت ثروات هائلة بسبب نهبها لشعوب العالم)، كان ينفي عملياً، وليس نظرياً فقط، نشوء لما يمكن تسميته بـ «العالم الثالث» في داخله. فالإتحاد السوفييتي كان دولة وحيدة في العالم ذات الإكتفاء الذاتي من حيث الموارد الطبيعية والبشرية. إن تهديم الإقتصاد السوفييتي المتكامل، حسب وصفات «الخبراء» الصهاينة من أمثال يافلينسكي وأغابنيان أدى إلى كارثة اقتصادية ـ اجتماعية شملت كل شعوبه بدون استثناء. فكل هذه الشعوب فقدت استقلالها الإقتصادي.

ومن الملاحظ أنه خلال عملية الثورة المضادة داخل الإتحاد السوفييتي راهنت الإمبريالية، والصهيونية بالدرجة الأساسية، على التعصب القومي البورجوازي لدى سائر شعوبه وفي الوقت نفسه زرع قيم العدمية القومية (الكوسموبوليتية) لدى الشعب الروسي لكي يرضخ للسيطرة الصهيونية.

روسيا اليوم..
مركز خطير للصهيونية العالمية:

إن روسيا اليوم بلد فيه ٢٠ مليون عاطل عن العمل و ١٥ مليون جائع و ٦ ملايين نازح و ٢ مليون طفل في سن الدراسة خارج المدارس. وعلى كل ألف نسمة هناك ٩ ولادات و ١٥ وفية. ومقابل كل ١٠٠ ولادة هناك ٢١٠ حالة إجهاض. وإن عدد سكان روسيا يتقلص سنوياً بمقدار مليون شخص. إن درجة خراب الصناعة في أواسط التسعينات في أرجاء الإتحاد السوفييتي السابق أعلى مما كانت عليه إثر

الحرب العالمية الثانية؟ فحالياً فقد ٥٠٪ من الثروة القومية، بينما بلغت في عام ١٩٤٥ هذه النسبة ١٨٪ ولا أحد يستمع إلى مطالب المواطن الروسي العادي. وهذا طبيعي في مثل هذا الوضع الذي تكون لغة «رجال الدولة» و«أقطاب الإقتصاد» هي العبرية والإيديش.

وبعد انهيار الإتحاد السوفييتي في عام ١٩٩١ أصبح مركز نفوذ اليهود للصهاينة علنياً، بل حتى ذا عنجهية دون الإلتفات إلى الرأي العام. ففي الإقتصاد هناك سيطرة تامة للمليارديرية السبعة اليهود من أمثال غوسينسكي وبيريزوفسكي وفياخيريف وغيرهم. والذي قاد عملية التحطيم السريع للإقتصاد الروسي بعد انتصار الثورة المضادة في عام ١٩٩١ التي أدت بدورها إلى الإفقار المريع للشعب خلال سنتين، هو الصهيوني يغورغايدار، والذي أدار عملية ما يسمى بخصخصة الإقتصاد، أي عملية ضرب الإنتاج الوطني وإحكام سيطرة الإحتكارات المافوق قومية على روسيا هو الصهيوني أناتولي تشوبايس. وبالرغم من الوجود البارز للصهاينة في رأس كل الكتل والأحزاب البورجوازية في روسيا، فهم إضافة لذلك شكلوا حزباً خاصة «لنخبهم» وهي كتلة «يابلوكو» التي شخصها بحق الوطنيون الروس بأنها ليست حزباً سياسياً بقدر ماهي كتلة سياسية اثنية.

وبشكل عام فإن مفاتيح القرار في روسيا، وكما يشير الوطنيون الروس، ممركزة في يد «عصابة الستة» التي تتحكم بشكل مطلق في حياة البلاد. وهذه العصابة هي عصابة صهيونية مؤلفة من: تشوبايس، باتورين، بيريزفسكي، ليفيشتس، ياسين وبوتانين.

ووصلت درجة احتقار الرأي العام بأنه سلم بيريزوفسكي منصب نائب سكرتير مجلس الامن القومي في روسيا وهو يحمل الجنسيتين الروسية والاسرائيلية، وعندما سئل عن الموضوع قال بكل صراحة: «إن أي يهودي في روسيا يحمل هاتين الجنسيتين، إن كان بشكل رسمي أو فعلي»، وكما نعلم فإنه جرى مؤخراً تعيين بيريزفسكي سكرتيراً تنفيذياً لرابطة الدول المستقلة، والتي تضم اغلبية جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق. على الرغم من الاحتجاجات الواسعة في داخل روسيا ذاتها او من قبل بعض قادة الجمهوريات الوطنيين مثل اليكساندر لوكاشينكو، رئيس بيلاروسيا.

أما اناتولي تشوبايس الحائز، وبجدارة، على إجماع كره الشعب الروسي، مع ذلك بعدما صفى قطاع الدولة ونقل ملكيته إلى أيدي الإحتكارات الدولية والمافيات الصهيونية أنيط به منصب مسؤول عن الطاقة الكهربائية التي مازالت في يد الدولة، لكي يقوم بالدور نفسه ويقضي نهائياً على الانتاج الوطني في روسيا. فليس من الهام هل يرضى الشعب بتشوبايس بل المهم انه مرضى عليه تماماً من قبل الطغمة الصهيونية.

وكانت قمة المهزلة - المأساة في تعيين كيريينكو - رئيساً للوزراء والذي لا يتميز بشيء ماعدا أن كنيته الأصلية هي«اسرائيلوفيتش». فعلاً اسم على مسمى. فمن الظاهر انه يجب أن يحول روسيا نهائياً وبشكل صريح لما يطابق كنيته الأصلية.

لقد أصبحت موسكو حالياً إحدى أكبر ثلاثة مراكز للصهيونية العالمية إلى جانب تل أبيب ونيويورك. ولذلك فالنضال ضد الصهيونية لا ينحصر في فلسطين بل له سمعة عالمية.

الصهيونية العدو الشرس للحركة الثورية العالمية: في بداية التسعينات عاشت الحركة الشيوعية والعمالية حالة كان فيها اكثر من سبعين حزباً منقسماً على نفسه. وقد لعبت الصهيونية العالمية، بشكل مباشر أو غير مباشر، دوراً أساسياً في هذه العملية. وخاصة ان القسم الدولي للحزب الشيوعي السوفييتي كان يقاد من قبل عناصر متصهينة من امثال بوريس بونوماريوف (اسمه الاصلي باروخ كمانتوروفيتش) وأعوانه، والذين مارسوا تأثيراً هداماً علىكثير من الاحزاب الشيوعية والثورية في العالم. وفي أوج البريسترويكا نجد العديد من الأحزاب في العالم تخلت نهائياً عن المواقف الثورية وتحولت إلى أحزاب وحركات غير مؤذية تنادي «بالقضايا الانسانية الشاملة» وكأنه في العالم يوجد شيء يمكن أن يوحد الناهب والمنهوب.

وحالياً لم تتخل الامبريالية والصهيونية العالمية عن سعيها إلى شل الحركة الثورية العالمية، بل إنها ازدادت خبثاً ودهاءً في عملها هذا. وهي في المرحلة الحالية لا تسعى إلى تصفية الأحزاب الثورية شكلاً بل إلى تفريغها من محتواها الثوري. فالإمبرياليون والصهاينة يدركون تماماً أنه في حال تصفية الكيان الشكلي للأحزاب فلابد أنه سيخلق بديل آخر، لأن وجود الأحزاب الثورية يمليه واقع الصراع المحتدم بين قوى الحرية وقوى الظلام في العالم. لذلك فإن افضل وسيلة بالنسبة للامبرياليين والصهاينة هو الابقاء على شكل وكيان الحزب الثوري، وفي الوقت نفسه افراغه من محتواه وتقزيمه، وفي قضية شراء الذمم بدأت تستخدم بشكل واسع نشاطات ما يسمى بالمنظمات غير الحكومية (NGO) سواء أكانت العالمية منها أو المتمركزة في البلدان الامبريالية. فهذه المنظمات تحديد المعونة، وخاصة المادية منها بسخاء لكل حزب ومنظمة أو قيادي يسعى إلى تحويل اتجاه الصراع من النضال ضد الامبريالية والصهيونية أي النضال ضد جوهر النظام الامبريالي العالمي إلى نضال من أجل بعض القضايا الظاهرية، وإن كانت ناتجة عن جوهر هذا النظام.

تجري المحاولات الحثيثة من قبل الاوساط الامبريالية والصهيونية إلى تحويل الأحزاب الثورية إلى مؤسسات تدار على شكل شركات مساهمة من قبل المساهمين الكبار، لا تجمع بينهم المبادىء السامية في الحرية والعدالة الاجتماعية بل مصالح ذاتية كثيراً ما تكون مادية بحتة لهؤلاء المساهمين الكبار. ولكي تدار تلك الشركات - الأحزاب بنجاح يسعى المساهمون الكبار إلى تقزيمها، فلا ضرورة للعمال وللفلاحين ولا للجماهير الواسعة بشكل عام. فبالنسبة لهم يكفي، لتحقيق مآربهم، وجود تمويل غامض المنشأ وكادر ضيق من الموظفين يطلق عليهم مجازاً اسم الكادر الحزبي. وفي نهاية المطاف فإن مثل هذا التنظيم يلائم القوى المعادية، فهو ككلب الكانيش(كلاب الصالونات) تعوي ولكن لا تعض.

وبرأينا ان المقولة التي طرحت في بداية القرن العشرين بأن النضال ضد الامبريالية يمر ويتضافر مع نضال لا هوادة فيه ضد الانتهازية لم تشخ بل هي آنية أكثر من أي وقت كان. فاحتدام الصراع ضد الامبريالية والصهيونية يقتضي تشديد النضال ضد ممرري سياستهم داخل الحركة الثورية مهما كانت نياتهم.

لقد أشار لينين في بداية القرن العشرين إلى أن هناك أمماً يمكن اطلاق اسم الأمم الامبريالية عليها، اذ جزء كبير من مواطنيها لهم مصلحة ولو متفاوتة في اضطهاد الشعوب الاخرى. وحالياً، وبعد التجربة المريرة التي مرت فيها الحركة الشيوعية والثورية العالمية والانظمة الاشتراكية، يمكن القول إن هناك قومية رجعية أو ملة رجعية أو طائفة رجعية كما يحلو التشخيص أو التسمية ألا وهي اليهودية. وهذا لا يعني أبداً أنه لا يوجد بين اليهود أناس معادون للامبريالية وساعون إلى التقدم الاجتماعي، ولكن، كما في منتصف القرن العشرين، ارتبط اسم الشعب الألماني بالنازية والهتلرية على رغم وجود أشخاص من أمثال ارنست تيلمان وهنريش مان وبرتولد بريخت وآنا زيغرس، فحالياً يرتبط اسم اليهود بالصهيونية على الرغم من وجود أشخاص أمثال مايبرفلز ونغوم شومسكي واسرائيل شاحاك.

ان كل التجربة القريبة تدل على أن النضال ضد الصهيونية واجب ليس أمام الوطنيين العرب فقط بل هو واجب أمام كل الاحرار في العالم في نضالهم من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية ■■

بيضة الأفعى الانجليزية

نصر شمالي

خلافاً لما هو شائع، فإن الإشارة الأولى المحددة إلى إقامة كيان صهيوني يهودي على الأرض العربية في فلسطين المحتلة لم تكن تلك التي صدرت عن نابليون بونابرت عام ١٧٩٩، وإنما هي تلك التي صدرت عن لندن عام ١٦٤٩، أي أن بين الإشارتين الواضحتين فترة زمنية طويلة، هي قرن ونصف بالضبط، قطعت خلالها الصهيونية الانجليزية غير اليهودية شوطاً لابأس به على طريق التحضير لقيام الكيان الصهيوني في فلسطين العربية عندما يؤون الأوان.



ففي عام ١٦٤٩، كانت انجلترا «نظيفة من اليهود تماماً» حسب التعبير الأوروبي. لم يكن يوجد فيها ولا يهودي واحد، حيث الملك ادوارد الأول طهرها من اليهود تماماً وحرّم عليهم العودة إليها والإقامة فيها منذ القرن الثالث عشر، أي قبل مئات الأعوام، وبالرغم من ذلك، بالرغم من عدم وجود يهودي واحد في انجلترا عام ١٦٤٩، أي قبل ثلاثة قرون من ظهور الكيان الصهيوني في فلسطين، ظهرت في انجلترا حركة صهيونية غير يهودية، مكتملة وناشطة، تدعو لعودة اليهود إلى فلسطين، وفي عام ١٦٤٩ ذاك تقدمت الحركة إلى الحكومة الجمهورية الانجليزية، حكومة أوليفر كرومويل، بإعلان تضمن مايلي:

«إن أمة انجلترا وسكان هولندا سيكونون أول الناس وأكثرهم استعداداً لنقل أبناء وبنات اسرائيل على سفنهم إلى الأرض التي وعد بها أجدادهم ابراهيم واسحاق ويعقوب، لتكون ميراثاً لهم إلى الأبد»!

إن الأمر يبدو للوهلة الأولى عصياً على الفهم، حيث انجلترا البيوريتانية، الثورية، الجمهورية، التي تنهكها الحرب الأهلية، ويخنقها الحصار الأوروبي، تضع في ذلك الوقت المبكر بيضتها الصهيونية، وتغمرها بالدفء والرعاية، وتنذرها للاستيطان في فلسطين ولو بعد قرون!

غير أن هذا الأمر يصبح مفهوماً تماماً حين نضعه في سياقه التاريخي، بعد أن نلقي نظرة متأنية، وإن سريعة، على الوضع الدولي، ثم الأوروبي، ثم الانجليزي تحديداً.

* * *

كان العالم عموماً، ابتداء من عام ١٤٩٢، قد دخل في عملية تغيير عميقة وشاملة. ففي ذلك العام سقطت غرناطة، واكتشفت أمريكا، وبدأت عملية الالتفاف الأوروبية الكبرى حول افريقيا والوطن العربي، فوصلت رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧، وتمركزت في الخليج العربي، في هرمز تحديداً عام ١٥٠٧، هادفة إلى محاصرة المنطقة العربية، حيث العواصم العالمية آنذاك، وقطع صلتها بعمقها الآسيوي الافريقي، ومن ثم المضي قدماً لوضع اليد على مجمل حوض المحيط الهندي، واستبدال العواصم العالمية العربية الاسلامية بعواصم جديدة أوروبية. ولقد خطب خليفة فاسكودوغاما في قيادة الأسطول البرتغالي أمام جنوده قائلاً:

ـ هذه الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد، وبإطفائنا شعلة أمة محمد، بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب، وإني لعلى يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك!

لقد قيل هذا الكلام قبل غزو الملايو. وبعد الغزو شنت حملة إبادة عرقية ضد العرب هناك، وبيع الذين نجوا من الإبادة في أسواق النخاسة كعبيد.

وبينما كانت عملية محاصرة العرب وعزلهم تماماً، وإلغاء الدور العالمي لعواصمهم، قائمة على قدم وساق، كانت عملية اجتياح القارة الأمريكية، واستيطانها بعد إبادة سكانها، ماضية في طريقها أيضاً. كانت عملية الانتقال العالمية الهائلة، من عصر إلى عصر، تتحقق بثبات، إنما بصعوبة وببطء. وكانت كل واحدة من العواصم الأوروبية تتطلع إلى احتلال المركز الأول في النظام العالمي الجديد، الأمر الذي ترتب عليه صراعات أوروبية ـ أوروبية ضارية، سواء في أوروبا بالذات أم في البحار والمحيطات، أم في القارات الأخرى بعيدها وقريبها. فقد انطلق عصر الابادة والاستيطان، والتمييز والاحتكار،

الذي مازالت البشرية تعاني من ويلاته حتى يومنا هذا.

في شهر حزيران / يونيو من عام ١٦٣٠، اقتربت السفينة الانجليزية آربيلا من ميناء ساليم في ولاية ماساشوسيتس الأمريكية المعاصرة وعلى متنها حمولة من الانجليز البيوريتانيين أبرزهم المحامي جون وينثروب، الذي أصبح فيما بعد واعظاً وزعيماً وأول حاكم لمستوطنة ماساشوسيتس. وقبل أن تدخل السفينة إلى الميناء بقليل شرح وينثروب لرعيته حلمه، فقال إن المقصود من عملية الاستيطان هو خلق نموذج من المحبة المسيحية، وتجسيد ميثاق بين الله والبشر، وانشاء مجتمع انجيلي من العدالة والرحمة. مدينة على تلة حيث ستسمو شريعة الله، وعلاقات صافية من الانسجام والاخوة!

ترى، ألم تكن فكرة الاعلان الانجليزي حول استيطان فلسطين، الذي قدّم للحكومة عام ١٦٤٩ مستوحاة من النجاح الساحق لعمليات الابادة والاستيطان في القارة الأمريكية؟ أما لماذا اليهود تحديداً في فلسطين، فإن السبب يعود إلى المناعة الصلدة التي أبدتها آسيا العربية ضد الغزوات الأوروبية، سواء في الاجتياحات الصليبية التي انطلقت في مطلع الألف الثانية للميلاد، أم في الاجتياحات البرتغالية الأولى عبر الخليج العربي في مطلع النصف الثاني من الألف الثانية.

لقد كان الوضع في انجلترا، في العهد الجمهوري، عهد أوليفر كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) مواتياً تماماً لظهور ونمو فكرة الكيان الصهيوني الاستيطاني في فلسطين العربية بالرغم من عدم وجود يهود على الاطلاق في انجلترا. لقد كان مواتياً تماماً لاحتضان ورعاية بيضة الأفعى الصهيونية الانجليزية. فالمذهب البيوريتاني الذي اعتنقته ثورة كرومويل بتعصب مفرط كان يعني اعتناق التقاليد العبرانية كما وردت في العهد القديم. وقد وصف وليام كنجهام المجتمع البيوريتاني الإنجليزي على النحو التالي:

«الإتجاه العام الذي سارت فيه البيوريتانية رمى إلى التخلي عن الأخلاق المسيحية وإلى إحلال العادات اليهودية مكانها. وكان البيوريتانيون يلتزمون حرفياً بتشريع عتيق بدلاً من الركون إلى الوعي المسيحي، مما أدى إلى الإرتداد نحو نمط أدنى من الأخلاقيات الإجتماعية، تجلى في انجلترا وفي غيرها من الدول».

إن «يهوه» الإله القبلي، العنصري القاسي، الذي يأمر باعتبار الشعوب الأخرى أجناساً أدنى ويسمح بإبادتها عن طيب خاطر. هذا «الإله» الوثني الملفق، الذي اخترعه قوم من شذاذ الآفاق، لا علاقة لهم إطلاقاً بابراهيم واسحاق ويعقوب، ولا بالثورة الموسوية المصرية الخالدة، هذا «الإله» بدا مواتياً تماماً لتطلعات الإنجليز وغير الإنجليز في أوروبا، فاسترد مكانته واعتباره مع بدايات نهوض العصر الأوروبي الإحتكاري. وبناء على ذلك قدّر لمفهوم العنصر اليهودي المختار، أن يلعب دوراً خاصاً في الفكر والفهم والأداء الإنجليزي البيوريتاني، الذي سرعان ما أخذ بعداً عالمياً واسعاً جداً، فصار استيطان أميركا بعد إبادة أهلها عملاً مقدساً ومشروعاً، كما سمعنا وينثروب يتحدث وهو في سفينته على شواطئ أميركا الشمالية، وكذلك الأمر بالنسبة لإستيطان فلسطين بعد إبادة أهلها، حيث إن لم يتحقق ذلك بالإنجليز مباشرة، فباليهود الذين وعدهم «يهوه» بها (كأنما هو تاجر عقارات).

في انجلترا القرن السابع عشر، وبعد أن اصبح واضحاً ومحسوماً أن استيطان فلسطين بواسطة الإنجليز مستبعداً تماماً، صار ينظر إليها على أنها وطن اليهود الذي لابد من عودتهم إليه طبقاً للنبوءات الواردة في العهد القديم، وكشرط للمجيء الثاني للمسيح، علماً أن اليهود - بالفعل - ما كانوا يفكرون بالأمر بهذه الطريقة الساذجة الفظة، وإنما كانوا ينظرون إلى فلسطين نظرة إيمانية، ميتافيزيقية، لايخطر ببال عاقل تجسيدها وتحقيقها فيزيائياً وعقارياً، فكان على البيوريتانيين الإنجليز إحضارهم إلى انجلترا أولاً، ومن ثم اقناعهم، بالشدّة وباللين، بوجهة النظر الإنجليزية.

والغريب أن تلك الأسباب التي تبدو ساذجة، التي وضعها الإنجليز كأساس لإستيطان اليهود في فلسطين، وهي مضحكة ومرعبة في آن معاً، كانت كافية كي يسمح كرومويل بعودة اليهود إلى انجلترا طالما أنه لايستطيع إعلان اسبابه الحقيقية التي تليق برجل دولة ثوري في مستواه، والتي ظلت في صلب اهتمامات الحكومة الإنجليزية المتعاقبة منذ عهده، حيث استيطان فلسطين بواسطة اليهود ينطلق من الإعتبارات التجارية والعسكرية والإمبريالية الإنجليزية. غير أنه ما كان ممكناً سوى تغطيتها بالدين.

لقد كانت طبقة التجار ورجال الأعمال، وكلها تقريباً من البيوريتانيين، تنشط نشاطاً محموماً محوره المنفعة الخاصة والأنانية الوحشية، تنهشها الغيرة الشديدة من الهولنديين الذين وصلوا إلى طرق التجارة الدولية البعيدة فيما سمي بالشرق الأدنى والأقصى، وكذلك من الأوروبيين الآخرين الذين حققوا النتائج ذاتها. وكان معروفاً تماماً في تلك الحقبة أن لليهود الذين استوطنوا هولندا نشاطاً مكثفاً في ميدان توسيع نطاق التجارة الهولندية. وعندما وافق كرومويل على السماح لليهود بالعودة إلى انجلترا كان منهمكاً في سلسلة من الحروب التجارية «القرصنية» ضد البرتغال، ثم هولندا، وأخيراً اسبانيا. وكان معروفاً تماماً كذلك أن في كل دولة من تلك الدول جالية يهودية كبيرة ثرية وماهرة، ولها صلات مع الدول الأجنبية القريبة والبعيدة. وهكذا رأى كرومويل أن بإمكانه الإستفادة من اليهود في مغامراته العدوانية الآسيوية والأفريقية، وكجواسيس واستخبارات بفضل شبكة علاقاتهم الممتدة عبر اوروبا، والتي يمكن أن تزوده بالمعلومات عن السياسات «التجارية» لخصومه الأوروبيين، وأيضاً عن المؤامرات التي تدبرها الأنظمة الملكية الأوروبية ضد جمهوريته الإنجليزية.

لقد بدأ اليهود بالعودة فعلاً إلى انجلـ[illegible] وعندما حلّ القرن التاسع عشر كانت بـ[illegible] الأفعى قد نضجت، ولكن ليس تماماً. بل [illegible] معارضة أوساط يهودية مهمة ومؤثرة اسـ[illegible] إلى ما بعد صدور وعد بلفور، وأخذت على عـ[illegible] فعلاً، وبقوة، إفشال ذلك الوعد، واحباط مشـ[illegible] استيطان فلسطين بواسطة اليهود، ولكن لـ[illegible] استعمار فلسطين بواسطة القوات الإنجليزيـ[illegible]

أما وجهة النظر الإنجليزية فقد صـ[illegible] تعرض علناً وبقدر لابأس به من الوضوح، حـ[illegible] أكد الدبلوماسي الإنجليزي جيمس نيل، [illegible] ١٨٧٧، مايلي:

«إن احتمال أن يتمكن الإنجليز من استيطان فلسطين بالنجاح نفسه الذي استوطنوا به في أميركا الشمالية بعيد جداً، بسبب حرارة الجو، والصعوبات التي يقيمها العرب، والإفتقاد إلى حماية فعالة، وكثير غير ذلك».

ثم اقترح جيمس نيل، مرة أخرى وأخرى، استخدام اليهود لتحقيق هذا الغرض بدلاً من الإنجليز. ثم ظهر اللورد شافتسبري (١٨٠١-١٨٨٥) الذي احتل مكاناً رئيسياً في تاريخ الصهيونية الإنجليزية غير اليهودية، والذي كان يراوده طوال الوقت حلم إقامة دولة يهودية في فلسطين. ولكن شافتسبري كان يعارض، في الوقت نفسه، التحرير المدني لليهود بحجة أن السماح لليهود بعضوية البرلمان دون حلف اليمين على «العقيدة المسيحية الحقة»، يعدّ انتهاكاً للمبادئ الدينية. وظل نشاطه متركزاً على «إعادة هذه الأمة إلى فلسطين».

وإنه لواضح أن معارضته للتحرير المدني تعود إلى هذا السبب، فقد كانت الصهيونية غير اليهودية، التي احتضنت بيضة الأفعى الصهيونية اليهودية، تسعى على الدوام للإحتفاظ باليهود جاهزين للإستخدام ضد العرب ولمصلحتها في اللحظة التاريخية المواتية، ولم تكن لتسمح أبداً بذوبانهم في المجتمعات الأوروبية. ولذلك أخذ اللورد شافتسبري على عاتقه إقناع إخوانه المسيحيين بأن اليهود، وإن كانوا بلا شك يتسمون بالعناد، وسواد القلب، والإنغماس في الإنحطاط الأخلاقي، والجهل بالكتاب المقدس (حسب رأي اللورد طبعاً) فإنهم لايستحقون الخلاص فحسب، بل إنهم يمثلون شيئاً حيوياً بالنسبة لأمل

المسيحيين بالخلاص! أما ما هو أمل «المسيحيين» بالخلاص، فكان على ما يبدو نهوض الإمبراطورية البريطانية على أنقاض وجثث الأمم الأخرى.

كان اللورد شافتسبري يدعو لفكرة عودة اليهود إلى فلسطين في الوقت الملائم سياسياً. ولقد نجحت التعبئة الطويلة، المركزة، في جعل استيطان اليهود لفلسطين أمراً مفروغاً منه، وأمنية سياسية على صعيد انجلترا كلها، وبدأ منذ ذلك الوقت ما وصفه ديفيد بولك بالإتحاد الغريب بين سياسة الإمبراطورية وبين نوع من الصهيونية المسيحية الأبوية، التي اتضحت في السياسة البريطانية عبر الأجيال اللاحقة، ثم في السياسة الأميركية التي هي استطالة واستمرار للسياسة البريطانية.

إن الإنجلوسكسون، البيوريتانيين، في لندن ثم في واشنطن، احتلوا موقع القيادة الأول في العالم منذ مطلع القرن السابع عشر، وبعد هزيمة الأرمادا، الأسطول الإسباني. وهم من واصل رعاية فكرة الكيان الصهيوني ثم تنفيذها ودعمها حتى يومنا هذا باعتبارها مشروعاً يخصهم وحدهم بالدرجة الأولى.

غير أن الأوروبيين الآخرين، من الأقوام والمذاهب الأخرى، ما كانوا ليترددوا ـ بالطبع ـ في محاولة تحقيق المشروع ذاته لصالحهم لو استطاعوا ذلك. وهكذا رأينا محاولة فرنسا، سواء في عهد بونابرت أم في عهد غيره، ورأينا نوايا ألمانيا، سواء في عهد هتلر أم في عهد غيره. ولو أن هتلر انتصر في الحرب الثانية إذن لكان أقام الكيان الصهيوني في فلسطين لصالحه، إنما بواسطة حيروت والليكود، وجابوتنسكي وبيغن، وأمثالهم منذ البداية.

إذن، فقد واظب الإنجلو سكسون، في لندن ثم في واشنطن على رعاية بيضة الأفعى واحتضانها بجدارة تقديراً منهم لأهميتها في استراتيجيتهم العالمية. ففي عام ١٨٤٥ دعا الإنجليز ميتفورد إلى مايلي:

«إعادة توطين الأمة اليهودية في فلسطين كدولة تتمتع بالحماية تحت وصاية بريطانيا العظمى، فإقامة دولة يهودية في فلسطين ستضع إدارة مواصلاتنا البحرية في أيدينا بالكامل، وستوفر لنا في المشرق مركز سيطرة نستطيع أن نوقف منه عمليات التعدّي، وأن نردع الأعداء السافرين ونصدّ تقدمهم عند الضرورة».

أما الكولونيل جورج جولر، الخبير بشؤون الإستيطان بصفته حاكماً سابقاً في استراليا فقد كان يقول:

«إن بإمكان دولة أجنبية تعريض التجارة البريطانية للخطر بسرعة، ولذلك ينبغي أن تعمل بريطانيا على تجديد سورية بواسطة الشعب الوحيد الذي يمكن توظيف طاقاته بصورة دائمة وعلى نطاق واسع: ابناء الأرض الحقيقيون.. أبناء اسرائيل».

وإنه لمن الواضح مغزى استخدام اسم سورية بدلاً من فلسطين، وكذلك مغزى تكرار الإشارة إلى عمليات التعدّي المحتملة، والتجارة البريطانية التي يمكن أن تتعرض للخطر. إن مثل هذه التعابير تتردد اليوم على ألسنة الأميركيين كأعذار وكمبررات.

وكان تشارلز هنري تشرشل ينتقد سياسة بالمرستون (١٧٨٤-١٨٦٥) ومحاولاته إبقاء الدولة العثمانية على قيد الحياة بسبب الخوف من فرنسا وروسيا. وكان تشرشل هذا يدعو بدوره إلى «التحرير المبكر» لسورية وفلسطين، ووصفهما تحت الحماية البريطانية، على أن يقوم اليهود بدور المستوطنين الحماة للمصالح البريطانية في «الشرق الأدنى».

في القرن العشرين، حدّد ونستون تشرشل، ذلك الصهيوني المتوحش، في مذكراته، سلفاً وبوضوح كبير، ليس الطبيعة المرجوة امبريالياً للكيان الصهيوني فحسب، وإنما أيضاً حجم سكانه، ومساحة الأراضي التي يجب أن يستولي عليها، فقال:

«إذا أتيح لنا في حياتنا ـ وهو ما سيقع حتماً ـ أن نشهد مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها بل على ضفتي نهر الأردن معاً، دولة تقوم تحت حماية التاج البريطاني، وتضم نحو ثلاثة ملايين، أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد بذلك وقوع حادث يتفق تمام الإتفاق مع المطامح الحيوية للإمبراطورية البريطانية».

ولكن، ما هي الأبعاد الحقيقية، على الصعيد العربي لما كتبه تشرشل في مذكراته؟ لسوف نجد الجواب إذا ما رجعنا إلى عام ١٩٠٧، حيث كان كامبل بنرمان، زعيم حزب الأحرار ورئيس الحكومة البريطانية، شكل لجنة ضخمة متعددة الإختصاصات، كلفها بزيارة المنطقة العربية وإعداد تقرير ميداني، عرف فيما بعد باسم «تقرير لجنة بنرمان» وقد جاء التقرير في ثلاثة أقسام تقريباً:

القسم الأول، يصف الوطن العربي الكبير، وموقعه والأمة التي تقطنه، ويصور الحالة الراهنة كما هي بموضوعية تصويراً يكاد يكون فوتوغرافياً، فيوضح أن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للإستعمار وللمصالح الإستعمارية الآنية والمقبلة، وأنه لابد من أجل نجاح أي خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية «لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكم بالعالم أجمع». أما المنطقة فهي الوطن العربي الممتد ـ حسب التقرير البريطاني ـ على الساحل الجنوبي للمتوسط من الرباط إلى غزة، وعلى الساحل الشرقي حتى مرسين واضنة، وعلى الجسر البري الضيق الذي يصل آسيا بافريقيا، والذي تمر فيه قناة السويس شريان حياة أوروبا، وعلى جانبي البحر الأحمر، وعلى طول ساحلي المحيط الهندي وبحر العرب حتى خليج البصرة، حيث الطريق إلى الهند، هكذا يرسم التقرير الإنجليزي حدود الوطن العربي، ثم يقول بالحرف الواحد:

«إن في هذه المنطقة الحساسة أمة واحدة تتوفر لها من وحدة تاريخها ودينها، ووحدة لسانها وآمالها، كل مقومات التجمع والترابط والإتحاد، وتتوفر في نزعاتها التحررية وفي ثرواتها الطبيعية وفي كثرة تناسلها كل أسباب القوة والتحرر والنهوض».

وفي القسم الثاني يعرض التقرير الإنجليزي معنى أن تكون الأمة العربية موحدة على ارضها الموحدة، بعد أن يشرح أن ذلك ممكن، فيتساءل:

«كيف يكون وضع المنطقة (العربية) إذا توحّدت فعلاً آمال وأهداف أمتها، وإذا اتجهت هذه الرقعة كلها في اتجاه واحد؟ وماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة، وانجازات الثورة الصناعية الأوروبية إلى هذه المنطقة؟ وماذا لو انتشر التعليم في أوساط هذه الأمة؟ وما الذي سوف يحدث إذا ما تحررت هذه المنطقة وتمكنت من استغلال ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها؟ إن منبع الخطر على كيان الإمبراطوريات الإستعمارية كامن في هذه المنطقة، في تحررها، وفي توحيد اتجاهات سكانها. وفي تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد».

وفي القسم الثالث من التقرير الإنجليزي هذه الدعوة الصريحة للدول الإستعمارية ذات المصالح المشتركة:

«العمل على استمرار وضع المنطقة (العربية) المجزأ المتخلف كما هو، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل وتأخر، وعلى محاربة اتحاد جماهير المنطقة، ومنع ترابطها بأي نوع من الترابط الفكري أو الروحي او التاريخي، وعلى إيجاد الوسائل العملية القوية لفصلها عن بعضها ما أمكن».

ثم يقدم التقرير الإنجليزي بعض المقترحات العملية المستعجلة لدرء الخطر العربي عن الإستعمار العالمي، فيوصي بضرورة مايلي:

«العمل على فصل الجزء الأفريقي من الوطن العربي عن الجزء الأسيوي، بإقامة حاجز بشري، قوي وغريب، على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا، بحيث يشكل (الحاجز) قوة صديقة للإستعمار وعدوّة لسكان المنطقة».

وهكذا تتضح لنا تماماً معاني عملية احتضان ورعاية بيضة الأفعى الإنجليزية منذ ذلك الوقت المبكر، بحجمها الطبيعي دون استخفاف أو مبالغة، وفي نطاق الإستراتيجية الإستعمارية العالمية، التي تتصدر واشنطن اليوم قيادتها وتنفيذها. فإذا ما رأينا الصورة بوضوح كاف يجعلها أقرب إلى الصحة، واستخلصنا الدروس والعبر والإستنتاجات الأقرب إلى الصحة ايضاً، فإن انتصار أمتنا يغدو مسألة وقت لا أكثر ولا أقل ■■

• باحث وكاتب سوري

كوفي أنان وبراءة الذمة من القرار ٣٣٧٩

اعتذار لاسرائيل وشهادة حسن سلوك

عبد الحسين شعبان*



بعد النجاح الذي أحرزه كوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة في حل بعض أطراف العقدة العراقية ـ الأمريكية، التي عرفت بأزمة المفتشين الدوليين والقصور الرئاسية، سارع لتقديم اعتذار صريح وواضح إلى اسرائيل بسبب قرار الجمعية العامة ٣٣٧٩ الصادر في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥، والذي أدان الصهيونية باعتبارها «شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري».

واللافت أن الأمين العام للأمم المتحدة لم يقدم الاعتذار بتفويض من الجمعية العامة، رغم أن مواقفه الشخصية وتقييماته الذاتية تتداخل أحياناً مع مهماته الوظيفية، التي يمليها مقامه الدولي الرفيع. والغريب أن كوفي أنان قدّم تفسيره الخاص للقرار ٣٣٧٩ باعتباره «معادياً للسامية» وهو ما لم يكن من منطوق القرار أو من حيثياته يوم صدر ويوم ألغي بسبب اختلال موازين القوى داخل المنظمة الدولية في ١٩٩١/١٢/١٦.

ورغم المسرحية الغاضبة التي حاول الكنيست تمثيلها خلال زيارة أنان إلى اسرائيل، إلا أنها في الواقع كانت تخفي سعادة غامرة لاسرائيل التي حاول أنان تطمينها بسبب دوره في نزع فتيل الأزمة العراقية ـ الأمريكية. ذلك الدور الذي قوبل بالامتعاض الاسرائيلي، هذا من جهة ومن الجهة الأخرى وكمقدمة لدوره على صعيد المسار الاسرائيلي ـ الفلسطيني، قدم اعتذاره، ليؤكد على صيغة أوسلو باعتبارها الخيار لحل المشكلة الشائكة بين الفلسطينيين والاسرائيليين، مع أنه أورد ذكر القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ الصادرين عن مجلس الأمن.

ويحق التساؤل هل كان تقديم الاعتذار براءة ذمة من «ذنب لم يرتكبه، فيوم صدور القرار قبل ٢٣ عاماً، لم يكن أنان سوى موظف بسيط في الأمم المتحدة، أم أراد به أن يكون «شهادة حسن سلوك» تمنحها اسرائيل بخصوص موضوع ظلّ مصدر قلق مستديم لها، ونعني به القرار ٣٣٧٩»؟!.

ما الذي يمثله هذا القرار بالنسبة لاسرائيل ولماذا الاعتذار في الوقت الذي تم إلغاء القرار قبل ما يزيد عن ست سنوات؟

يوم صوتت الجمعية العامة لصالح القرار ٣٣٧٩ الذي دمغ الصهيونية بالعنصرية وقف إلى جانبه ٧٣ دولة وصوت ضده ٣٥ دولة وامتنع عن التصويت ٣٢ دولة.

وبعد ١٦ عاماً صوتت الجمعية العامة على مشروع قرار يدعو لابطال مفعول القرار ٣٣٧٩ في سابقة دولية خطيرة. وصوّت لصالح قرار الالغاء ١١١ دولة في حين عارضته ٢٥ دولة وامتنعت عن التصويت ١٣ دولة وتغيب عن الحضور ١٧ دولة بينها بعض الدول العربية، وامتنعت الصين الشعبية عن التصويت، وهكذا أسدل الستار على واحد من أكثر قرارات الأمم المتحدة مدعاة للجدل والصراع على مدى تاريخ الأمم المتحدة.

يوم صدر القرار فقد هيرتسرغ ممثل اسرائيل الأسبق في الأمم المتحدة صوابه وبطريقة غير بروتوكولية وخالية من اللباقة

...دبلوماسية، مزّق القرار في المحفل الدولي. ...وصل هيرتسوغ إلى سدّة الرئاسة في ... اسرائيل، عاهد نفسه على ان لا تنقضي مدة ولايته (١٩٩٠) إلا ويكون القرار قد قضى نحبه وشيّع إلى مثواه الأخير.

ولم تكن تلك مجرد لحظات غضب وانفعالات عابرة لهيرتسوغ وغيره من حكام اسرائيل الذين صمموا على القيام بتحرك ...ضد القرار من أجل الغائه.

ولم تتورع اسرائيل والصهيونية في حملتها الهادفة إلى إلغاء القرار من إلصاق تهمة «النازية» و«العداء للسامية» بالأمين العام السابق للأمم المتحدة كورت فالدهايم مستشار النمسا فيما بعد، انتقاماً منه على مواقفه في الأمم المتحدة ومن صدور القرار ٣٣٧٩، اضافة إلى العديد من القرارات التي صدرت في عهده والتي ناصرت حقوق الشعب العربي الفلسطيني، حيث ترافق قرار ادانة الصهيونية باقرار عضوية منظمة التحرير الفلسطينية (بصفة مراقب دائم في الدورة ٢٩) بأغلبية ١٠٥ أصوات مقابل ٤ أصوات وامتناع ٢٠ صوتاً.

ومنذ العام ١٩٧٤ أعيد فتح ملف القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة ليس باعتبارها قضية لاجئين لهم الحق في «العودة» أو «التعويض» بل باعتبارها قضية شعب له حقوق ثابتة وغير قابلة للتصرف، وفي المقدمة منها حق تقرير المصير واقامة الدولة المستقلة، بعد أن غابت القضية الفلسطينية كبند مستقل عن جدول أعمال الجمعية العامة قرابة ٢٢ سنة (منذ العام ١٩٥٢).

ثمة تساؤل مشروع مفاده: لماذا هذه الضجة بخصوص القرار ٣٣٧٩ حتى بعد الغائه؟ في حين تمضي اسرائيل سادرة في غيها مرتكبة أعمال عدوان جديدة، أبرزها عملية عناقيد الغضب عام ١٩٩٦ واستمرارها في ضم مدينة القدس (القسم الشرقي) باعتبارها عاصمة موحدة وأبدية لاسرائيل، واحتفاظها بالجولان وتنكرها بشكل عام لحق الشعب العربي الفلسطيني في العودة وتقرير المصير.

أفي الاعتذار من اسرائيل بسبب القرار ٣٣٧٩ جزء من متطلبات المنصب الدولي، أم أن هذا القرار هو قرار تاريخي بالفعل مازال حتى هذه اللحظة يزعج اسرائيل ويؤرقها لدرجة تعتبر الموقف منه معياراً لموقفها من الدول والشخصيات.

لقد جاء القرار ٣٣٧٩ نتيجة تراكم في الموقف الدولي وتطور بطيء جداً بل بعقبات كبيرة وهو ثمرة من ثمرات الصراع الدولي في ظلّ نظام القطبية الثنائية خلال فترة «الحرب الباردة» وتوازن القوى بين «المعسكرين» بكل ما عليها، فرغم عدم تمكن الأمم المتحدة كجهاز دولي من انصاف الشعب العربي الفلسطيني، الذي شرد من أراضيه، إلا أن التطور النظري كان مقدمة لابدّ منها للتطور الفعلي الذي يقتضي الاعتراف بحقوق الشعب العربي الفلسطيني، بعد ادانة الصهيونية ومساواتها بالعنصرية. وبما أن العنصرية قد أدينت بالقرار ١٩٠٤ في ١٩٦٣/١١/٢٠ فإن الصهيونية مدانة أيضاً باعتبارها أحد وجوه العنصرية. وقد أكد القرار ٣٣٧٩ على تصفية العنصرية بكل أشكالها.

ان استذكار كوفي أنان للقرار ٣٣٧٩ ومحاولة الاعتذار عنه تكمن في سعيه لكسب ود اسرائيل نظراً للأهمية الفكرية والقانونية والسياسية للقرار الذي يقود إلى استنتاج خطير، مفاده بما أن العنصرية والتمييز العنصري أمران مدانان وينبغي ازالتهما بمقتضى قرارات الأمم المتحدة وخصوصاً القرارات التي تعتبرهما «جريمة ضد الانسانية» فالصهيونية استناداً إلى ذلك والتي ساواها القرار بالعنصرية (التي تشكل جزءاً بنيوياً من ايديولوجيتها) هي وامتداداتها وتجلياتها السياسية تكمن في مصاف الجرائم الدولية ضد الانسانية حسب منطوق القرار ٣٣٧٩.

وهكذا واستناداً إلى منطوق القرار، يمكن الاستدلال القانوني حول «شرعية» وليد الصهيونية السياسي، وسلوكه على المستوى الدولي، وهو ما يفسّر الحنَق التي أصابت اسرائيل حين صدور القرار، الذي وصفه اسحاق رابين في الكنيست بالقول ان العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ يسجل أشدّ قرارات الأمم المتحدة مدعاة للاشمئزاز. وبعد عشر سنوات على صدور القرار وجّه الرئيس الأمريكي الأسبق ريغان رسالة إلى المؤتمر اليهودي العالمي قال فيها «قليلة هي الأحداث التي هزّت ضمير الشعب الأمريكي إلى هذا الحد، مثل القرار الذي يجعل الصهيونية بمصاف العنصرية».

ان القرار ٣٣٧٩ يعادل من حيث حجيته القانونية القرار ١٨١ الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ القاضي بتقسيم فلسطين، فكلاهما صدرا عن الجمعية العامة على الرغم من اختلاف تركيبهما وآليات تنفيذهما، في حين صدر القراران ٢٤٢ و٣٣٨ عن مجلس الأمن الدولي.

وإذا كان قرار التقسيم قد صدر في ظلّ اختلال التوازن الدولي لغير صالح العرب، فإن القرار ٣٣٧٩ حظي باجماع دولي أكبر وفي ظل ميزان دولي جديد، لكن اختلال هذا التوازن الذي حدث في السبعينيات وبسبب نكوص العرب الذين لم يفعلوا شيئاً بعد صدور القرار باتجاه الحفاظ عليه وتعزيزه وتعميمه، في حين بدأت اسرائيل بعد ان أفاقت من هول الصدمة بالعمل وتنظيم جهودها وتخطيط حركتها لتطويق القرار وحصره في أضيق نطاق والسعي إلى تسويفه بجميع الطرق الممكنة.

لعلّ المفارقة تتوضح من خلال التساؤل المشروع: إذا كانت اسرائيل لا تستجيب إلى أي من قرار الأمم المتحدة، فلماذا قامت بحملتها المنفلتة من عقالها إزاء القرار ٣٣٧٩. وإذا كانت هي لا تكترث بأي قرار يصدر بحقها فلماذا أصرت على إلغاء هذا القرار مطالبة الأمم المتحدة ومسؤوليها الاعتذار منها؟

لاشك أن الاشتقاقات القانونية التي يمكن التوصل إليها، استناداً إلى القرار هي ما تثير حفيظة اسرائيل وخصوصاً التساؤل القانوني المشروع الذي تدركه جيداً، وتحتاط له وتستخدم كل الوسائل لاحباطه سلفاً. لانها تدرك أيضاً أهمية المعركة الفكرية القانونية ولا تهملها أو تتهاون بشأنها حتى بعد الغاء القرار. وقد فسرت المندوبة الأمريكية السابقة في الأمم المتحدة جين كيركياتريك القرار بالقول «ان دولة تقوم على العنصرية هي دولة خارجة على القانون ولا تملك حق الدفاع عن النفس» ثم أضافت «عندما تعتبر الأغلبية في الأمم المتحدة أن الصهيونية هي عنصرية، فإنها تعلن أن انشاء اسرائيل هو عمل لا أخلاقي».

وإذا كان ثمة مفارقات «تاريخية» قد حدثت بشأن القرار ٣٣٧٩، فهي ان الأمم المتحدة التي أصدرت القرار عام ١٩٧٥، عادت ذاتها لتقرر الغائه بأغلبية أكبر والمفارقة الأخرى هي أن القرار كان حافزاً لاسرائيل في حين لم يكن كذلك بالنسبة للعرب الذين ناموا على «نصر سهل».

وثمة مفارقة أخرى هي أن بعض الدول العربية والاسلامية التي تبنت في مؤتمر القمة الاسلامي في الكويت ١٩٨٧ دعم القرار وحتى عشية الغائه في مؤتمر القمة في السنغال (١٩٩١) تناسى ممثلوها بعد أيام نتائج القمة فبعضهم أيد الالغاء والبعض الآخر امتنع أو تغيب عن التصويت ■■

---

* كاتب عراقي مقيم في لندن/ الامين العالم السابق للجنة دعم القرار ٣٣٧٩ (لجنة مناهضة الصهيونية والعنصرية).

خمسون عاماً على النكبة

معادلات الهبوط العربي وجذوة المقاومة

ابراهيم البدراوي*

في مايو الحالي يمر نصف قرن على اغتصاب فلسطين واعلان قيام الكيان الصهيوني العنصري، وتقام احتفالات صاخبة داخل الكيان الصهيوني وفي الدول الغربية.

وتأتي المناسبة الحزينة بينما يعيش عالمنا العربي فترة من أسوأ فترات تاريخه، حيث تم استجداء الولايات المتحدة الأمريكية - الحليف الإستراتيجي للكيان العنصري - لإعادة البقية الباقية من أرض فلسطين لأصحابها الشرعيين. وكأن القضية هي محض موقف أخلاقي سوف تتخذه الولايات المتحدة اقتناعاً منها بالحق العربي. لكن المسألة ليست بهذه الصورة على الإطلاق.

فلم تكن مجرد صدفة سيئة أن يصاغ ويطرح المشروع الصهيوني في أواخر القرن التاسع عشر، ولم تكن عملية الإحتضان المبكر للمشروع وأصحابه من قبل بريطانيا بالدرجة الأولى هو مجرد عواطف من الحكومة البريطانية تجاه اليهود.

لقد ظهر المشروع الصهيوني مصاحباً لتطور الرأسمالية، وانتقالها من مرحلة المنافسة الحرة إلى مرحلة الإحتكار (الإمبريالية) بسماتها المعروفة وأهمها الطفيلية، وهي سمة منسجمة لأقصى حد مع الطبيعة الربوية والطفيلية لرأس المال اليهودي.

وهكذا استمر وتصاعد الترابط والإنسجام بين الحركة الصهيونية والإمبريالية موضوعياً كلما أوغلت الإمبريالية في طفيليتها وعدوانيتها وصولاً إلى سيادة نزعة «الليبرالية الجديدة المتوحشة» في السنوات الأخيرة. وطرح مصطلح «العولمة» أو «الكوكبة» المعبر عملياً عن سعي الإحتكارات متعددة الجنسيات للسيطرة المطلقة على عالمنا، وفي الطليعة من هذه الإحتكارات تلك الممثلة للإقتصاد المالي الأكثر طفيلية الذي نما على حساب الإقتصاد العربي بدرجة غير مسبوقة. وهي العملية التي تسير بسرعة، خصوصاً بعد تفكك الإتحاد السوفيتي واختلال القوة بشدة لصالح الرأسمالية إن هذا الإستخلاص بمثل أهمية كبيرة خصوصاً في ظل الإرتماء الكامل الذي تقوم به غالبية النظم العربية تحت القدم الأمريكية استجداء لعدل لن يتحقق.

فالصهيونية كايديولوجية وحركة ومشروع ودولة هي نتاج طبيعي للرأسمالية في مرحلتها الإحتكارية - شانها شأن الفاشية - ولكنها تتميز باضطراد الإنسجام والإنتاج على أساس «القسمة» المشتركة الهامة وهي طفيلية رأس المال الإحتكاري الذي يربط بين رأس المال اليهودي وبين رأس المال الإحتكاري في مجال الإقتصاد المالي بوجه خاص.

ولم يكن محض صدفة أيضاً ان تطرح الحركة الصهيونية وكيانها الإغتصابي في فلسطين المرحلة الثانية من المشروع الصهيوني بعد انجاز المرحلة الأولى المتمثلة في الدولة، ألا وهي اقامة نظام اقليمي جديد على أشلاء النظام الإقليمي العربي، هو النظام الإقليمي المسمى «الشرق الأوسط الجديد» بقيادة اسرائيلية أمريكية لإنجاز الهيمنة الكاملة والمطلقة علىالوطن العربي بأسره.

وقد جاء طرح المرحلة الجديدة من المشروع الصهيوني في ظل المرحلة الجديدة لتطور الرأسمالية (تركز رأس المال إلى درجات عالية، سيادة الإحتكارات العابرة للجنسيات، وتدويل رأس المال والإستغلال ليشمل كوكبنا بأسره).

وينبغي هنا التوقف قليلاً إزاء ما يسمى زيفاً بالحل السلمي للصراع العربي الصهيوني. وهو في جوهره عملية تسوية سياسية على اساس استسلامي كامل.

وبالرغم من الإقتسام الواضح في عالمنا العربي إبان عقدي الخمسينات والستينات لم يجرؤ أي نظام محافظ أو عيني على الإقدام على أية تسوية مع العدو. يعكس ما حدث خلال العقدين السابقين.

لقد لعبت حركة التحرر العربية في ظروف توازن دولي واقليمي محدد دوراً كابحاً للكيان الصهيوني إلى حد كبير، رغم الحروب العدوانية التي شنها الكيان الصهيوني بدعم مباشر وواضح من العدو الأمريكي.

وللأسف فانه برغم التعادل الإستراتيجي (إن لم نقل التفوق العربي) الذي حققه العرب في حرب أكتوبر١٩٧٣ المجيدة لم يؤت ثماره المرجوة (الطبيعية) في تواصل النضال ضد العدو. إذ تحولت سلطة الثورة المضادة في مصر بقيادة السادات إلى تبني خط الإستسلام للعدو الصهيوني والأمريكي، بهدف استكمال خطتها باتجاه الرأسمالية في إطار التبعية، والعدول عن خط التنمية الوطنية بديلاً عن تطويره وتعزيز العدل الإجتماعي والتحرر الوطني والقومي والديمقراطية، وهو ما توج في آخر المطاف بزيارة السادات للقدس بعد عشرة شهور من ذروة المد الجماهيري في ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧ كاستغاثة وارتماء صريح في أحضان العدو.

وكانت كامب ديفيد حلاً انفرادياً وتسوية استسلامية تمت على حساب الشعب المصري والأمة العربية، وأخرجت مصر الرسمية من معادلة الصراع، فيما فتح الباب واسعاً امام التروي العربي الراهن، وأسبغت شرعية واضحة على الكيان الصهيوني الذي تحول من مجرد «دولة يهودية» إلى «دولة اليهود» وهو ما أحاط الحركة الصهيونية بزخم هائل. ولم تكن التوازنات الدولية في ذلك الوقت تعاني من الخلل الراهن، وهي الحجة التي تساق الآن في تبرير الإستسلام بديلاً عن حشد الطاقات العربية وأوراق الضغط العربية، وإدخال الجماهير - التي أقصيت عنوة - في معادلة الصراع ضد العدو.

غير أن ما تلا كامب ديفيد كان أكثر بشاعة. ففي خضم الإنتفاضة الفلسطينية المجيدة التي حققت تأييداً عربياً وعالمياً، رسمياً وشعبياً غير مسبوق للشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة، جاءت مدريد، وبرغم كل الملاحظات عليها إلا أنها تعثرت نتيجة عدم الإستعداد للإقتراب من الخطوط الحمراء من التنازلات العربية. غير ان ياسر عرفات اندفع من وراء ظهر الشعب الفلسطيني ومؤسساته وأحزابه ومنظماته التي قادت وشاركت في مسيرة الكفاح لسنوات بدا بيد، وقدمت تضحيات هائلة. اندفع سراً إلى أوسلو. وهكذا تم تدشين مرحلة جديدة في مسيرة الصراع العربي - الصهيوني الإمبريالي. وتوالي تخطي كل الخطوط الحمراء في التنازل والتفريط. وحلت الولايات المتحدة الأمريكية - الخصم والحكم - أو استمر دورها وتصاعد بديلاً عن الأمم المتحدة، وخرجت القضية برمتها من جدول أعمال المجتمع الدولي. وخسرت تأييداً واسعاً تمتعت به لسنوات طويلة.

وأسفرت مسيرة أوسلو المتهالكة عن مجرد ما يسمى بسلطة الحكم الذاتي المحدود الفاسدة والمتهافتة والضعيفة (باستثناء شجاعتها وعنفوانها في مواجهة الشعب الفلسطيني) وعديمة الصلاحيات. وتم إيقاف الإنتفاضة



وتجريد المناضلين من سلاحهم. وهو ما فتح الباب أمام تسوية أردنية مشابهة، وإلى هرولة معظم نظم الحكم العربية لتطبيع علاقاتها مع اسرائيل وتدمير البقية الباقية من النظام الإقليمي العربي واقعياً لحساب «النظام الإقليمي الشرق أوسطي» والشروع فيه. وبقيت سوريا الصامدة ولبنان وحيدتين أمام العدو.

وأكرر أن أخطر ما في هذه الأمور جميعها هو «اسقاط صورة العدو» عن الكيان الصهيوني واسقاط عنصر «الصراع» عن المستوى الإيديولوجي. وبالتالي تم خوض عملية التسوية السياسية من موقف شديد الضعف، غير قادر حتى على اجراء أية مساومة في إطار استمرار الصراع، وأصبح التنازل هو الخيار الوحيد. ومن علم السياسة كما في علم الثورة تتحقق المكاسب والإنتصارات إذا ما تعددت الخيارات، وتخسر تماماً إذا ما تلاشت الخيارات.

نتيجة لذلك (خاصة إسقاط الصراع واقصاء الجماهير العربية بالتالي عن المعادلة) فلقد أصيبت غالبية نظم الحكم (العربية بمرض انعدام المناعة. وعلى أرضية الإستسلام الذليل لهذه النظم، تقوم بنشاط محموم وواسع النطاق في إرساء التبعية المطلقة والإنقلاب على مجمل الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية التي سبق انجازها والإستجابة للهيمنة الرأسمالية والصهيونية التي يطلقون عليها العولمة ودون اتخاذ خطوات عملية وفعالة لتجنيب وحشيتها. وتقود الطبقات البرجوازية الكثيرة والطفيلية التابعة السائدة في غالبية البلدان العربية. هذا «الإنقلاب»، ولا تجد في السيطرة الصهيونية والإمبريالية أي خطر على مصالحها الذاتية بصرف النظر عما يجري لشعوبنا وأوطاننا.

غير أن الصهيونية والإمبريالية تدركان جيداً أن ما يجري مهما كان، والذي يتم بالتواطؤ مع أغلب نظم الحكم العربية سيظل في مهب الريح لدى حدوث نهوض جماهيري واسع. ولهذا السبب فإن نشاطاً محموماً يتم الآن. باستخدام آلية جديدة هي «اختراق» النخب السياسية خاصة اليسارية التي اكتسبت قدراً كبيراً من المصداقية في الماضي، استهدافاً لإختراق الحركة الجماهيرية.

ويتخذ هذا الإختراق الخطر شكلين هما الإختراق الإيديولوجي والإختراق المالي، اللذان يصبان في طاحونة طمس «الصراع» ضد العدو، واقتلاعه ما أمكن من ذاكرة ووعي وفكر النخب السياسية (الوطنية) والجماهير الشعبية.

وهنا نحن نشهد كيف تتم محاولات دس مصطلحات جديدة ذات مضمون واضح مثل توازن المصالح بديلاً عن توازن القوى، وأولوية وأهمية القضايا الكونية. ووحدة العالم، والقبول بالآخر، وأن الثورة قد مر عليها الزمن. ويجري تمرير البرنامج السياسي لليبرالية الجديدة المتوحشة في بلداننا باعتباره خلاصة الديمقراطية الرامية إلى التداول السلمي والهادئ للسلطة عبر صناديق الإنتخاب، وبدون هزات اجتماعية أو صراع طبقي، وكأن رأس المال الإحتكاري وعملاءه ذوي خلق رفيع ومهذب سوف يسعون طوعياً بمطالب الجماهير وحقوقها في الثروة والسلطة في بلداننا. ويكتسي هذا الإختراق بما يسمى العمل الأهلي خصوصاً في مجال حقوق الإنسان والديمقراطية ونشاطها ومراكزها التي تموه بكفاءة عالية على ممارساتها، وتستدرج الرأي العام إلى قضايا هامشية وجانبية وتافهة مثل «ختان الإناث» لكن جوهر نشاطها هو دس مفهوم القبول بالآخر (الصهيوني الإمبريالي وبرامجهم للهيمنة) وطمس «الصراع» والوعي بضرورته في عقول الناس. وتجري عمليات تمويل واسعة لهذه الأنشطة تشويهاً عملياً في فساد وإفساد بهدف خلق قواعد اجتماعية مرتبطة موضوعياً ومباشرة بمؤسسات التمويل الأجنبي.

ولقد بات واضحاً أن مؤسسات التمويل المذكورة هي مجرد سواتر للإحتكارات ونشاطها في بلداننا، ومن الغريب أنه لم يعرف مطلقاً حرص أصحاب الإحتكارات الغربية مثل فورد، واليهودي سورس على الديمقراطية أو حقوق الإنسان، وهم على ما هم عليه «مصاصو دماء الشعوب».

وهكذا يتوحد الإختراق الإيديولوجي مع التمويل على أرضية الفساد وفي كنف مؤسسات تمويل تابعة للإحتكارات خاصة الإحتكارات الصهيونية. ولم يعد خافياً أن هذه الأموال المتدفقة كالسيل على بلداننا هي نفس ما كان مخصصاً لمحاربة الشيوعية وتقويض النظم الإشتراكية في الفترة السابقة.

ويشترط المولون تأييد التطبيع أو على الأقل عدم معارضته والأحزاب السياسية ذاتها، ويمكن لأي مدقق أن يرصد بدء تبلور ثلاثة خيارات في الواقع الراهن:

- تيار القبول والإنحياز مع ما يحدث.
- تيار التكيف مع ما يحدث مع تحسين شروط الإستسلام.
- تيار اختيار الصراع ضد العدو كخيار لابديل عنه.

وتحمل هذه العملية إرهاصات وبوادر لتشكل اصطفافات طبقية وسياسية جديدة، بما يهيء لبناء اصطفاف سياسي جديد وطني ديمقراطي تقدمي قادر على الصمود والتصدي للهجمة الصهيونية الإمبريالية، تم الإنتقال إلى الهجوم عبر ادخال الجماهير كطرف أصيل في معادلة الصراع ضد أعدائنا.

إن امكانيات بروز هذا التيار هي التي ستحقق اعادة بناء حركة التحرر الوطني العربية من جديد. لكن تشكله وتفعيل قدرته تتوقف على عمل ابداعي واسع، وقدرة فائقة على إدارة الصراع، وتعزيز الفرز ليصل إلى منتهاه، وجمع شتات قوى التحرر الوطني ورص صفوفها، والتخلي عن ضيق الأفق وأساليب الدسائس والروح الأنانية، وإعلاء ومقاومة روح مقاومة الإختراق بكل أشكاله وأساليبه، وشن صراع شامل سياسي وطبقي وفكري ووطني وصياغة برنامج أو مشروع نهضوي شامل مكثف حوله أوسع قوى يقدم على اعتماد كافة أشكال النضال لحل التناقضات القائمة وتحقيق النصر.

لقد بات واضحاً أن عمليات الترويج لغسل أيدينا من القضية الفلسطينية وتركها لأصحابها «الفلسطينيين» قد باءت بالفشل، فالخطر يحلق فوق رؤوس الجميع، والتواطؤ العرفاتي الصهيوني الأمريكي يعمل على إقصاء الفلسطينيين كمنظمات وأحزاب وطنية وتقدمية مثلما أقصى الجماهير عن الإسهام والمشاركة.

إن عالمنا الذي اصبح صغيراً يعيش في ظل صراع لم يسبق له مثيل والبشرية لن تقبل باستمرار العبودية والصراع ضد أعداء البشر لن يتوقف■■

• باحث ومفكر يساري مصري.

في غياب موقف قومي

أهمية ومعنى الوحدة الوطنية الفلسطينية

ميشيل كيلو*



تبين سنوات ما بعد اوسلو كم هي ضيقة ومحدودة حرية حركة وخيارات فلسطين في غياب تغطية عربية ملائمة لمصالحها الوطنية. فتغييب البعد القومي للصراع العربي الاسرائيلي يبقي حركة وخيارات الفلسطينيين محدودة، حتى عندما تتوفر لهما تغطية دولية معقولة، تشارك فيها قوى كبرى كالاتحاد الاوروبي.

ومع انني لا اريد تحويل العلاقة الجدلية بين العام العربي والخاص الفلسطيني إلى حائط مبكى اندب عليه حظ العرب الفلسطينيين العاثر ـ لاسباب منها اننا شبعنا ندباً طوال السنوات الثلاثين الماضية ـ فإنه لا مفر من التعريج على السياسات العربية التي سبقت اتفاقية اوسلو، ولعبت دوراً كبيراً في جعلها ممكنة، والتي قامت على قبول تصورات أمريكا واسرائيل حول ضرورة أن تكون المفاوضات العربية / الاسرائيلية منفردة ومباشرة ومرحلية وتدريجية، كما قبلت تصوراً اميركياً اطارياً للسلام، ترك لاسرائيل حق ملئه بالمضمون الذي تريده، انطلق من اولية أمن اسرائيل، ومن ضرورة ان يسبق التطبيع والسلام معها انسحاب قواتها التام من الاراضي العربية المحتلة.وكان قد ترتب على هذا التصور سياسة اميركية تجعل مقاربة الموضوع الفلسطيني تتم على مرحلتين تفصل بينهما فترة زمنية تختبر خلالها سياسات الفلسطينيين ونواياهم حيال اسرائيل، على أن يعلق مصير فلسطين النهائي إلى نهاية المرحلة الثانية، التي ستحدد صورة فلسطين المستقبلية.

في هذا السياق العام، نشأ ظرف تفاوضي / سياسي تترتب عليه نتيجتان خطيرتان هما:

١ ـ قيام كل طرف عربي «بقلع شوكه بيديه»، اي ذهابه إلى طاولة المفاوضات منفرداً، وتعامله مع مشكلته الوطنية كمشكلة بلا عمق قومي، مشكلة تخصه وحده فلا دخل لاحد من العرب فيها، ولا حق له في التعاطي معها سلباً أو ايجاباً. يفسر هذا سبب امتناع الدول العربية عن صياغة موقف مشترك، واحجامها عن التنسيق فيما بينها وعن تقديم مخطط خاص بها للسلام، وعن تقديم تعريف متفق عليه لاهداف العرب التفاوضية، وسعي كل واحدة منها لاخفاء تفاصيل مفاوضاتها عن سواها من الدول، واستخدام الآخرين ورقة لتحسين الموقف التفاوضي الخاص، مهما كان حجم الاذى الذي سيلحق به.

٢ ـ انجاز المرحلة الاولى من التسوية على المسار الفلسطيني قبل غيره، مع أنه كان يبدو أن تسويته لن تنجز الا بعد اتفاق بقية الدول العربية مع اسرائيل. ومع ان اتفاقية اوسلو، التي تمخضت عن مفاوضات سرية فلسطينية/ اسرائيلية، عقدت دون التنسيق مع، ودون علم، اي طرف عربي، فانه تم تمريرها عربيا دون مقاومة تذكر، بعد ان اعتبرتها اميركا خطوة اريد بها ردم الهوة بين وضع فلسطين التفاوضي وأوضاع العرب، الذين سينجزون سلامهم مع اسرائيل في مرحلة واحدة، بغض النظر عن المدى الزمني الذي ستتحقق خلاله. ولعلنا لم ننس بعد تصريحات عربية متكررة انتقدت الاتفاقية بسبب انفرادها، لكنها أكدت انها لن تفعل شيئاً لاحباطها أو لجعل الجانب الفلسطيني يعود عنها!

لن ادخل في متاهات اوسلو. ولن افند ما جاء فيه، فهو معروف بما فيه الكفاية. ساركز نظري على الموقف العربي: موضوع تأملي في هذه العجالة، ملاحظاً أنه كان منسجماً تماما مع ذاته، حين امتنع عن فعل أي شيء ضد الاتفاق، اعتقاداً من اصحاب القرار العرب أن المرحلة الاولى خطوة تساوي بين الموقفين

الفلسطيني والعربي وتجعل السلام العادل والشامل ممكناً، فهو ليس اتفاقاً نهائياً، وليس، بالتالي، عقبة في وجه التسويات على المسارات العربية الاخرى، بل ربما كان شرطاً لها. من هنا، ايدت غالبية الدول العربية الاتفاق، واستغلت الدول المتفاوضة فترة الاختبار التي تعرض لها الفلسطينيون من أجل تفعيل مساراتها الخاصة، وانخرطت في عملية تفاوض نشط مع اسرائيل، تحت رعاية اميركا المباشرة وغياب الامم المتحدة واوروبا والصين وحتى روسيا، التي اعلنت راعياً ثانياً للمفاوضات في مدريد، ثم استبعدت عنها وتحولت إلى متفرج سلبي ومكبوح عليها. في هذا الاطار، لا مفر من اعتبار اتفاق اوسلو ابناً شرعياً لتصور اميركا للسلام، ولعدم وجود عمق قومي فاعل للنضال الوطني الفلسطيني، ولقوة الحلف الاسرائيلي الاميركي والهوة في ميزان القوى بين اسرائيل وفلسطين، التي لعبت دوراً كبيراً في امتناع الحكومات العربية عن مساعدة الموقف التفاوضي الفلسطيني، أما منظمة التحرير، فرأت في الاتفاق استعادة متأخرة لقرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة عام١٩٤٧، الذي يعترف بالشعب الفلسطيني كحقيقة وطنية لها الحق في دولة خاصة بها فوق ارضها الوطنية الخاصة، بينما رأت اسرائيل فيه حكماً ذاتياً على السكان، يعطيها الفرصة لابتلاع الاراضي «الخالية» من الفلسطينيين، أي معظم اراضي الضفة الغربية وقطاع غزة. بغض النظر عن النقلة التي شهدتها اسرائيل والمنطقة بعد نجاح الليكود في الوصول إلى الحكم، بقيت السياسات العربية محافظة على موقف «كل طرف يقلع شوكه بيديه»، والذي يتجاهل أن اتفاق اوسلو ادخل النضال الوطني الفلسطيني في طور جديد وخطير، جعل حاجته إلى الدعم العربي أكبر مما كانت عليه في أي وقت مضى. اذ بينما كانت اسرائيل حزب العمل تزعم أنها لن تبت في مصير الاراضي العربية المحتلة وفي مصير ومستقبل فلسطين دون الرجوع إلى الشعب، اي دون استفتاء شعبي، قال الليكود ان الاراضي ليست فلسطينية وليست محتلة، بل هي اراضي اسرائيل التاريخية، التي ستحافظ «اليهودية» عليها بأي ثمن كان. في طور لاحق، اعلنت حكومة اسرائيل أنها لن تتخلى، تحت أي ظرف من الظروف، عن معظم اراضي الضفة الغربية والقطاع، واطلقت برنامجاً مسرعاً للاستيطان ولتهويدالقدس، دون ان يؤدي هذا كله إلى أي تغيير في السياسات العربية من المسار الفلسطيني، الذي ترك عملياً وشأنه،يقلع شوكه بيديه الواهيتين، بينما تزداد ايدي اسرائيل قوة بفضل تدفق سيل هائل من الأسلحة الاميركية الفائقة الحداثة عليها، وامساكها بورقة فلسطين الاقتصادية.

وللعلم، فان السياسات العربية بدأت تخرج فلسطين من منظوراتها عقب مؤتمر الرباط عام١٩٧٤، ثم اخرجتها منها تماماً بعد اتفاق اوسلو، بذريعة أن المنظمة لم تنسق معها اوبحجة انها لا تريد التدخل في الشأن الفلسطيني، كي لا تربك القرار الفلسطيني المستقل أو تمس به. المهم، لقد تركت فلسطين للعدو. ولولا يقظة شعبها وخبرته النضالية، لانتهى امرها، او لدخل في وضع كارثي لا سبيل إلى رده أو درء مخاطره.

يظهر تخلي الحكومات العربية عن فلسطين في المجالات كافة،وخاصة منها: ١ـ الاقتصاد. من المعلوم ان اسرائيل ربطت الاقتصاد الفلسطيني باقتصادها بنسبة تكاد تعادل المائة بالمائة، حتى غدت فلسطين ثاني اهم«شريك» اقتصادي لها، وتحولت إلى مستعمرة اسرائيلية من الطراز الكولونيالي التقليدي، لا يقيد استغلالها لها اي قيد من اي نوع كان، وكانت اميركا واوروبا قد اتفقتا، بعد اوسلو، على تشكيل هيئة دول مانحة مهمتها تنمية المناطق الفلسطينية، اي تعويض الشعب الفلسطيني بالطعام عما سيخسره من حقوق ووطن، على أن تتولى اوروبا الجزء الاكبر من التمويل، وتساعد اميركا في «تعقيل» الفلسطينيين وفي اخضاعهم لاكراهات اقتصادية ان تجاوزوها وقعوا في مأزق شديد، يتظاهر في تعطل سلطتهم وفي عجزها عن دفع رواتب لموظفي اجهزتها الامنية والادارية، وعددهم يقارب المائة ألف. وقد لعبت اوروبا دورها المتفق عليه، فاستخدمت الورقة الاقتصادية كعصا وكجزرة في آن معاً، بينما أبعدت الحكومات العربية نفسها عن الموضوع، دون أن تبذل أية محاولة للدخول في نادي الدول المانحة، أو تفكر ولو مجرد تفكير بمساعدة فلسطين وتمكينها من حلحلة قيود الاقتصاد الاسرائيلي الفتاكة. والحق، ان السياسات العربية تركت فلسطين للعدو، فاحجمت عن امدادها ولو بجزء يسير مما تحتاج إليه، علها تنجح في الحد من ابتزازات اسرائيل المتكررة، التي تطال لقمة عيش شعبها وقدرته على النضال من أجل حقوقه، اعتقد، شخصياً، ان الحكومات العربية تعهدت أن تترك فلسطين تواجه مصيرها بمفردها، أملاً في كسب اميركا وتليين موقف اسرائيل. هذا التعهد ترجمته السياسية الاحجام عن ممارسة اي ضغط على اميركا تأييداً للفلسطينيين، والضغط على هؤلاء تأييداً لاميركا، وترجمته الاقتصادية الامتناع عن امداد فلسطين باية مساعدات أو قروض أو معونات، وتركها لعدوها، الذي يتفنن في ترويع شعبها ويحكم قبضته أكثر فاكثر على عنقها، ويفرض عليها جميع اشكال الحصارات والتجويع.

٢ ـ القدس. تلعب السياسات العربية دوراً كارثياً في احباط مقاومة الشعب العربي الفلسطيني لخطط تهويد القدس. لنتذكر هنا بحملة التبرعات التي حاولت لجنة لقدس القيام بها في الدول العربية من اجل جمع مبالغ تكفي للحصول على تراخيص بناء الاف قليلة من البيوت لعرب القدس، وهي حملة فشلت في جمع مبلغ ذي شأن. هل نذكر هنا بحقيقة أن حكومات عربية نازعت الفلسطينيين حقهم في القدس، ثم صمتت عندما بدأ العدو تهويدها، فكأنها لا تدافع عن عروبتها ومقدساتها الا ضد الشعب الفلسطيني، او كأن تهويدها مسألة خارجية بالنسبة لها، لقد اخرجت القدس من منظورات السياسات العربية، التي ما عادت توظف اي جهد يذكر في الدفاع عنها، رغم علمها أن موقف المنظمة في الصراع حولها ضعيف، وأنها لا تمانع في ان تتولى الدول والمنظمات العربية الكثير من امورها، وخاصة امام المحافل الدولية، والتي أقنعتها اسرائيل بما يسمونه «ضرورة ابقاء المدينة موحدة»، مع انها جزأت مدن الضفة الغربية وقسمتها، مثلما يبين لنا مثال الخليل.

٣ ـ التنسيق. كثيراً ما طالبت السياسات العربية بالتنسيق، الذي اعتبرته ضعف الموقف العربي عموماً والفلسطيني خصوصاً. التنسيق ضروري لنوال الحقوق العربية واسترداد الأرض العربية والوصول إلى سلام عادل وشامل ومتوازن مع اسرائيل. وبعد اوسلو، صارت قضية فلسطين مسألة ديبلوماسية بالنسبة للسياسات العربية، وكان يقال طوال السنوات الخمسين المنصرمة أنها مسألة قومية بامتياز، بمعنى ان كل نظام عربي وجد في العراك حولها مصدراً لشرعنه قطريته قومياً، وجعل منها اداة لتبرير سياساته وتقديمها للرأي العام العربي ـ خارج بلده ـ باعتبارها تجسيداً لمثل «قومية»، بينما غيرها تجزئة وخيانة.

أثبتت نكسات وهزائم السنوات الثلاثين المنصرمة أهمية وحدة العرب، وجعلتنا نرى القاع الذي يمكن أن ننحدر إليه في ظل التشتت الراهن. وبينت تجربة الكفاح الوطني الفلسطيني، ومأساة فلسطين ذاتها، أهمية الغطاء العربي في صيانة وجود واسترداد حقوق شعب فلسطين. وإذا كان الموقف العربي الحالي مركباً على قطرية بلغت أقصى درجات تهافتها وافتضاح عجزها؛ قطرية كانت قد وعدتنا بالمن والسلوى ثم تقهقرت إلى مدريد، حيث دخلت في طور من الكاريكاتورية يبعث على الشفقة ويثير الغثيان في آن معاً، فإن الموقف الفلسطيني يمتاز عن بقية مواقف القطرية العربية بخصيصتين لابد من الحفاظ عليها تحت جميع الظروف:

١ـ الوحدة الوطنية، فالفلسطينيون شعب موحد حيثما كانوا، وهم يعرفون، بحاسة غدت



فطرية تطورت في سياق صراعهم المتواصل منذ مائة عام ضد أعتى القوى العالمية: عنيت الصهيونية والإمبرياليات الأوروبية والأميركية الكبرى، مصدر الخطر عليهم ومكمن الأمان بالنسبة لهم، ويفلحون دوماً في معرفة أو تحسس الحلقات المركزية الضرورية للوحدة فيما بينهم.

٢ـ الروح الكفاحية التي أصبحت تلقائية فلا تكاد تحتاج إلى تعبئة أو شحن أو تجديد، بل هي حاضرة ناضرة على الدوام، كأنها أصبحت طريقة عيشهم ونمط حياتهم، ولم تعد وضعاً استثنائياً تمليه التحديات.

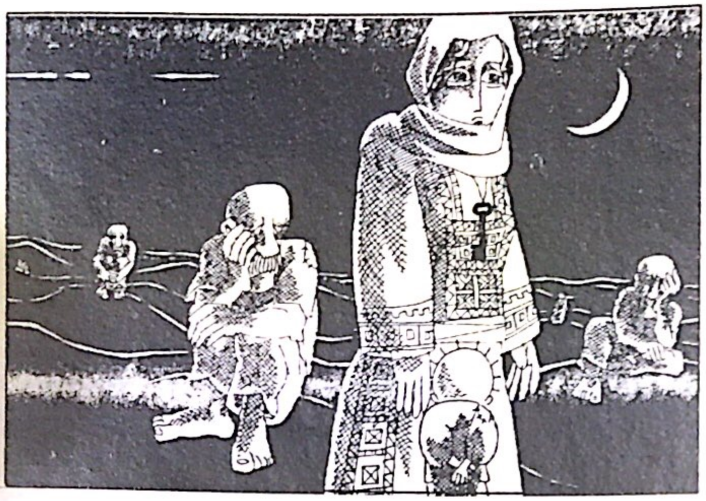
بالوحدة الوطنية والروح الكفاحية تلعب فلسطين وتقاوم وتخطو نحو استرداد كيانيتها. وبهما صمدت طوال قرابة مائة عام في وجه خطط الإبادة والتشريد والتشتيت والقتل الجماعي. وبهما أيضاً صمدت طوال ثلاثين عاماً مضت أمام آلة حرب حديثة وجبارة، رغم صغر مساحة الأراضي المحتلة في الضفة والقطاع وحركية جيش العدو، التي تمكنه من إرسال قوات كبيرة ومقاتلة إلى اية نقطة فيها خلال دقائق قليلة ـ حوالي ربع ساعة ـ والإندماج الهيكلي المتقدم للمنطقة المحتلة في أراضي القاعدة الإسرائيلية القائمة منذ عام ١٩٤٨.

في غياب غطاء عربي حقيقي ودعم دولي فعال، لاتمتلك فلسطين ـ والعرب أيضاً ـ من سلاح غير الوحدة الوطنية والروح الكفاحية والجهادية للشعب، ولاتستطيع بدونهما تحقيق اي شيء وطني، به يمكن الحفاظ على ما تم الحفاظ عليه طوال قرون طويلة بأكثر التضحيات بسالة. إن فلسطين لاتملك ما تنوجد به، في غياب الغطاء العربي لكفاحها، غير وحدتها الوطنية، التي أكدت حوادث السنوات السبع الماضية قوة أواصرها ومتانة لحمتها. أما أهداف شعبها الوطنية ـ ذات الصفة القومية النوعية ـ فهي لن تتحقق إلا من خلال الهوامش السياسية والعسكرية والإقتصادية والحضارية التي تتيحها لقياداتها روح شعبها الكفاحية، التي تعالت دوماً على خلافات سياسييها ومنظماتها، وعرفت كيف تتخطاها وتحد من ضررها. كما لن تتحقق إلا من خلال حضور عربي حقيقي في الموضوع الفلسطيني، يتمحور حول تعويض فلسطين عن النقص القائم في موازين الفاعلية والقوة بين العدو وبينها، وذلك لايكون بالقاء ثقل العرب السياسي والإقتصادي وحتى العسكري في مواجهة اسرائيل، ووراء كفاح فلسطين، السبيل الوحيدة لبلوغ حقوقها، كما تؤكد سنوات وتضحيات القرن المنصرم، الذي يثبت أن عدونا لايرى في نفسه ضيفاً على المنطقة، يمكن أن يرحل عنها متى أحس بنفور سكانها منه، وإنما يصر على تحويل أبنائها إلى عبيد يقتلهم ويستغلهم ويضطهدهم إلى أن يجد بديلاً لهم فيطردهم منها.

لم يغير أوسلو معطيات معركة فلسطين، وإن كان قد أوضح كثيراً من عناصرها، وأزال الغشاوة عن عيوننا والأوهام من نفوسنا. ولم تغير سنوات التفاوض السبع معطيات المعركة الإسرائيلية ضد العرب ـ وإن هزت جدياً مواقف بعض الحكام العرب من إسرائيل ـ لذلك يبقى علينا أن نناضل من أجل موقف قومي في المسألة الفلسطينية، التي يجب أن يتحول بعدها وعمقها العربي إلى أمضى اسلحة كفاحها وأفعل أدوات انتصارها. من أجل هذا، علينا أن نبلور تصورات ونضع خططاً تنفيذية لسلام عربي، سلام يخدم مصالحنا قبل كل شيء، من مستلزمات تحققه رفض التسوية الراهنة، التي لاتخدم إلا المصالح الأمريكية/ الإسرائيلية، على أن يتجند عرب زماننا لسلام كهذا ويضعون إمكاناتهم وعلاقاتهم الدولية في خدمته، ويجرون ما يتطلبه من تغييرات سياسية واجتماعية داخل دولهم وفيما بينها، هدفها إعادة إحياء السياسة كفاعلية شعبية ومجتمعية، مادامت تجربة ما بعد حزيران أثبتت استحالة تقوية الدولة التي لاتحظى بمساندة شعبها، واستحالة مقاومة عدونا المتوطن بقوة في النظام الرأسمالي الأمريكي دون تعبئة شعبية عربية، وطنية وقومية، أساسها الديمقراطية والعدالة والوحدة، حيث اصلاح المجتمع ضروري لإصلاح الدولة والسلطة، فلا ينجب تحديث الدولة، مثلما حصل في اعقاب هزيمة ١٩٦٧، مجتمعات مغيبة ومفوتة وشعوباً محيدة وكسيحة.

بعد حزيران، تحولت السياسات والأحزاب العربية إلى تقوية الدولة القطرية، باعتبار أن الدولة القوية هي وحدها تستطيع تحرير الأراضي العربية المحتلة واستعادة حقوق شعب فلسطين. واليوم، يبدو أن الدولة القطرية لم تحقق هدفها هذا. لذلك تتعاظم حاجتها إلى التنسيق والتعاون وتبادل الحماية. فهل يمكن لهذا المستجد أن يكون مدخل سياساتنا إلى التغيير ومدخل فلسطين إلى الدعم العربي؟.. لاجواب لدي على هذا السؤال. وإن كنت أعرف جواباً على المأزق الفلسطيني الراهن: إنه أعظم قدر من وحدة الشعب الوطنية وأقل قدر من الخلافات بين المنظمات والأحزاب، سياسية كانت أم عسكرية ■■

• كاتب سوري.



القضية الفلسطينية بعد خمسين عاماً من النكبة

د. أحمد برقاوي*

الراهن هو القمين بالنظر، أما الماضي فهو درس لقراءة الحاضر، أو لمواجهته.

ما الراهن في صراع كأنه يبدأ للتو؟ أقصد بالراهن تعين القضية الفلسطينية الآن بما هي عليه من علاقات متشابكة ترابطية. علاقة بين حدود متجاذبة متناقضة ومختلفة.

الفلسطيني العربي والعربي والصهيوني والعالم. إبدأ من حيث جئنا لافرق طالما التشابك حاضر ويحيل كل عنصر من عناصر القضية إلى الأخرى. لا المأزق يدل الحالة كما الأزمة لاتصفها، أن الصراع وباستمراره على أي نحوٍ كان دليل على حركة الواقع ذاته وعلى فعل الإرادة فيه.

خمسون عاماً مرت والقضية الفلسطينية كأنها تبدأ الآن. ما الذي يجعل قضية مرّ خمسون عاماً عليها وكأنها تولدت في هذه اللحظة. حتى الخطابات المتنوعة من قبلنا أو من قبل عدونا لما تزل هي هي رغم هذه الفترة الطويلة.

أجيال قضت وأجيال ولدت، وكل الأجيال تعيش لحظة المأساة ليس في الأمر سر إطلاقاً.

النقطة الأولى التي انطلق منها هي التالية: اسرائيل ولدت لاتحمل في ذاتها عناصر بقائها واستمرارها. لماذا؟ صبراً قليلاً قبل أن أتهم بالطوباوية.

أولاً: اللحظة التاريخية التي ولدت فيها اسرائيل لحظة صارت إلى ماض هي لحظة الإستثمار المباشر التقليدي للمنطقة. واسرائيل الدولة الوحيدة التي مازالت من بقايا هذه اللحظة المنصرمة. ترتب على الإستثمار التقليدي، أن المنطقة كلها لم تكن في مرحلة تقرير مصيرها، فكل ما تم تم خارج إرادة السكان الأصليين والإيديولوجيا العنصرية العرقية وممارسة التميز العنصري أمر بات مرفوضا، لا بفعل دحض البيولوجيا لها ولكن بفعل تنامي فكرة لتفوق الإنسان والمساواة بين البشر.

ثانياً: منطق العصر هو منطق زوال النشاز على مستوى الأمم، فالأقوام التاريخية التي فقدت شخصيتها السياسية بعد الحرب العالمية الثانية، تستكمل الآن أسس هذه الشخصية.

وإسرائيل نشاز في منطقة ذات ملامح مشتركة يتزايد حضورها الفاعل الموضوعي بفعل الإتصال المتنامي بين سكانها العرب. هي نشاز بمعنى أنها لاتنتمي: لغوياً أو اثنياً، أو ثقافياً أو اقتصادياً إلى المنطقة، ناهيك عن أنها نشاز على مستوى الآمال والمشكلات. نشاز لهذا يرفضه منطق الواقع كما يرفض منطقٌ الفكر.

ثالثاً: إن قوة الأمم يجب أن تتوافر فيها عناصر جغرافية سكانية واقتصادية وتقنية وثقافية ومن ثم عسكرية.

وإسرائيل فضلاً عن أنها دولة لا أمة، فإنها لاتتوافر فيها عناصر مجتمعة. وهذا ما يحدد مصيرها اللاحق، لاسيما وأن حركة التاريخ الآن أسرع بما لايقاس من قبل. وتتحدد بفعل عوامل داخلية مما يحيل من واقعة وجود دولة بفعل حماية خارجية أمراً آيلاً إلى الزوال، إننا هنا مازلنا في إطار الوعي التاريخي للقضية.

لننتقل الأن الى الوعي بالراهن المتعين.

تواجه إسرائيل على مستوى العلاقات الدولية أمراً جديداً قائماً على فكرة العدل والإستقرار.

فكرة العدل هي فكرة أوربية أما فكرة الإستقرار فهي فكرة أمريكية. لنحلل هاتين الفكرتين:

لماذا فكرة العدل هي فكرة أوروبية الآن: اسرائيل أساساً منتج أوروبي-بريطاني-فرنسي. سواء من حيث التأسيس أو من حيث توفر اسباب القوة العسكرية ـ المادية، إسرائيل الأوربية ظلت أوربية بحكم الصراع الدولي القديم ـ الحرب الباردة.

اي ظلت أوربية حتى في اللحظة التي صارت فيها إسرائيل أمريكية. لأن أوروبا ذاتها في شروط الحرب الباردة كانت في حدود كبيرة أمريكية.

عندما بدأت أوربا تعيد تنظيم نفسها كأوربية ومازالت سائرة في هذا الطريق، فإن اسرائيل الأمريكية لم تعد عنصراً من عناصر تحقيق سياستها الخارجية في المنطقة. بل إن دخول الوطن العربي مرة أخرى يمر عبر الموقف من المشكلة التي خلقتها. فكانت فكرة العدل هي التعبير السياسي عن فك الإرتباط بما لايجعل من التناقض مع الولايات المتحدة أمراً واضحاً وصريحاً يصل إلى مرحلة التناقض.

لأن فكرة العدل هي في النهاية لاتنال من وجود اسرائيل المادي بل هي تمت إلى إعطاء الفلسطيني حق اليهود المادي في الدولة المستقلة. وهكذا تنتج فكرة العدل الأوروبية الإقرار بالحق الفلسطيني إلى جانب الإقرار بوجود اسرائيل على نحو لم تعدمها عامل سلب هذا الحق.

من هذه الزاوية تفقد اسرائيل أحد عناصرها الخارجية الداعمة ألا وهي أوربا.

وليست أوربا قارة غير ذات شأن في العالم الآن وفي المستقبل.

أما فكرة، الإستقرار الأمريكي: فمصدره أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية كما حددها مارتن أنديك المدير العام السابق لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي: يقول: لقد حدد الرئيس كلينتون الخطوط العريضة لسياسته حيال الشرق الأوسط:

سياسة خارجية محورها الديمقراطية، سياسة خارجية تعزز مصالح الأعمال الأمريكية في الخارج، سياسة خارجية تعمل مع أصدقائنا وحلفائنا في الشرق الأوسط اسرائيل ومصر والسعودية من أجل حماية المصالح الاميركية في الشرق الأوسط ومواجهة الأنظمة الرديكالية العلمانية والدينية على حد سواء هذه المصالح. ويتابع: انديك قائلاً: تحتوي مقاربة إدارة كلينتون بالضرورة على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة. والثبات ناجم عن حقيقة بقاء العديد من المصالح الأمريكية دون تغير على الرغم من التطورات الدرامتيكية التي عصفت بالساحة العالمية في الأعوام الماضية، فما يزال التدفق الحر لنفط الشرق الأوسط بأسعار مقبولة يعتبر من مصالحنا الثابتة، ولنا مصلحة ثابتة في تبادل الصداقة مع الذين

ينشدون علاقات جديدة مع الولايات المتحدة في العالم العربي، ومازلنا نملك مصلحة ثابتة في المحافظة على أمن إسرائيل وبقائها ورخائها، ولأن العلاقات السلمية بين سكان المنطقة تعزز تلك المصالح، كانت لنا مصلحة ثابتة بتسوية عادلة ودائمة وشاملة وحقيقية للصراع العربي الإسرائيلي.

يشير النص السابق أن الإستقرار لايتم إلا بتسوية بين العرب وإسرائيل، ربما في ذلك طبعاً تسوية للقضية الفلسطينية.

ولكن العنصر الأساسي في الإستقرار هو بقاء اسرائيل قوية، لماذا لأن هناك ما يمكن أن يهدد هذه المصالح. أما وأن المنطقة بعد نهاية الحرب الباردة قد نخت بما فيه الكفاية، فإن استقراراً ضرورياً للحفاظ على ما جرى الذي يهدده الصراع العربي - الإسرائيلي. فإن التسوية إذاً لابد وأن تحقق التسوية أمريكياً مصالح إسرائيل الأمنية، والإقتصادية طالما أن بقاء إسرائيل دولة قوية ودولة رخاء من أولويات الإستراتيجية الأمريكية في الشرق العربي. ولكن أية تسوية تريد أن تحقق ذلك لابد وأن تتعامل مع عناصرها المتعددة. إذ ليست اسرائيل هي العنصر الوحيد، وبالتالي إن تسوية مهما كانت لصالح إسرائيل فإن إسرائيل ستفقد معها جزءاً مما احتلته عام ١٩٦٧، أولاً، ثم ستقدم نوعاً من السيادة ولو جزئياً للجانب الفلسطيني.

من وجهة نظر صهيونية كلاسيكية كل تسوية إذاً مهما كانت لصالح إسرائيل ستفقدها جزءاً من عناصر ايديولوجيتها لاسيما التوسع.

على مستوى الوطن العربي فإن القضية الفلسطينية لم تفقد بعد كمايظن البعض بعدها القومي وخاصة لدى الشعب. والسلام مع الدول العربية ثمنه السلام مع الفلسطينيين رغم ما يظهر الآن من اتفاقات سلام مع مصر والأردن.

فالدولة الأكبر والتي عقدت سلاماً مبكراً مع اسرائيل رسمياً مازالت تعتبر القضية الفلسطينية وحلها جزءاً من سياستها العربية، كما تعتبر السلام بين اسرائيل وسورية أمرٌ مرتبطاً بسياستها العربية، وشعبياً فإن الصلح الذي عقد لم يحقق الأهداف المرجوة منه.

ولايمكن تحقيق سلام مع سوريا بشروط اسرائيلية اطلاقاً، فالسلام دون كامل الجولان على الأقل أمر مستحيل سورياً.

ناهيك عن عدم قبول سوريا بتسوية فلسطينية - اسرائيلية كيفما اتفق بل على العكس من ذلك الحل العادل وتقرير المصير وانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلت عام ٦٧ أمرٌ ثابت في زاوية الرؤية السورية للمشكلة.

وليس في طاقة العرب الذين ليس لهم حدود مباشرة مع فلسطين القبول بما هو اسرائيلي،

والنقطة الأبرز هنا أن كل الإتفاقات التي عقدت عربياً مع إسرائيل هي اتفاقات لاتحوز على اعتراف الناس - البشر. في وضع عربي لم يحصل بعد على استقراره السياسي.

النقيض المباشر لدولة اسرائيل هم الفلسطينيون الذين مهما كانت ظروف العرب سيئة يشعرون بعمق انتمائهم القومي، كما أن العرب كافة، كشعب ينظرون إليهم على هذا النحو، وهذا ما يجعل الفلسطيني الآن وفي المستقبل أكثر ثقة بعوامل قوته.

ولكن لو أخذنا هذا الحد النقيض لإسرائيل وهو الحد الأشد فتكاً بها تحركه ثلاث أفكار رئيسية لاسبيل إلى تجاوزها:

أولاً: فكرة العودة: وهي ليست فكرة اللاجئين الفلسطينيين فقط وهذا أمرٌ مهم، بل هي فكرة تحرك الشعب الفلسطيني في كل أنحاء وجوده الجغرافي.

فكرة العودة تبقي إسرائيل مهما حصلت على شرعية دولية غير شرعية في احتلالها أرض الغير وطرد السكان الأصليين منها فكرة الإستقلال الوطني وتأسيس الدولة ذات السيادة.

وبالرغم من أن المقصود الشائع من الدولة هي دولة في حدود الأرض الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧ غير أنها صارت مطلباً وطنياً فلسطينياً.

فكرة القضاء على التمييز العنصري الذي تمارسه على الشعب الفلسطيني في حدود ما احتل عام ١٩٤٨. لأن من شأن إلغاء التمييز العنصري، إعطاء الفلسطيني حق المواطن الكامل بالعمل والملكية والوظيفة الخ.

وهذا ما يلغي الطابع اليهودي للدولة آجلاً أم عاجلاً لاسيما أن التزايد السكاني للفلسطينيين في الداخل من شأنه وبعد زمن ليس بالطويل أن يخلق توازناً ديمغرافياً لاحل له إطلاقاً.

إذاً جميع الوقائع تثبت مأزق عدونا، مأزق في أن جميع الحلول الممكنة هي من وجهة نظر اسرائيلية تشكل خطراً على مستقبل اسرائيل. والسبب في ذلك أن اسرائيل دولة شاذة في المنطقة، لاتمتلك إطلاقاً شروط بقائها ولهذا كلما إزداد مأزق اسرائيل إزداد تطرفها وكلما إزداد تطرفها إزدادت أزمتها.

ترى كيف يمكن التعامل مع عدو كهذا مازال يعيش وسيظل يعيش مأزق المصير؟ كيف نواجه العدو فلسطينياً وعربياً في آن معاً؟

ما هي احتمالات مواجهة الصهيونية واسرائيل لهذه الوقائع؟ تخلق فكرة العدل الأوروبية المتأخرة، واقعاً جديداً في علاقة أوروبا باسرائيل: تفقد اسرائيل فيها أولاً صورة الدولة «الحَمَل» التي تواجه الذئب العربي، ولاشك أن وسائل الاتصال المرئية، والتي أظهرت العنف الاسرائيلي - العنصري الذي مورس على الشعب الفلسطيني ويمارس حتى الآن، وخاصة في مرحلة اتقاد الانتفاضة - قد ساعدت على رسم الصورة الحقيقية للعدو لدى الأوروبيين البسطاء.

وفكرة العدل تقوم على أساس وجود دولتين - اسرائيلية وفلسطينية. الاسرائيلية قائمة. إذاً لا يبقى إلا توفير شروط الدولة الفلسطينية. أهم هذه الشروط الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة، وتأسيس سلطة فلسطينية تأخذ على عاتقها تطوير هذه الدولة.

هذه الحدود الدنيا للموقف الأوروبي تقلق الجانب الأكبر من القوى السياسية الاسرائيلية في فلسطين المحتلة. ولهذا فإن أصحاب القرار هناك يرفضون مشاركة أوروبا بأية تسوية ممكنة مع الفلسطينيين.

ولكن من الصعب تجاهل أوروبا، هنا يظهر جانب آخر وخاصة لدى الأحزاب اليسارية ألا وهو: عدم الاطاحة بالموقف الأوروبي الذي مازال مهماً بالنسبة إلى اسرائيل، سياسياً واقتصادياً. وفي ظني أن الموقف الأوروبي هو عامل اضعاف للسياسة الصهيونية على المستوى العالمي وعلى المستوى الاقليمي.

الأمر أكثر تعقيداً فيما يتعلق بفكرة الاستقرار الأمريكية. قبل كل شيء يجب أن نعلم أن: الخلاف الأمريكي الاسرائيلي هو خلاف الحلفاء المحبين قبل كل شيء، ولهذا فإن رد الفعل الأمريكي على أي موقف اسرائيلي مختلف مع آليات تحقيق «الاستقرار» لن يصل إلى حد القطيعة. ولهذا لا داعي لاستغراب العرب من الدلال الذي تحيط به أمريكا اسرائيل.

ولكن الخلاف ليس جوهرياً.

فأمريكا تريد اسرائيل قوية وتتمتع بالرخاء، لكنها لا تريد للمنطقة أن تنعتق من مشكلات بسبب القضية الفلسطينية. ولهذا: فإن اسرائيل والصهيونية ستحاولان جاهدتين أن يتحقق الاستقرار الذي تنشده أمريكا بأقل الخسائر من جانب اسرائيل.

ولكن مخطىء من يظن أن لاسرائيل قوة قادرة فيها على معاندة الولايات المتحدة الأمريكية المركز الوحيد الآن الذي يحافظ على قوة اسرائيل ووجودها. وبالتالي إن التسوية أمريكياً هي بالضرورة لصالح اسرائيل، رغم ما يبدو في الظاهر من خلاف أمريكي اسرائيلي، لأنه خلاف مع حجم المكاسب التي ستحققها اسرائيل وحجم الامتيازات التي ستفقد جزءاً منها.

أما فيما يتعلق برؤية الصهيونية للموقف العربي فهناك موقفان: موقف «العمل» وما عبر عنه شمعون بيرز في كتابه «الشرق الأوسط الجديد»، وموقف اليمين كله وهذا ما عبر عنه كتاب نتنياهو «مكان تحت الشمس».

صهيونية بيرز تنطلق من ضرورة مصالحة تاريخية بين العرب واسرائيل عبر اعادة تشكيل المنطقة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، تزول معها حالة العداء العربي لاسرائيل وتبقى اسرائيل الدولة المركز والأقوى في المنطقة.

امكانية كهذه من وجهة نظر بيرز قابلة للتحقق بسبب عوامل ثلاثة:

١- ضعف الجانب العربي وغياب رديكالية أكثر الأنظمة العربية إذ لا يبقى في المنطقة إلا دول قليلة ذات توجه قومي كسوريا وليبيا.

٢- توافق الولايات المتحدة الأمريكية مع مشروع كهذا، لأنه يحقق لها عنصر الاستقرار

الاستقلال بأن واحدة.

٣- اشراك أوروبا في تأسيس هذا النمط الجديد من الشرق الأوسط، عبر المساعدات المالية والدعم السياسي.

أما موقف نتنياهو: فهو المنطلق من أن حالة عداء العرب لاسرائيل حالة لا سبيل إلى القضاء عليها فاسرائيل من وجهة نظر عربية كائن غريب محتل، وبالتالي لا أمل في تحقيق مصالحة تاريخية على غرار مصالحة بيرز، وهذا يتطلب قبل كل شيء أن تظل اسرائيل معولة على القوة لردع العرب وهي اللغة الوحيدة التي ينسونها.

والسلام هو ذلك الذي يفرض على العرب فرضاً ولا يطلب طلباً وإذا كان حزب العمل يرى أن السلام مع سوريا أمرٌ ضروري حتى ولو كان ثمنه إعادة الجولان إلى الوطن الأم فإن اليمين المتطرف- دينياً كان أو علمانياً، يرى أن السلام مع سوريا غير ممكن، لأن الجولان هو الحاجز الأمني الضروري لإسرائيل، وبالتالي فإن اعادته إلى سوريا سيعرض اسرائيل للخطر في المستقبل.

وهذا يعني استمرار امكانية الحرب بين الدولة العنصرية وسوريا. أما فيما يتعلق بالموقف من القضية الفلسطينية، فهو الأعقد والأخطر.

أولاً: يتفق كل السياسيين الصهاينة على رفض فكرة العودة للفلسطينيين الذين أجلوا بالقوة عن أرض وطنهم، عملياً بقاء القضية الفلسطينية دون حل، لأنه تاريخياً لا حل إلا بالعودة.

وفي الوقت الذي ينظر فيه بعض الاسرائيليين الصهيونيين أن هناك مشكلة لاجئين فلسطينيين، ولكنهم يضعونها في اطار مشكلة انسانية، قابلة للحل الانساني: كتحسين ظروف المخيمات، والتأهيل، والتعويض، والتوطين.

يتجاهل جزءٌ كبير منهم هذه المشكلة وكأنها لم تحصل اطلاقاً. مرددين الكذبة الكبرى شعب بلا أرض جاء إلى أرض بلا شعب.

أما فكرة الدولة الفلسطينية: فإن حزب العمل وأحزاب يسارية أخرى لا يرفضون قيام دولة كهذه كحل نهائي للمشكلة الفلسطينية والحفاظ على طابع الدولة اليهودية، ومنع الاحتكاك بين اليهود والفلسطينيين على ربط اقتصادي - ثقافي بين الدولتين. وغالباً ما ستكون هذه الدولة من وجهة نظرهم منقوصة السياسية: وخاصة مع بقاء الأمن بيد اسرائيل، ومع تحكم اسرائيل بالمياه، ومنع الدولة من تكوين جيشها الوطني، هذا ناهيك عن أن القدس ستبقى موحدة وعاصمة «أبدية» لاسرائيل.

أما السلطة الحاكمة الآن في «اسرائيل»، فإنها ترى أن هناك خطراً كبيراً على قيام دولة فلسطينية مستقلة، إذ من شأن دولة كهذه أن تؤسس لفكرة العودة أولاً.

ثانياً إن دولة كهذه، تقوم على ارض اسرائيل التاريخية كما يدعون وهذا يعني أن الصهيونية قد فقدت أهم عناصرها الأيديولوجية «أرض اسرائيل الموعودة».

ثالثاً: إن الدولة لا تستقيم مع بقاء المستعمرات، وإذا قامت الدولة، فإن بقاء المستعمرات أمرٌ مستحيل، حتى ولو ضمت هذه المستعمرات بسكانها إلى الدولة.

الحل إذاً حكم ذاتي للسكان خارج أي حق في الأرض والموارد. أي تمييز عنصري بامتياز.

وتظل فكرة الغاء التمييز العنصري داخل فلسطين المحتلة عام ٤٨ وهي فكرة يرفضها أغلب اليساريين وجميع اليمينيين.

لأن التمييز العنصري أصلاً نشأ بنشأة الدولة ذاتها والتي توالى حزب العمل وتشعباته على السلطة فيها لسنوات طوال.

لاشك أن الشعب العربي الفلسطيني لم يحقق حتى الآن أهدافه. سواء أكانت أهداف مرحلية في قيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة العنصرية، أو كانت أهداف استراتيجية التحرير الكامل للتراب الوطني الفلسطيني. ولكن يجب أن نميز بين مرحلتين في كفاح الشعب الفلسطيني:

١- مرحلة الثورة المسلحة.

٢- مرحلة الثورة الشاملة.

إني لاعتقد أن مرحلة الثورة المسلحة التي بدأت منذ عام ١٩٦٥ واستمرت حتى عام ١٩٨٢، قد حققت انجازاً مهماً على مستوى التاريخ. ألا وهو: أن القضية الفلسطينية صارت واقعة مادية عبر م.ت.ف وعبر الاعتراف العالمي بأن هناك قضية شعب يسعى نحو تقرير مصيره، وعبر تحول القضية إلى قضية أمة كاملة.

هذا الانجاز هو الذي جعل الفلسطيني طرفاً أساسياً في أي حل لقضيته. أي أن الثورة والفصائل والأحزاب لم تكن وقائع مجانية كما يعتقد البعض، إلا إذا نظرنا إلى الانتصار من زاوية الانتصار الكلي. فمفهوم الدولة لا يمكن تصوره دون الثورة. الدولة كمرحلة انتقالية لابد منها. ولماذا يجب أن يسقط مفهوم الدولة مفهوم الثورة؟.

على العكس من ذلك ان مفهوم الثورة وممارستها هو الذي يحقق مفهوم الدولة واقعاً.

هنا نصل الآن إلى مفهوم الثورة الشاملة. أقصد بمفهوم الثورة الشاملة وحده اشعال الكفاح الوطني الفلسطيني في الداخل والخارج.

هذه الثورة تتعين الآن بصيغ متعددة. صيغة الانتفاضة الممكنة دائماً، صيغة العمل العسكري الذي يحصل الآن عبر عمليات مختلفة داخل الوطن، صيغة الكفاح السلمي للفلسطيني داخل «اسرائيل».

هذه الثورة مازالت تتشخصن، أي لم تأخذ صيغتها النهائية. أما من حيث امكانية قيام دولة فلسطينية فهذا أمرٌ من قبيل تحصيل الحاصل ولكنه ليس أمراً سريع الوقوع. إذ لا يمكن الحكم على امكانية قيام الدولة استناداً إلى الرفض الاسرائيلي لها أو الحصار القائم الآن على الضفة وغزة. فالدولة صارت مطلباً فلسطينياً محدداً وعالمياً وعربياً بل وصار جزءاً من وعي بعض اليهود أنفسهم.

فاستمرار الكفاح وتحقيق خطوات على طريق الثورة الشاملة مع سياسة وطنية فلسطينية في ظل التأييد العالمي لا محالة سيحقق الدولة كحلقة وسيطة.

كل حديث عن المستقبل يصير رجماً بالغيب إذا لم يكن حديثاً عن الإمكانات التي ينطوي عليها الحاضر، ولهذا فإني لأعتقد أن الصراع العربي الصهيوني ليس هو العامل الأوحد الذي سيحدد مستقبل المنطقة، بل هو عامل من جملة عوامل.

فالوطن العربي يعيش الآن تناقضات متعددة وخيارات متنوعة. فهناك تناقض السلطة السياسية الراهنة مع مستوى تطور المجتمعات العربية. فالدولة - السلطة القطرية التي نشأت في ظروف تاريخية محددة لم تعد قادرة الآن على التعبير عن طموحات الناس وأهدافهم ومصالحهم ومستوى وعيهم الذي تطور بشكل موضوعي.

وحل هذا التناقض لا يحمل إلا إمكانية واحدة ألا وهي تغيير شروط انتاج السلطة بما يتوافق مع هذا التطور. فالرفض الشعبي لآلية ممارسة السلطة يتم الآن بأشكال متعددة وصامتة أحياناً بفعل آلية القمع الشديدة.

ومن الصعب على سلطة تعاند التاريخ أن تستمر إلى ما لانهاية. والميل الآن يتعاظم نحو انتاج سلطة ديمقراطية وطنية. وفي ضوء هذا الحل لتناقض السلطة مع المجتمع تحدد ملامح حل الصراع العربي الصهيوني.

وآلية ذلك، أن في الدولة الديمقراطية الوطنية يخلق المواطنون الأحرار وسائل كفاحهم القومي.

ولا يمكن اطلاقاً مواجهة مشروع استعماري استيطاني إلا بمشروع قومي ديمقراطي، وهذه امكانية قائمة لا أعرف زمن تحققها.

وإذا كانت مشكلة التبعية، وهي العلاقة غير المتكافئة مع الغرب والولايات المتحدة، لا تحل إلا بتوفير سبل تنمية قومية، فإن الدولة الوطنية الديمقراطية هي المؤهلة لانجاز تكتل عربي جامع لاحداث هذه التنمية. وفي ضوء حل هذه المسألة تكتسب المنطقة عنصر الثورة المادية لمواجهة الحركة الصهيونية.

وهكذا، فإن وحدة الكفاح الوطني القومي والديمقراطي في كل قطر وعلى مستوى الأمة هو الامكانية الوحيدة للمواجهة الحقيقية.

ووحدة الكفاح هذه امكانية قابعة في قلب المجتمع العربي لم تحصل حتى الآن على شخصية سياسية فاعلة.

بل هي قائمة على مستوى الوعي فقط.

وانتقال الوعي من حالة الوعي غير الفاعل إلى حالة الوعي الفاعل يحتاج إلى حركة سياسية، أو حركات سياسية هي الآن في طور التكون.

فليس الأفق محدوداً كما يظن البعض، وليس المشروع الصهيوني بقادرٍ على مصادرة فاعلية الناس.

وإذ يدخل الصراع مع الصهيوني كجزء من مشروع أكبر تغدو امكانية الانتصار أكثر فأكثر.. ■■

• كاتب فلسطيني/ استاذ في كلية الفلسفة - جامعة دمشق.

لكي نجيد التذكر..

د. سيد البحراوي*

منذ عامين استعد الكيان الصهيوني للاحتفال بمرور خمسين عاماً على تأسيس دولته على أرض فلسطين، وبالطبع جاء احتفالهم عالمياً قوياً. أما نحن فقد لحقنا به هذا العام، وجاء تذكرنا لنفس الحدث لكن من وجهه الآخر، محدوداً، ومشوباً بكثير من المشكلات، والسبب الأساس لذلك - من وجهة نظري - هو أننا لا نمتلك الآن - على مستوى الوعي الآني سوى التذكر أو التحسر.

لذلك كنت متردداً في المساهمة في هذا التذكر. ومازلت أعتبر هذه السطور خارج سياق التذكر والذكرى، بقدر ما هي محاولة للإمساك بجذر الداء الذي نخر العظم خلال هذه الأعوام الخمسين، وقبلها بالطبع.

ورغم أنه لا داعي للحديث تفصيلاً عن التاريخ، فلاشك أن إنشاء دولة الكيان الصهيوني كان أمراً منطقياً في ضوء هيمنة الاستعمار على المنطقة خلال القرن السابق على ذلك التاريخ. وبسبب هيمنة طبقات اجتماعية (عربية) على الحكم، ليست عربية إلا بالاسم، في حين أن مصالحها - في التحليل الأخير - لم تكن متناقضة جذرياً مع المصالح الاستعمارية.

وبعد قيام الدولة، في نفس الوقت الذي وصلت فيه نظم حكم وطنية إلى السلطة، فإن المواجهة بين الدولة الصهيونية وهذه النظم، كانت محكومة بتوازن قوى، تزداد فيه قوة الكيان الصهيوني باطراد مع دعم القوى المسيطرة على العالم (الاستعمار الجديد) وتضعف فيه باطراد قوة النظم العربية مع تراجع نزعتها الثورية المؤقتة، وارتدادها إلى مصالح الطبقات البرجوازية التي كانت تحكم العرب قبل قيام الدولة. ولذلك كان من المنطقي - أيضاً - أن تزداد هيمنة اسرائيل وتتضاعف قوتها وتتأكد رغبتها في التوسع، وقدرتها على تحقيقه، وإن بأشكال مختلفة، ليس من الضرورة أن تكون فقط توسعاً جغرافياً.

الآن تقف اسرائيل وحدها باعتبارها القوة الوحيدة في المنطقة التي تستطيع أن تفرض ارادتها، وتبدو فلسطين أطلالاً قديمة، ربما يصعب تبين آثارها. وما وقع في أيدي السلطة (الوطنية) الفلسطينية ليس إلا شتاتاً من بقاع متباينة، تمارس السلطة الوطنية (بقايا حركة التحرر الوطني) فيها وظيفة العمدة الاسرائيلي (في نهاية المطاف).

هذا هو الوضع القائم الآن، ليس بعد خمسين سنة من ضياع فلسطين، وإنما بعد قرنين من الزمان من أول غزوة استعمارية على الشرق، أي أنه وضع ناتج عن هيمنة توازن محدد للقوى خلال هذين القرنين. وإذا كان لنا أن نتذكر تذكراً صحيحاً، وعلمياً، تذكراً قادراً على أن يخرجنا من إطار وضع من لا يملك غير الذكرى، فإن علينا أن نعمل على اعادة موازين القوى إلى وضعها الطبيعي، أي إلى الوضع الذي تستطيع فيه الطبقات الحاكمة تمثيل القوة الحقيقية القائمة في الوطن العربي طبيعياً وبشرياً، مادية ومعنوية والجميع يعرفون أن هذه القوة أعظم بكثير مما هو مسموح لنا به - منها - وأنها دون شك أعظم بكثير من قوة اسرائيل مهما كانت المساعدات المادية والمعنوية التي تلقاها من كل العالم علناً أو سراً، وبدرجات متفاوتة.

من هذه الحالة - وحدها - يحق لي أن أشارك في ذكرى ضياع فلسطين، لأن فلسطين سوف تكون قد عادت أو على وشك أن تعود ■■



* كاتب مصري

٥٠ عاما على قيام إسرائيل

تساؤلات ما زالت تطرح نفسها

ماجد كيالي

بعد نصف قرن من النشاط المنظم والمعقد استطاعت الحركة الصهيونية التي انطلقت من مؤتمر بال في سويسرا (آب ١٨٩٧) من إعلان قيام دولتها على حوالي ٧٣٪ من الأراضي الفلسطينية،في منتصف أيار 1948؛ وبرغم كل الجهود السياسية والثقافية والاقتصادية التي بذلتها هذه الحركة لإقامة مشروعها،فإنها لم تستطع تأسيس كيانها وفرض وجوده، آنذاك، إلا على أساس ركيزتين أساسيتين هما: الاستيطان الإحلالي والقوة العسكرية،اللتان استندتا أساسا إلى دعم وضمانة الدول الإمبريالية الكبرى (خصوصا بريطانيا أولا،والولايات المتحدة الأمريكية بعدها). وهذا يعني أن إسرائيل لم تنشأ نتيجة التطور التاريخي: الاجتماعي الاقتصادي الثقافي للتجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين،أي أنها لم تنشأ بفعل قواها الذاتية،وتاليا لذلك فهي نشأت على الرغم من إرادة أهل الأرض الأصليين، مما أثر على طبيعة إسرائيل ودورها وخلق تناقضات عديدة في مختلف نشاطاتها.

الآن وبعد مرور قرن على قيام الحركة الصهيونية ومن ضمنها 50 عاما على إعلان قيام إسرائيل،ما زالت بعض الأسئلة تطرح نفسها بإلحاح وكلها تدور حول: ماهية المشروع الصهيوني،و جدوى قيام إسرائيل،ومحصلة كل ذلك على اليهود أنفسهم(داخل إسرائيل وخارجها)، وعلاقة هذه الدولة المصطنعة بإطارها الإقليمي والدولي؛ومازالت هذه الأسئلة تطرح نفسها وتبحث عن أجوبة لها.

منذ تأسيسه قام المشروع الصهيوني على فكرة أساسية وهي إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لحل «المسألة اليهودية» في العالم،وهكذا تم اعتبار «اليهودية» نسقا فوق الجغرافيا والتاريخ واللغة والثقافة المشتركة!، أي أنها ليست مجرد دين، وإنما هي رابطة قومية تصهر جميع اليهود في مختلف القارات والبلدان في بوتقة شعب واحد بغض النظر عن انتماءاتهم القومية وخلفياتهم الثقافية والتاريخية!، ومن هنا نشأ التناقض المستمر حتى الآن بين الاتجاه العلماني والديني في إسرائيل، وليس بمستطاع العلمانيين حل هذا التناقض إلا على أساس التخلي عن الطابع اليهودي لإسرائيل واعتبارها دولة لمواطنيها وهذا ما لم تنضج له الأوضاع حتى الآن.

ومن المعروف أن خصائص الدين اليهودي وطقوسه المعقدة، وطبيعة الوظيفة الاقتصادية - الاجتماعية للنخب اليهودية، ساعدت على انعزال اليهود وشكلت ملامح مشتركة لهم في غيتوات،عزز منها نظرة الريبة والحذر اللتين كانت تنظر بهما إليهم الشعوب الأوروبية (المسيحية) والتي طالما صاحبها ممارسات من الاضطهاد بحق اليهود نشأت على خلفيتها نزعة اللاسامية المعادية لليهود.

وهكذا فإن «المسألة اليهودية» هي مسألة أوروبية بالأساس،لم تعرفها الأقطار العربية،وعندما حاولت النخب اليهودية حل هذه المسألة على أساس قومي (للحؤول دون مسار ذوبان اليهود)، بإيجاد وطن قومي لليهود جاء الحل خارج أوروبا، وعلى حساب الشعب العربي الفلسطيني. وكان على هذا الحل من وجهة نظر القادة الصهاينة أن ينسجم مع طموحات الدول الكبرى، وأن يلبي حاجات التحالف الصهيوني مع الدول الاستعمارية، لتأمين كل إمكانيات الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري للمشروع الصهيوني.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال،هو هل استطاعت إسرائيل تحقيق المنطلقات الصهيونية بعد نصف قرن على قيامها؟ الأكيد في الإجابة على هذا السؤال هو أن العامل الذاتي اليهودي لم يستطع ولم يكن بإمكانه لوحده إقامة دولة إسرائيل، كما أن هذه الدولة لم تستمر بفضل هذا العامل، بقدر ما أنها قامت واستمرت بفضل الدعم الغربي ثم بفضل هشاشة البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المنطقة العربية.

فمن ناحية الاستيطان، (وهو ركيزة أساسية للمشروع الصهيوني) لم تستطع الحركة الصهيونية تجميع سوى بضع مئات الآلاف من يهود العالم في فلسطين، برغم ظروف الحرب العالمية الثانية، إذ تدفقت الهجرة بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أساسا، ولولا تقييد الهجرة إلى هذا البلد لكان نصيب الهجرة اليهودية إلى فلسطين أقل من ذلك بكثير بالرغم من كل الدعم الذي

كان يلقاه اليهود لتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين من قبل المنظمات الصهيونية الموزعة في العالم.أما بالنسبة ليهود الأقطار العربية (الذين يشكلون حوالي 40% من يهود إسرائيل اليوم) فلم يهاجر منهم إلى فلسطين قبل 1948 إلا أعداد ضئيلة برغم من أن المجال متاح لهم؛أي أنهم لم يستجيبوا لنداءات الحركة الصهيونية التي هي حركة للنخب اليهودية في أوروبا أساسا، إذ أن هجرتهم الأساسية وبأعداد كبيرة لم تحصل إلا بعد إعلان قيام إسرائيل (بعد 1948)، وبسبب تداعيات الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وبدوافع أخرى مختلفة.

واليوم يقطن في إسرائيل حوالي 4,5 مليون يهودي من أصل 13 مليون يهودي في العالم.وحتى العام، 1990 فإن محصلة الهجرة إليها كانت سلبية، بسبب الأعداد الكبيرة من النازحين منها،ولم يوقف هذا المسار،كما هو معروف، سوى موجات الهجرة الكبيرة من بلدان الاتحاد السوفيتي (السابق) بسبب التداعيات الناجمة عن انهيار النظام الاشتراكي.

أما الهجرة إلى إسرائيل من البلدان الأوروبية أو من أمريكا التي يوجد بها أكبر تجمع يهودي في العالم، فهي محدودة جدا وتقتصر على أوساط اليهود المرتبطين بنشاط تنظيمي أو سياسي مع القوى السياسية اليمينية والدينية المتشددة.

وهكذا لم تعد إسرائيل تستطيع (برغم كل ما تروجه) من تقديم بوصفها دولة لكل يهود العالم.فلا أغلبية اليهود جاءوا إليها، ولا هم يعتبرونها دولتهم الأصلية، والأنكى من هذا وذاك فإن وجود إسرائيل خلق انشقاقا في الأوساط اليهودية العالمية، فبدلا من تعزيز ادعاءات الأمة اليهودية، نشأت ظاهرة الأمة الإسرائيلية، ومن ضمن ذلك نشأت أسئلة أخرى جديدة من نوع، لمن الأولوية للأمة الإسرائيلية أم للأمة اليهودية؟، ثم هل إسرائيل مركزا ليهود العالم،أم أنها أحد أهم مراكزهم؟ كما نشأت أسئلة وتناقضات أخرى حول مفهوم الأمة بين الأمة الدينية (اليهودية) والأمة العلمانية (الإسرائيلية) وصولا إلى تعريف من هو اليهودي؟، كما أن النفوذ الكبير للتيار الأرثوذكسي اليهودي في إسرائيل ومحاولته احتكار كل ما يتعلق بالشؤون المدنية والتعليمية لليهود وعدم اعترافه بالتيارين الإصلاحي والمحافظ يزيد من الانشقاق في أوساط اليهود، خصوصا وأن هذين التيارين يمثلان الاتجاه الأغلب من اليهود المتدينين خارج إسرائيل.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد،فعملية الانصهار المجتمعي للمستوطنين اليهود في إسرائيل، باعتبارها عملية مصطنعة، لم تصل حتى الآن إلى المستوى المطلوب؛ والتناقضات بين اليهود الشرقيين جهة، واليهود الغربيين من الجهة الثانية ما زالت قائمة، وتبرز بحدة بين فترة وأخرى،كما حافظت الطوائف على العادات والثقافات التي جاءت معها من بلدانها الأصلية؛ وتكرس ذلك أحيانا على شكل أحزاب وتكتلات سياسية. وأيضا هناك التناقض بين الجمهور الديني والجمهور العلماني وغير ذلك من التناقضات المجتمعية.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد بقيت إسرائيل في المحصلة من هذه الناحية مشروعا خاسرا (من الناحية المباشرة) وهي من الأساس ليست مشروعا استيطانيا اقتصاديا، (على غرار المشروع الاستيطاني السابق في الجزائر أوفي جنوب أفريقيا) فهي من الأساس مشروع سياسي يسعى للوصول إلى تمويل نفسه بنفسه، (وهذا هو مغزى مشروعات التطبيع والتعاون الشرق أوسطي). ولكنه منذ قيامه وحتى الآن ظل يعتمد على الدعم الخارجي المالي والاقتصادي والتكنولوجي والعلمي، إن من المنظمات الصهيونية المنتشرة في أوساط الجاليات اليهودية في العالم، أو من الدول الكبرى، وبالأخص المساعدات الأمريكية، وهذه المساعدات المباشرة وغير المباشرة هي التي تفسر إلى حد كبير التطور الاقتصادي في إسرائيل (من بين أسباب أخرى) وتبلغ حصة الفرد الإسرائيلي من المساعدات المباشرة حوالي 16000 ـ 2000 دولار سنويا، بدون أن نحسب عوائد الدعم الاقتصادي والتكنولوجي والعلمي والعسكري والسياسي، هذا الدعم الذي يمكن إسرائيل من تمويل العجز في ميزانها التجاري والعجز في موازنتها، وهو الذي يرفع من مستوى معيشة مواطنيها وتأمين خدمات ممتازة لهم لترغيبهم في البقاء وتشجيع آخرين على الهجرة إليها.

التناقض الآخر الذي وجدت إسرائيل نفسها إزاءه هو عدم قدرتها على تهويد فلسطين بشكل كامل، باعتبارها «أرضا بلا شعب»، فلم تصمد هذه المقولة المزعومة في امتحان التاريخ،وان نجحت إسرائيل في المرحلة الأولى بوسائل القوة والإرهاب في إجلاء ثمانمائة ألف فلسطيني من أرضهم ومساكنهم في عامي 1947 ـ 1948؛ ومع ذلك فإن إسرائيل وجدت نفسها أمام واقع وجود أقلية فلسطينية ضمن الحدود التي قامت فيها إسرائيل، وهذه الأقلية (بسبب التكاثر الطبيعي) أصبحت كتلة بشرية تساوي مليون مواطن شكلت هاجسا كبيرا لإسرائيل ولمشروعات إقامة دولة يهودية «نقية»، كما وجدت إسرائيل نفسها،بعد حرب 1967،وبعد احتلالها لكامل الأراضي الفلسطينية ومعها أراض عربية (سيناء والجولان) عاجزة عن تهويد هذه الأراضي، بسبب ضعف الهجرة اليهودية في السبعينات والثمانينات، وأساسا بسبب بقاء الفلسطينيين في أراضيهم، وبسبب مقاومتهم العنيدة للاحتلال، وأيضا واجهت إسرائيل مشكلة الشرعية حيث لم تعترف دول العالم بواقع الاحتلال.



باحتلالها لكامل فلسطين عام 1967، واجهت

إسرائيل مأزقا جديدا يتمثل بالموقف من قضيتي الأراضي الجديدة (المحتلة) ووجود الشعب الفلسطيني، وحتى الآن لم تستطع إسرائيل إيجاد إجماع حول هاتين القضيتين فلا هي استطاعت ضم هذه الأراضي ولا هي راغبة في التخلي عنها، ونجم عن هذا المأزق تغير صورة إسرائيل لدى الرأي العام الدولي حيث ظهرت حقيقتها كدولة محتلة قائمة على الاغتصاب والعدوان، وبرز طابعها العنصري ظاهرا للعيان، وتعمقت عزلتها على الصعيد المحلي،وبرزت الخلافات بين أطراف نخبها السياسية.

ولا شك أن أساس هذا التخبط هو اختلاف المعادلة، حيث فشلت إسرائيل في عملية التهويد، فالمستوطنون لم يأتوا بأعداد كبيرة، وبرز ما يسمى بالخطر «الديمغرافي» الناجم عن وجود مليون فلسطيني في أراضي (48) وحوالي مليوني فلسطيني في الأراضي المحتلة عام 1967 بكل ما لذلك من تداعيات على صورة إسرائيل ونظامها «الديمقراطي»، خصوصا وأن الفلسطينيين الغائبين والمغيبين ظهروا بقوة من خلال صمودهم في أرضهم ومن خلال مقاومتهم للاحتلال، وأصبح للأرض شعب يطالب فيها ويطالب بالحرية والاستقلال، وأصبح لهذا الشعب عنوان وكيان سياسي يوحده ويعبر عنه هو م.ت.ف.

على خلفية كل ذلك،وجدت النخب السياسية الإسرائيلية نفسها حائرة في تحديد مصائر إسرائيل بين عدم قدرتها على دوام الاحتلال من الناحيتين الأخلاقية والمادية، وبين التخلي عن المنطلقات التقليدية الصهيونية ودعاوى «أرض الميعاد» و«أرض بلا شعب»، ثم بين محاولات التوفيق بين الجانبين، وهو الذي يشكل أساس الانشقاق العمودي في إسرائيل اليوم.

فضلا عن كل ما تقدم، لم تعد إسرائيل قادرة على طرح نفسها باعتبارها ملاذا آمنا ليهود العالم وفقدت صدقيتها في هذا المجال،كما ضعفت صدقيتها باعتبارها أداة لحماية المصالح الإمبريالية في المنطقة؛ لأسباب ذاتية ولأسباب تتعلق بمناعة الأوضاع العربية (قياسا للسابق). وهكذا باتت إسرائيل بحاجة ماسة لدعم يهود العالم من كل النواحي كما باتت بحاجة إلى حماية الدول الإمبريالية وخاصة الحماية الأميركية! أي أن إسرائيل أصبحت إلى حد ما، وبمعنى ما، عبئا على اليهود أنفسهم وعلى الدول الكبرى. وهذا ما يفسر حماس هذه الأوساط لعملية التسوية.

وعليه فإن إسرائيل تجد نفسها بعد نصف قرن على قيامها حائرة بين ضرورة مواكبة



التغييرات الدولية والإقليمية وإعادة تعريف حدودها الجغرافية والسياسية والبشرية والثقافية،وبين الاستمرار في لغة الأسطورة والغطرسة والقوة والخروج على الشرعية بما في ذلك شرعيتها هي المستمدة من القرار 273، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيار/1949؟

وبين هذا وذاك تبرز خيارات أخرى بديلة تتعلق بقيام دولة كونفدرالية مع الفلسطينيين للالتفاف على العناصر الأساسية للقضية الفلسطينية، وتجاوز قضية حق تقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة الفلسطينية، ولا يستبعد من هذه الخيارات المسارات التي قد تقود (في ظروف ومعطيات أخرى) إلى فرض قيام دولة ثنائية القومية، أو قيام دولة ديمقراطية علمانية في فلسطين.

وارتباطا بقضية إعادة تعريف إسرائيل لحدودها، تبرز مسألة أخرى على غاية في الأهمية تتعلق بتعريف إسرائيل لارتباطها الحضاري، فهل هي دولة غربية، وامتداد للغرب في المنطقة، بكل ما لهذه الكلمة من معنى؟ أم أنها تنتمي إلى حضارة المنطقة؟.

والجواب على ذلك يتطلب من إسرائيل حسم خياراتها بالنسبة لبقائها في إطار غيتو،وعلى شكل دولة «إسبارطية» في المنطقة تتغذى من الخارج، وتحاول فرض نفسها وهيمنتها بناءً على دورها السياسي والوظيفي المرتبط بالمصالح الغربية (خصوصا الأمريكية)، أو أنها ستسير في اتجاه تحولها من دولة مشروع إلى دولة عادية؟ والطريقان مختلفان في نتائجهما إن بالنسبة لطبيعة إسرائيل أو بالنسبة لطبيعة علاقاتها الإقليمية والدولية، وكذلك بالنسبة لمستقبلها ومآلها التاريخي. ولاشك بأن هناك ارتباطا عضويا بين الحسم في الأوضاع الداخلية والنظام السياسي، وعلاقة إسرائيل بيهود الشتات، وتحولها لدولة عادية، وبين رؤيتها لدورها الإقليمي ومسارات اندماجها في المنطقة.

كل ذلك يعني أن المشروع الصهيوني برغم نجاحاته الظاهرة، والتي تعتمد على وسائل القوة والاستناد إلى دعم القطب المهيمن على العلاقات الدولية، فشل في القضايا الأساسية التي طرحها على نفسه منذ قيامه، فلا هو استطاع حل المسألة اليهودية، ولا نجم عنه وجود أمة يهودية، ولا هو استطاع إلغاء شعب فلسطين، كما لم يستطع إقامة دولة يهودية خالصة، ولا استطاع تطويع الوضع العربي إلى المدى المطلوب. وعلى العكس من ذلك فإن الأسئلة ذاتها تعقدت وتفرعت إلى أسئلة أساسية أخرى ما زالت تبحث عن أجوبة لها هذا إذا تجاوزنا سؤالين أساسيين يحددان مستقبل إسرائيل أولهما: حول حقيقة وجود إسرائيل بالنسبة لتحولها من دولة بذاتها (دولة مشروع) إلى دولة لذاتها، وثانيهما يتعلق بمصير الكتلة البشرية الإسرائيلية ومسارات الاندماج والتداخل في المنطقة.

وستبقى هذه الأسئلة تحتفظ بشرعيتها إلى حين إيجاد حل لمختلف التناقضات التي وجدت في قلب المشروع الصهيوني منذ قيامه. ■■

حربنا وحربهم...

نظرة سريعة على بعض الديناميات الصهيونية

خليل جنداوي

في الذكرى الخمسين لاغتصاب فلسطين، تبرز تساؤلات كثيرة تكاد لاتحصى، يختزلها في المحصلة سؤال كبير بحجم الانكسارات العربية المتتالية؛ ما السر الذي يفسر كل هذه الهزائم التي لا تقف عند حد؟... لو حاولنا تسطيح الأمور أو بالأحرى أخذها من جانبها العاطفي سنتساءل: هل عدونا أشجع منا أو قدرته على البذل والتضحية كانت أكبر؟.. باستعراض سريع لتاريخ الصراع العربي الصهيوني سنجد أن الجانب العربي خاض كل معاركه والعدو الصهيوني متفوق سواء من الناحية البشرية أو من حيث التسليح والامكانيات المادية، مع ذلك لم يجبن الشعب الفلسطيني ومن خلفه أمته العربية، وقدموا التضحيات الباهظة المرة تلو الأخرى.. لكن كان من المحتم أن تضع موازين القوى المختلة لصالح العدو ختمها على مسار الأحداث...



لكن الأمور لا تقاس بهذا الشكل، ونفس الشيء يمكن قوله مع مقارنات أخرى من قبيل «عدونا أذكى منا....» فحقائق الحياة ترفض النظريات العنصرية القائلة بتفوق شعب أو عرق على آخر... إذن يجب أن ندقق أكثر في الطريقة التي خاضت بها أمتنا معاركها، حيث كانت مشتتة المواقف، مفككة، ضعيفة، متخلفة، متبجحة،.. غير مسلحة بمعرفة جدية عن الآخر، بل ودون اطلاع كاف على امكانياتها الذاتية... أما العدو الصهيوني فأدار صراعه بطريقة مختلفة تماماً تستحق التأمل...

من يدقق في تاريخ الحركة الصهيونية التي احتفلت قبل أشهر بمرور قرن كامل على انعقاد مؤتمرها الأول في مدينة بازل السويسرية بتاريخ ٢٣ آب ١٨٩٧، سيندهش بالتأكيد من التكرار غير العادي للمفاجآت التي كانت تحدث في اللحظات الصعبة التي عاشتها الحركة الصهيونية أثناء مسيرتها لاغتصاب فلسطين، لتنقلب الأمور في كثير من الأحيان رأساً على عقب. فيتحول الضعف إلى قوة، وموت المشروع إلى ولادة متجددة له، الأمر الذي جعل بعض الصهاينة والمتعاطفين معهم يصفون مثل هذه الأحداث بـ«المعجزات» التي ردوها للارادة الالهية التي تقود «بني اسرائيل» إلى «أرض ميعادهم».

لمزيدٍ من التوضيح يجب التذكر أن الحركة الصهيونية لم تحقق في العقود الأولى من عمرها، نجاحاً ملحوظاً في استقطاب يهود العالم الذين نظر الكثير منهم بحذر وشك وفي أحيان أخرى بعدائية واضحة لهذه الحركة التي عرضت صراحة خدماتها على غالبية الدول الاستعمارية آنذاك «بريطانيا، فرنسا، ألمانيا وحتى تركيا». وإذا كان ثيودور هرتزل قد استند في دعواه لمشروع «الوطن القومي اليهودي في فلسطين» إلى الفرضية القائلة

استحالة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، وهو ما أسماه بـ«المشكلة اليهودية»، فيهود أوروبا الغربية الذين أبدى كثير منهم استعدادهم لدعم هذا المشروع لعوامل عديدة لعل منها تقاطعها مع مخططات ومشاريع استعمارية تناقش في بلدانهم، إلا أنهم قطعاً لم يكونوا جاهزين أبداً للانخراط في المشروع هرتزل أي الهجرة لفلسطين لأسباب عديدة أبرزها الوضع الاقتصادي الجيد الذي يعيشونه، كذلك عدم احساسهم جدياً بوجود «المشكلة اليهودية» في بلادهم، حيث اندمجوا فعلاً في مجتمعاتهم وحصلوا على كل حقوقهم كمواطنين، بل وتبوأ عدد كبير منهم مواقع هامة في كافة المجالات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية... أما في أوروبا الشرقية حيث كانت «المشكلة اليهودية» موجودة فعلاً بسبب سياسات الأسر الحاكمة هناك وخصوصاً في روسيا القيصرية... مع ذلك لم تحقق الحركة الصهيونية هناك إلا نجاحات نسبية، فالغالبية العظمى من اليهود هناك ورغم سوء أوضاعهم المعيشية، لم يقتنعوا أن حل مشاكلهم هو بالهجرة إلى فلسطين، بل آمنوا بأن الحل هو بالإندماج الكامل في مجتمعاتهم، لذلك انخرطت عملياً اعداد كبيرة منهم في الحركات والأحزاب الاشتراكية والشيوعية التي شنت حرباً لاهوادة فيها ضد الأفكار الصهيونية آخذين عليها انعزاليتها ورجعيتها. أما في الحالات التي كان فيها يهود أوروبا الشرقية يفكرون بالهجرة، فإن غالبيتهم كانوا يفضلون التوجه لـ«العالم الجديد» سواء في الولايات المتحدة واستراليا وكندا. وقلة فقط هي التي ذهبت إلى فلسطين.

عند هذه النقطة تبدأ المفاجآت التي تحدثنا عنها أعلاه، وهي بالمناسبة كثيرة للغاية وإن كنا سنكتفي بذكر أبرزها: مثلاً وجود شخص متعاطف مع أهداف الحركة الصهيونية على رأس وزارة الخارجية البريطانية هو آرثر بلفور، وإطلاقه وعده المشؤوم باعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين، بعدها بفترة قصيرة خرجت فلسطين من السيطرة العثمانية لتقع في قبضة الامبراطورية التي لا تغيب الشمس عنها، الأمر الذي خلق ظرفاً موضوعياً قوياً لإمكانية تنفيذ الوعد... كذلك الأمر مع استلام هتلر للسلطة في ألمانيا في ثلاثينيات هذا القرن و شروعه في حل «المسألة اليهودية» عبر الطرد والتصفية الواسعة التي باتت تعرف باسم المحرقة «الهولوكوست»، الأمر الذي استغلته الحركة الصهيونية ـ ومازالت ـ بطريقة بارعة. وطبعاً كان من مصلحتها أن تبالغ قدر الامكان في حجم الضحايا اليهود الذين قتلهم النازي وأن تصور الأمر على أنه «مشروع ابادة شاملة» لأنها بذلك ستحقق فوائد عديدة، فقبل كل شيء ستقول لليهود الذين رفضوا المشروع الصهيوني: «ألم نقل لكم أنه من المستحيل عليكم الاندماج في مجتمعات الأغيار؟ ألم نحذركم من أن اللاسامية أو كره اليهود متأصلة عند كل من هو غير يهودي وبالتالي لا أمان لكم ولأولادكم إلا في دولة خاصة بكم». وفعلاً ما إن بدأت بالانتشار الأخبار الأولى عن المذابح التي يتعرض لها اليهود في الأراضي الخاضعة لسيطرة ألمانيا، حتى بدأ هؤلاء بالبحث عن سبل النجاة والهرب من أوروبا. وبما أن الحركة الصهيونية كانت قد رتبت الأمور سلفاً مع الدول الامبريالية لتحد من امكانية دخول اليهود إليها ـ حتى الولايات المتحدة وهي دولة قامت أساسا على الهجرة وكانت قيادتها ونخبها السياسية معروفة بتعاطفها مع اليهود، وضعت في الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن سقفاً لعدد اليهود الذين تسمح باستيعابهم في أراضيها ـ عندها تقلصت الخيارات بالنسبة لقسم من اليهود الذين وجدوا أنفسهم محصورين بين المطرقة النازية وسندان الصهيونية التي سدت السبل في وجوههم، فلم يبق أمامهم سوى الارتماء مجبرين في أحضان المشروع الصهيوني والهجرة لفلسطين. ومع ذلك يجب أن نلفت الانتباه إلى أن عدد اليهود في فلسطين لم يتجاوز في نهاية عام ١٩٤٨ أي بعد قيام الكيان الـ٦٥٠ ألف شخص رغم أن اليهود في العالم كانوا حوالي الـ١١ مليون نسمة.

الفائدة الثانية التي حققتها الصهيونية من «المحرقة» هي تحميل أوروبا بل والعالم بأسره مسؤولية الضحايا اليهود الذين قتلهم النازيون، وبالتالي خلق شعور بالذنب عند الشعوب الأوروبية ثم تضخيم هذا الأمر واللعب عليه بشكل متواصل لابتزاز الدول الغربية الغنية سواء لدفع تعويضات ومساعدات مادية ضخمة للكيان الصهيوني، أو بدفعهم لغض النظر عن الممارسات الصهيونية الوحشية بحق الفلسطينيين الذين أصبحوا الضحايا الحقيقيين للهولوكست اليهودي.

بعد ذلك جاء انتصار الصهيونية في أول معاركها الحربية على جيوش عدة دول عربية عام ١٩٤٨... ليتلوه انتصارها الكبير الثاني عام ١٩٦٧ والذي اعتبر أيضاً حدثاً غير متوقع بالمرة، فبينما كانت الدعاية الصهيونية تقول أن اسرائيل معرضة لخطر الابادة وان اليهود مهددون بـ«الرمي في البحر» بسبب الجيوش العربية التي تحيط بهم من كل جانب، فجاءت النتائج الفعلية لتكون كارثية على الجانب العربي... ومع متابعة «المفاجآت» نصل إلى موجة الهجرة اليهودية الأخيرة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق والتي جاءت بعد فترة تأزمت فيها الأوضاع في الكيان الصهيوني بفعل الانتفاضة الباسلة، فجاءت الهجرة الجديدة لتعطي دفعة قوية للمشروع الصهيوني حيث زودت الكيان بطاقة بشرية هائلة تقدر بحوالي ثلاثة أرباع مليون نسمة معظمهم من الكفاءات العلمية.

بالنسبة لنا نحن العرب، فإن كل هذه الأحداث التي شكلت مفاصل هامة جداً في مراحل نضالنا ضد المشروع الصهيوني، ما هي إلا نتيجة سوء حظ عاثر يأبى أن يفارق طريقنا، أو صدف غير متوقعة جاءت لتقوي عدونا وتزيد تعاستنا، لكن من المعروف أنه حين تتكرر الصدف وتزيد عن حد معين، فإنها في هذه الحالة تكف عن كونها صدف. وبالتالي يجب أن نطلق عليها اسم آخر... من جهة أخرى لا نستطيع أن نسلم أن ما يجري هو أحداث خارقة للطبيعة لأن وقت المعجزات ببساطة قد ولى منذ زمن بعيد... إذن يجب أن نفتش في مكان آخر عن أسباب انتصارات عدونا وبالتالي هزائمنا المتتالية، وتحديداً في طريقة أدائنا لمعاركنا وكيفية ادارتهم للصراع...

أول ما يلفت الانتباه هنا تلك المبادىء الأساسية التي يستند عليها المشروع الصهيوني أثناء تطوره، ومن الواضح تماماً أنه لا يحيد عنها أبداً، حيث يمكن اختزالها إلى أربعة: المبدأ الأول هو الانطلاق دائماً في اعمالهم من عملية تشخيص نقدي للوحة الصراع بكل شموليتها مع عدم إغفال أي عنصر منها... المبدأ الثاني يقوم على اعتماد أسلوب التخطيط بعيد المدى ووضع استراتيجية واضحة لكل مرحلة، وبالتالي فإن كل التكتيكات المتبعة أو الأهداف المرحلية يجب ألا تتناقض مع الاستراتيجية المحددة بل توصل إليها بشكل أو بآخر... المبدأ الثالث هو ضرورة التنفيذ المتقن لما تم اقراره من مخططات مع الأخذ بعين الاعتبار كل المتغيرات المحلية والاقليمية والدولية.. أما المبدأ الرابع فيوزع المسؤوليات بدقة وبالتالي يدعو للمحاسبة الصارمة على دقة التنفيذ...

الالتزام بهذه المبادىء جعل الكيان الصهيوني يولي أهمية خاصة لمراكز البحوث سواء الحكومية أو المستقلة أو التابعة للجامعات أو المعاهد، وجعلها على صلة مباشرة مع مراكز صنع القرار، مما سلّح المشروع الصهيوني بآليات عمل متطورة تمكّن عبرها ليس فقط من الاستفادة القصوى من العوامل المساعدة للمشروع بما فيها الخارجية، الأمر الذي مكنه من تنمية قوته الذاتية والبناء عليها بشكل تراكمي، بل واستطاع أيضاً تلافي تأثيرات كانت من المفترض أن تكون سلبية عليه، لينجح في حالات كثيرة بجعل هذه



العناصر السلبية أو الناهضة لمشروعه تعمل لمصلحته. سنعطي هنا مثالين على هذا الاستنتاج، الأول من الحياة الداخلية للكيان حيث استطاعت الحركة الصهيونية بناء نظام سياسي عصري يقوم على ديمقراطية عالية وإن أصابتها تشوهات عديدة... فعدا عن كون الديمقراطية الاسرائيلية عنصرية لأنها تمنح اليهود امتيازات وحقوقاً لا يحصل عليها غيرهم من مواطني الكيان، كذلك فإن هذه الديمقراطية تقف عند حدود الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ حيث لا نجد لها هناك أي أثر، بل حكماً عسكرياً مباشراً وقوات احتلال.... ومع ذلك لا يجوز التقليل من أهمية الطريقة التي يخوض بها الصهاينة صراعاتهم الداخلية، حيث يختلفون وأحياناً بحدة كبيرة، لكن من المؤكد أن هناك سقفاً أو ضابطاً لهذه العملية، يتفق الجميع حوله ألا وهو مصلحة الكيان وأمنه، فعند هذا الخط الأحمر تتلاشى التناقضات وتكاد تختفي... وطبعاً لم تتوصل الحركة الصهيونية لهذه النتيجة دون صعوبات جدية، لعل ابرزها ما يتعلق بالقوى الدينية اليهودية، فكما هو معروف فإن الحركة الصهيونية بالأساس علمانية تماماً أخذت بمشاريع الحداثة الغربية، لهذا السبب وجدت في مراحلها الأولى معارضة شديدة من القوى الدينية اليهودية، إلا أنها استطاعت في النهاية دمجها واستيعابها نهائياً في المشروع.

المثال الثاني على الآلية التي تعاملت بها الحركة الصهيونية مع التناقضات نجدها في تعاطيها مع العامل الخارجي، فقبل كل شيء عملت بجد وبشكل تراكمي متواصل لاكتساب صفة الناطق بلسان حال اليهود في كل مكان، مستفيدة طبعاً من مشاعر الكره لليهود (العداء للسامية) التي اعتبرت سلفاً أن كل اليهود أشرار، الأمر الذي كان يلقي بهؤلاء إلى أحضان الصهيونية، ولم تقف الاستفادة عند هذا الحد فقط، بل تجاوزتها لتصل إلى تجيير ما تتمخض عنه اللاسامية لتقلبه إلى نقاط تسجل لمصلحة المشروع الصهيوني، والأمر لا يقتصر هنا على «المحرقة النازية» فقط أو ما بعدها، بل قبل ذلك بكثير. فمثلاً تقول لنا كتب التاريخ أن غالبية أعضاء اللجنة الملكية البريطانية التي تشكلت عام ١٩٠٥ وقررت عدم السماح بدخول يهود روسيا لبريطانيا إثر المذابح ضد اليهود هناك، كانوا من المعادين للسامية الذين أخذوا برأي هرتزل حين شرح لهم أن الحل الوحيد للتخلص من اليهود والمشاكل التي يمثلونها يتلخص بتفريغهم في موطن خاص بهم. ورغم أن اغلاق غالبية الدول الأوروبية لحدودها في وجه اليهود الهاربين من أوروبا الشرقية آنذاك، أدى إلى اتجاه الجزء الأكبر منهم إلى أمريكا، إلا أن قسماً هاماً منهم نزح إلى فلسطين وهو ما بات يُعرف بالموجة الثانية للهجرة لبلادنا....

وفي هذا السياق نشير إلى أن هرتزل نفسه كان يرد على شتائم المعادين للسامية بالقول: «نعم... نحن اليهود سيئون... كل ما تصفوننا به صحيح...» لكنه كان يتساءل «لكن ألا يوجد حل لهذه المشكلة إلا بذبحنا واضطهادنا؟ أليس من الأفضل لنا ولكم أن تساعدونا على مغادرتكم واقامة دولتنا الخاصة بنا؟» فضلاً عن ذلك نشير هنا لحقيقة قد تفاجئ البعض، فلويد جورج رئيس الحكومة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور كان معروفاً بلاساميته، وحتى آرثر بلفور نفسه الذي قدم أكبر خدمة لليهود في التاريخ الحديث هوجم هو الآخر في المؤتمر الصهيوني السابع لأنه «يمارس سياسات معادية للسامية بشكل مكشوف وضد جميع الشعب اليهودي» (راجع كتاب «تكوين الصهيونية» خالد القشطيني، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٦ ص١١١).

على ضوء كل هذا من الواضح أن التدقيق في التجربة الصهيونية خلال مئة عام، يقودنا لحقيقة مهمة للغاية، فالصهيونية حللت بعمق الواقع الذي تتحرك فيه رغم اتساع ساحته، وعرفت كيف تستفيد بشكل أو بأخر من كل عناصره سواء المتعاطفة معها أو تلك التي تناصبها العداء، وتجيّرها في النهاية لمصلحة مشروعها... وهذا بالضبط ما يجعلها تنتصر دائماً، ولتتلاحق انجازاتها ولتأتي أحياناً في ظروف غير متوقعة أبداً، الأمر الذي يعطي الانطباع أن كل شيء يعمل لمصلحتهم: الحظ، الظروف، الزعامات، بل والقدر نفسه.... لكن ببساطة لا معجزات هنا ولا حتى أسرار... فرغم استناد الأيديولوجية الصهيونية على مجموعة الأساطير والخرافات المحضة، إلا أنهم عملوا بجد ودون ملل وبشكل تراكمي وبأساليب وطرق علمية وحديثة، لكن هذا العمل وحده ما كان ليكفي لولا معرفتهم الدقيقة للوحة الصراع وللآليات التي يتعاملون معها، وتطويرهم المستمر لهذه المعرفة عبر مناهج علمية قابلة هي الأخرى للتطور...

أما نحن العرب فيبدو اننا سنظل نضرب بالعصا على رؤوسنا لألف سبب وسبب... لعل أبرزها أن العقل العربي بمعظمه للأسف، مازال يأخذ الأمور بميزان العواطف، وبالتالي يبالغ في تقدير رغباته الذاتية ويسقطها على الواقع لتطغى عليه... لنجد أنفسنا في حالات كثيرة أمام صور للوحة الصراع تختلف كثيراً عما هي عليه فعلاً....■■

التحالف الأمريكي - الإسرائيلي
نقض وهم اليد الخفية



أحمد جابر

لايكرر التاريخ نفسه، فهو يتقدم صعدا الى الأمام، ولكن الناس يملكون دائما ميولهم نحو التنميط، نحو اعادة انتاج الأساليب والنماذج. ان الحنين الى الماضي يفضي أحيانا الى الأصولية، ولكنه في أحيان أخرى يفضي الى اعادة انتاج الذات عبر وسيلة خارجية، تسمح بمواصلة التاريخ الخاص بنفس الوقت.

لا أعرف اذا كانت العبارات السابقة مناسبة كمدخل لقراءة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، هذه العلاقات التي تحمل أكثر من تسمية وصفة، فهي تحالف وتآخ وتوأمة وبنوة وتبعية وتحكم وسيطرة ونفوذ، وهي من جهة أخرى مميزة ووثيقة وصلبة واستراتيجية ولابديل عنها.

في ضوء ذلك سأحاول الإجابة على سؤالين:

1 - كيف نفهم التحالف الأمريكي الإسرائيلي على حقيقته؟

2 - هل يمكن حقا المراهنة على تغيير الموقف والدور الأمريكي وصولا الى دور نزيه في الصراع العربي الإسرائيلي؟

ومن خلال ذلك سأحاول نسف الوعي العربي الزائف حول وهم اليد الخفية أو ما يسمى اللوبي الصهيوني في أمريكا وحول المراهنة على الدور الأمريكي، وفكرة أن أمريكا مثلنا تماما ضحية للصهيونية.

أيدلوجية الغزو:

ثمة عدد كبير جدا من الوسائل التي يستخدمها المستعمرون في سياق تبريرهم لأفعالهم، عبر منظومة أيدلوجية مجربة، وموثوق منها تهدف دائما الى اخفاء الحقائق، وتحتوي على عدد هائل من المصطلحات ابتداء بـ (تطوير) شعوب المستعمرات وانقاذها من (تخلفها) مرورا بتعمير الأرض الخالية، وصولا الى تنفيذ الوعود الإلهية بمنح الأرض للشعب المختار، ويعلم الجميع أن التبرير الديني كان حاضرا دائما في الغزوات الإستعمارية، وقد أخفى وراءه الأسباب الحقيقية للغزو التي حكمت سلوك المستعمرين وأطماعهم، واذا كنت هنا لاأسعى لدراسة الفكرة الإستعمارية وخلفيتها السيكلوجية، انما الإشارة اليها تبدو مهمة في السعي لمقاربة فهم الحقيقة حول الموضوع الذي نحن بصدد مناقشته.

لم تكن فكرة الأرض الموعودة، أرض العسل واللبن غائبة في خلفية صورة الغزاة الأوربيين وهم يقتحمون الأرض الجديدة والتي سميت فيما بعد: أمريكا. نحن المتفرجين لم نسأل أنفسنا أبدا عن الإسم الأصلي لهذه «الأرض الجدة» بتعبير وليام كامو، هذا الإسم الذي قذف الى النسيان تماما مثلما قذف بأصحاب الأرض الأصليين الذين سموا هنودا حمرا، فاقتلعوا مرة واحدة من مكانهم - أرضهم، وأحيل انتماؤهم حتى بالإسم الى المنفى، فاصبحت الأرض خالية بالأيدلوجيا، جاهزة لمحراث السيد الأوربي الذي بدأ عمله جنبا الى جنب مع الرصاص والقنابل، مسجلا مذبحة بشرية بشعة تناستها البشرية بسهولة لأن العصر كان عصر النهب والمذابح والأرض الخالية.

وفكرة الأرض الموعودة لم تكن غائبة أبدا عن أذهان الغزاة بل على العكس وجدت لها مكانا ملائما في كتابات المستوطنين القدماء كما ينقلها فرانسوا شاتيليه«ان أمريكا هي في نفس الوقت كنعان الجديدة، القدس الجديدة، بلد عدن، حيث يسود الله الطبيعة والنبات الوافر وغطاء الأزهار»(1) وهذه الأرض الموعودة من المفترض أن تكون خالية، هنا يتحد الحلم الإلهي ببناء امبراطورية مقدسة على الأرض مع ضرورة تفريغ الجنة من (الكفار)، الا أن ذلك يلتقي أيضا بفكرة (طهارة السلاح) وتصبح المجزرة هنا قانونا الهيا ولكنها مجزرة سرية غير معلنة يتم اخفاؤها بمهارة، تمهيدا لإحلال شعب آخر في الأرض الموعودة حيث«ان شعبا مختارا فقط هو الذي يستطيع الإقامة في هذا البلد الموهوب بكرم الى هذه الدرجة لذلك فان الله غربل أمة بكاملها حتى يتمكن من أن يرسل اليها أفضل حبوب عنده»(2).

هنا تتحد فكرة المكان مع الوهم الديني، المكان المتجسد ماديا في الأرض البعيدة المعزولة مع الوعد الإلهي، فهذه العزلة لم تكن مجرد صدفة، لم تكن مجرد سلوك من سلوكات الجيولوجيا الأرضية معبرا عن نفسه جغرافيا، وانما تدبيرا الهيا حكيما«لقد خصص الله أمريكا لتكون المسرح الذي يجب أن يبلغ فيه الإنسان قوامه الحقيقي، أليست معزولة عن الأوربيين وعن بقية العالم لتكون مسرح أحداث هامة»(3).

ان العبارات المستخدمة ليست غريبة عنا، لقد سمعناها في مكان وزمان آخرين، وبلسان مستوطنين جدد، في أرض جديدة لكن الوعد الإلهي هذه المرة كان «مبررا» بشكل أفضل وأقوى، والأرض هنا مقدسة فعلا، والنص الديني يذكرها بالإسم، وليس مجازا، هي هنا ليست كنعان جديدة بل كنعان نفسها، الأصل، ليست قدسا جديدة، بل القدس نفسها والغازي هنا هو شعب الله المختار «الحقيقي» وليس ناتج الغربلة،والمهمة هنا انقاذية تأخذ طابعا مزدوجا، انقاذ الأرض المقدسة من (الكفار)، وانقاذ الشعب المختار من متاهته التي طالت، وباستخدام نفس المصطلحات، الأرض الخالية، الصحراء البور..الخ،وباستخدام نفس الأدوات المجزرة أساسا والتزييف لقلب الوقائع وحذف الموجود لمصلحة القادم من وراء البحر، وهم دائما يأتون من وراء البحر عبر الأطلسي أو الأحمر.

يشترك النظام الأمريكي بارثه السيكلوجي مع الكيان الصهيوني، تاريخ النهب والقتل،سيكلوجية الغزو والإستيطان،، لكنه ليس سببا كافيا للتعاطف وصولا الى التبني الكامل، ولايقتصر الأمر أيضا على كون أغلبية الأمريكيين يستندون في عباداتهم الى التوراة بل جزء كبير منهم تشكل التوراة المصدر الوحيد لعبادتهم، الا أنه بالأساس يطال التكوين البنيوي للمجتمع الأمريكي ، هذه البنية القائمة على نظام رأسمالي استغلالي داخليا وخارجيا تمثل المصالح الرأسمالية المصدر الوحيد للسلطة فيه.

علامات في السلوك السياسي:

عند هذه النقطة أجد لزاما علي أن أستعرض وقائع محددة من السلوك السياسي الأمريكي تجاه اسرائيل من أجل تعميق الفهم وايجاد الأرضية اللازمة لاكمال تحليل طبيعة العلاقة التي نناقشها.

نعلم جيدا أن الولايات المتحدة وعبر رئيسها ترومان قد قامت بالإعتراف بدولة اسرائيل بعد خمس دقائق من اعلانها، ان ذلك لا يعكس تسرعا أمريكيا أو اخلاصا لمبادئ ويلسون وانما يدل على مدى اشتراك الولايات المتحدة ومساهمتها في التخطيط للمؤامرة التي لحقت بالشعب الفلسطيني، فالولايات المتحدة وهي القوة الإستعمارية الوحيدة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية بدون خسائر تذكر ماكانت لتسمح وهي أفضل المنتصرين حالا وأقواهم بحكم امتلاكها القنبلة الذرية، بأن تغيب عن مسرح الأحداث الرئيسي في الشرق الأوسط، حيث الممرات الإستراتيجية ومناطق التمدد النموذجية للمعسكر الشيوعي، وحيث منابع النفط لاحقا، فكان لابد أن تحجز مكانها، فقد انقضت منذ زمن فاعلية مقولة هوراس جريلي «أيها الشاب اتجه الى الغرب وليصحب نموك اتساع رقعة وطنك»(4) فاصبح الإتجاه الآن نحو منابع الثروات في الشرق، لذلك كان اعلان ترومان تتويجا لهذه السياسة الأمريكية، فقد أنشأت الولايات المتحدة أول قنصلية لها في القدس عام 1856 رغم قلة عدد اليهود الأمريكيين في فلسطين(5) ، الا أنه كان قد بدأ الإدراك في أمريكا كما في أوربا لأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه اليهود ، لذلك لم يكن صدفة أن آخر ثلاثة سفراء بعثت بهم الولايات المتحدة الى الأستانة هم من اليهود(6) ، وقد عمل هؤلاء على حماية المصالح اليهودية في الدولة العثمانية، والمخطط الإستعماري كان يستند الى ضرورة حماية المصالح الغربية في المنطقة لذلك كان من الطبيعي أن تدعم أمريكا الحملة البريطانية الفرنسية الخاصة بتقسيم العالم العربي مع السعي طبعا لتجاوزها بسبب تجاهلها للولايات المتحدة التي لم تكن قد دخلت حلبة الصراع بشكل جدي حتى ذلك الوقت، ويشير أرشيف ويلسون أنه كان يعلم بالمعاهدات السرية (سايكس بيكو) وبموضوع اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين من بلفور شخصيا عند زيارته الى الولايات المتحدة عام 1917(7).

فرصة تجاوز الدور البريطاني الفرنسي ، جاءت للولايات المتحدة مع بداية الحرب الأولى وكانت بداية احلال الدور الأمريكي في المنطقة وبداية العلاقات الأمريكية الصهيونية ، وذلك اثر انسحاب ممثلي الدول المعادية للدولة العثمانية، فبقيت المؤسسات الصهيونية المتمتعة بحماية هذه الدول بدون حماية مما يعني تعريضها للمصادرة باعتبارها أملاك عدو، فتولت الولايات المتحدة هذه المهمة، باعتبارها لم تكن قد أعلنت الحرب بعد على الدولة العثمانية، ان عدم اعلان الحرب هو سبب ونتيجة بنفس الوقت، فالإستعمار الأمريكي كان قادرا على تجديد نفسه واعطاء أدواته أبعادا جديدة بعكس النموذج القديم البريطاني الفرنسي الذي لم يستمر سوى ثلاثة عقود قلقة أو أربعة، فازيح لمصلحة العملاق القادم بقوة الى الساحة الإستعمارية.

ان ذلك كان نهاية مرحلة، كان لابد فيها للاشكال القديمة أن تتراجع، ودولة اسرائيل كانت نموذجا للتجديد في الآليات الإستعمارية، اذ أمريكا في مواجهة منطقة خطرة، تحتوي مصالح حيوية بالنسبة لها، وتوجد دولة اسرائيل وهي كيان غريب، متطابقة من حيث النشأة مع الشقيقة المستعمرة الكبرى وهذه الدولة موجودة في اطار معاد، تحتاج للدعم من الخارج الإستعماري المتوافق معها، وقادرة في نفس الوقت على القيام بالمهمات المطلوبة ، وذلك يصبح اطارا ملائما لنشأة الدولة المفضلة ، وهنا نجد أنفسنا أمام نظامين يتحدران من جذر واحد وينتميان الى نفس الفئة الإستعمارية، فالوجود الإسرائيلي في فلسطين هو حالة استعمارية نموذجية بغض النظر عن التسميات التي يحلو للمفكرين والسياسيين العرب اطلاقها، من أجل ذلك تصبح العلاقة الأمريكية الإسرائيلية علاقة قسرية موضوعيا، طبيعية محكومة لطبيعة النظامين وليست مفتعلة.

في هذا السياق نستطيع فهم الدعم اللامحدود الذي تقدمه أمريكا لاسرائيل عبر آلاف المليارات من الدولارات وتكديس الأسلحة والتغطية على التسلح النووي، دون أن ننسى طبعا الدعم السياسي اللامحدود في كل المحافل، بهدف أن تبقى هذه الدولة قوة متفوقة «لابد أن نمنح اسرائيل كل مايضمن تفوقها العسكري دائما وأبدا»(8) و «ان اسرائيل ينبغي أن تظل دائما وبمساعدتنا قادرة على حماية أمنها وتشتيت أعدائها والتفرقة بينهم وسحقهم»(9) ولا يمكن أن ننسى السلوك التصويتي لمندوبي الولايات المتحدة في مجلس الأمن والجمعية العامة ضد المصالح العربية، واستمرارالولايات المتحدة في رفض الإعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني بعد أن اعترفت بها دول العالم أجمع، وقرارات الكونغرس الأمريكي المعادية للفلسطينيين والعرب والتي حولت الكونغرس الى صورة بائسة عن الكنيست الصهيوني.

عن اسطورة اليد الخفية:

يشير ما سبق الى حقيقة الموقف الأمريكي من اسرائيل ، ولكن هذا يعود الى طبيعة النظام والمصلحة المشتركة التي تحكم الطرفين، واذا كانت هذه العلاقة قد مرت بتحولات عدة في سياق تطورها لتأخذ شكلها النموذجي الحالي، انتقالا بين دور الأداة الى دور الشريك لتتحول الى التبادلية بين الشريك والأداة ، فخدمات اسرائيل للولايات المتحدة كمركز قوة استراتيجي في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى تساعد في تفسير اخلاص الولايات المتحدة لاسرائيل ودعمها لها ومن جهة أخرى فهذا الإرتباط الأيدلوجي العضوي لاسرائيل بالولايات المتحدة يساعد على فهم الآلية التي تحكم عدوانية اسرائيل ورفضها اتخاذ قرار بالسلام تجاه المنطقة.

ان هذا الكلام لا ينفي وجود ما يسمى اللوبي اليهودي وأدوات النفوذ والتي تأخذ على أرض الواقع شكلا مؤسسيا نافذا، ولكننا نريد وضعها في سياقها الطبيعي. فهذا النفوذ ليس غريبا عن النظام الأمريكي كما يميل العقل السياسي العربي للتفسير، ليس ظاهرة (احتلالية) فالمشكلة هي في طبيعة النظام الإمبريالي الأمريكي القائم على النهب والإستغلال ، والمستند الى الإحتكارات الكبرى التي تملك القرار دون أن يغير شيئا ان كانت هذه الإحتكارات يهودية أو غير يهودية، وليتذكر العرب، وهم يعرفون ذلك جيدا، أن رأس المال ليس له دين. ان نظاما من هذا النوع يفرز بالضرورة منظمات مثل أيباك أو غيرها وهو المكان الطبيعي لولادة العناصر الأكثر انحرافا في الفكر الإستعماري. الفهم الصحيح لمسألة اللوبي الصهيوني ينطلق من أن الحكاية ليست حكاية طابور خامس وانما أن السلطة الأمريكية نفسها أو بالأصح النظام الأمريكي تماهى في اللوبي ، فاللوبي أصبح هو السلطة وهذه مرة أخرى ليست ظاهرة احتلالية أو اختراق تجسسي وانما نتاج طبيعي للبنية المجتمعية القائمة على سيطرة

..صالح الرأسمالية وطبيعة النظام الإستعماري ..ائم التحالف مع نظام مماثل في اسرائيل.

رهانات خاسرة .. خداع الذات:

المشكلة في الوعي العربي تجاه هذه العلاقة، تكمن في عدم ادراك طبيعتها بأنها علاقة ارتباط عضوي بين نظامين ينتميان الى نفس النموذج، ..ح هنا المراهنة على امكانية تحرير العقل الأمريكي من النفوذ الصهيوني، وأن تدرك الولايات المتحدة أن مصالحها انما هي مع ..رف العربي وليس مع الدولة الدخيلة، هذه ..رهنة ليس لها أي قيمة في العملية السياسة، ..ي آليات التفكر الإستعماري، لأن المستعمرين ..ينتمون الى ذاتهم والى نماذجهم الخاصة، ..ي انقلاب هو انقلاب على الذات وبالتالي فمن ..قلب على النظام يصبح خارجه ببساطة، هذا ..طبق أيضا على السياسيين الأمريكيين كأفراد، ..لذين يلعبون اللعبة الديبلوماسية ضمن النظام ..لذي ينتمون اليه، ويفسر ربما أن هؤلاء كثيرا ..ما يغيرون مواقفهم بعد خروجهم من السلطة ..ويدفعون الثمن ان هم فعلوا ذلك وهم في مركز ..القرار، ولكن من يحاسبهم هنا هو النظام نفسه ..ليس اليهود كطابور خامس كما يعتقد الوعي ..العربي، وبالتالي فان المراهنة على تغير الموقف ..السياسي في أمريكا انما تعني المراهنة على تحدي ..النظام نفسه في بنيته الأيدلوجية السيياسية، ..هذا رهان غير صحيح ولاينتمي الى الوعي ..السياسي، وعدم الإعتراف ب عدم جدوى هذا ..الخيار ناتج أصلا عن غياب الجرأة اللازمة ..لمواجهة النتائج التي تترتب على هذا الأمر.

ثمة رهان آخر على الرأي العام الأمريكي ..وامكانية أن يتحرك ضد النظام وأن يؤيد ..المصالح الفلسطينية والعربية، ورغم أننا ..لا ننفي أهمية الرأي العام وضرورة العمل ..على كسبه الا أننا يجب أن نرى الأمور بشكل ..واقعي، لأن الرأي العام انما تصنعه القوى ..المهيمنة ومصالحها، لاالضمير ولا ا«لإدراك ..السليم»(10).

وفي سياق هذا الفهم ثمة مقولة دارجة عربيا ..هي أن الولايات المتحدة قد انسحبت من فيتنام ..عندما أصبح هناك رأي عام أمريكي ضد الحرب ..وكذلك الأمر في كوريا وغيرها، ولكن الحقيقة التي ..تحاول السياسة العاجزة اخفاءها والإستعاضة ..عنها بالمقولة السابقة هي ، الولايات المتحدة ..أرغمت على الإنسحاب من فيتنام دون أن تحقق ..أهدافها بسبب الكفاح البطولي للشعب الفيتنامي ..وبنائه وليس بسبب معارضة الشعب الأمريكي، ..هذه الحقيقة أدركها الشعب العربي والفلسطيني ..الذي منذ زمن أي رهان على أمريكا خلف ظهره ..وأدرك تماما أن أمريكا واسرائيل هما وجهان لعملة ..استعمارية واحدة، في خندق واحد، وهذا ناتج عن الوعي أن هناك تضارب أساسي وحتمي بين النظام الرأسمالي الأمريكي وبين حركات التحرر في العالم كله، وقد اعترف الرئيس فورد بنفسه بهذا الأمر في تصريحه حول كمبوديا «ان ارادة الولايات المتحدة هي ايقاف المد الثوري لمنع قيام أي نظام تعتبره تهديدا لأمنها القومي»(11).

من يعارض السلام:

يضعنا ما سبق على السكة المناسبةلفهم المنظومة الفكرية التي تقود التحرك الأمريكي حاليا عبر عملية السلام، فما وصلت اليه هذه العملية وظروف انطلاقها والسلوك الأمريكي فيها يثبت لكل ذي بصيرة أن «جبهة الرفض» الحقيقية انما هي التحالف الأمريكي الإسرائيلي، وليس الفلسطينيين والعرب كما تشيع وسائل الإعلام المهيمنة، فسياسة الولايات المتحدة تجاه اسرائيل لا تعني تمكين اسرائيل من تهديد العرب فحسب بل ررفض كل تسوية سياسية، والولايات المتحدة ليس من مصلحتها ولامن مصلحة اسرائيل اقامة سلام في المنطقة، التوتر - وهنا المفارقة - هو الذي يضمن الحفاظ على المصالح الأمريكية «فلو تم السماح بعقد تسوية سلمية وفق الإجماع الدولي، لخسرت الولايات المتحدة خدمات دولة مرتزقة قيمة، قادرة عسكريا ومتقدمة تكنولوجيا، دولة منبوذة، تعتمد اعتمادا كاملا على الولايات المتحدة، من أجل بقائها الإقتصادي والعسكري، وبالتالي متوفرة لتقديم الخدمات عند الحاجة»(12) في محيط عربي معاد ومتوافق.

لذلك كان الخطر الأكبر هو أن تظهر حقيقة جبهة الرفض هذه وأن يظهر العرب بمظهر من يريد السلام فعلا، وبالتالي نستطيع فهم السبب الحقيقي لغزو 1982، فهو لم كن بسبب تهديد الجليل ، بل وكما أوضح ياهو شابوران اختصاصي الشؤون الفلسطينية في الجامعة العبرية «ان قرار الغزو جاء من الحقيقة التمثلة في أن وقف اطلاق النار قد تم التقيد به» ،«وهذه مثلت كارثة كبيرة للحكومة الإسرائيلية لأنها هددت سياسة التهرب من تسوية سلمية»(13)، وهذا ما أكده شامير فيما بعد اذ أكد أن اسرائيل خاضت الحرب «لأنه كان هنالك خطر مخيم ليس خطرا عسكريا بل خطر سياسي»(14).

خلاصة:

ان السلوك الإسرائيلي، والتأييد الأمريكي المطلق له، أثبت أن المسألة ليست مسألة نفوذ أو سيطرة ، بقدر ما هي علاقة مصلحة متبادلة وأمريكا لن تغير قناعتها بأن مصلحتها مع العرب لأنه وببساطة المصلحة الأمريكية الواقعية هي مع اسرائيل وليس مع العرب، فاسرائيل انما هي وبالمعنى المباشر التعبير الأكثر مصداقية عن سياسة أمريكا في المنطقة، كما تلعب أمريكا عبر دورها العالمي ونفوذها في الهيئات الدولية دور التعبير المعكوس لسياسة اسرائيل في العالم، عبر حلقة الأداة والشريك التبادلية، ويتضح مدى عبثية المراهنة على دور أمريكي متوازن في العملية السلمية.

ان ما سبق يضعنا مباشرة أمام حقيقة الموقف مكشوفين في العراء فقد أسلمنا أنفسنا لخصومنا، وسندفع الثمن غاليا، والى أن يتخلى العرب عن أوهامهم ويدركوا حقيقة الموقف ويلجأون الى قواهم الذاتية وامكاناتهم الخاصة فيي معركتهم المصيرية فانهم سيبقون يدورون فيي دائرة الخداع، والرهانات البائسة، وربما يقول قائل ان هذا الخيار يضع العرب في مواجهة شاملة مع أمريكا وهم ليسوا جاهزين لها ولهؤلاء نقول انم في خضم هذه المواجهة الآن فعلا، ثم متى سيكونون جاهزين؟

ان الحياة لا تنتظر أحد والقضية أصبحت وجود العرب كقوة متماسكة موحدة أو بقائهم تحت الهيمنة الإسرائيلية الأمريكية والصراع بالتالي هو صراع بقاء ينتصر فيه من يحدد أهدافه وأعداءه ويجيد حشد قواه وادارة المعركة ■■

الهوامش:

1 - شاتيليه، فرانسوا.أيدلوجيا الغزو. ط1. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت 1984.ص50.

2 - المصدر نفسه. ص52.

3 - المصدر نفسه. ص53.

4 - موجز التاريخ الأمريكي. مكتب الإستعلامات الأميركي. القاهرة . بدون تاريخ.

5 - الشيتي، فوزي. الإرهاب الأميركي في التاريخ.ط1.النشأة العامة للنشر والتوزيع .طرابلس1986.,ص66.

6 - المصدر السابق. ص68.

7 - المصدر السابق.ص70 - 71.

8 - المصدر السابق. ص230.

9 - المصدر السابق. ص231.

9+8 من وثيقة كيرباتريك مندوبة الولايات المتحدة السابقة في الأمم المتحدة واعتبرت وثيقة سرية من أوراق عمل الإدارة الأمريكية.

10 - شرابي، هشام. الديبلوماسية والإستراتيجية في الصراع العربي الإسرائيلي. ط2. الدار المتحدة للنشر. 1982.ص14.

11 - مصدر سابق. ص15.

12 - تشومسكي،نعوم. قراصنة وأباطرة - الإرهاب الأمريكي الدولي في العالم الواقعي.ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر1991,. ص34.

13 - المصدر نفسه.ص77.

14 - المصدر نفسه.ص78.

خمسون عاماً على نكبة فلسطين

أثر النكبة على الفلسطينيين

سمير الزبن

لاشك بأن الحدث الأبرز خلال القرن العشرين الذي شارف على نهايته، والذي زلزل المنطقة ورسم الخارطة من جديد، ومازلنا نعاني من آثاره، هو الكارثة التي حلّت بالفلسطينيين في العام ١٩٤٨، ونجاح المشروع الصهيوني في بناء دولته على حساب هذا الشعب وفي بيوته واراضيه وحتى بأدوات مطبخه.

لقد كان السلب الذي تعرض له الشعب الفلسطيني منذ العام ١٩٤٨ والذي مازال مستمراً حتى يومنا هذا، الجريمة الانسانية الكبرى التي حلّت بشعب من الشعوب العربية. لقد تم اقتلاع هذا الشعب من أرضه ليتم احلال تجمعات بشرية من أماكن مختلفة من العالم مكانه، تحت أسطورة اخترعتها الحركة الصهيونية وصدقها العالم «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». وحتى يتم تنفيذ هذا الشعار وتحويله إلى واقع بقوة السلاح وبارهاب المدنيين، تم رسم مخططات الطرد مسبقاً، وعملت الحركة الصهيونية كل ما في وسعها، ليس على تغيير الواقع الجغرافي بهدم ما يزيد على ٤٠٠ قرية، كانت تشكل قرى فلسطين قبل ١٩٤٨ فحسب، بل حتى عملت على تغيير رواية التاريخ ليتوافق مع الأسطورة التي على أساسها دعت الحركة الصهيونية لاقامة دولة يهودية في فلسطين، وبحكم طبيعة المشروع الصهيوني كمشروع استيطاني اقتلاعي اجلائي، وكموقع ذي وظيفة استراتيجية، يعمل كامتداد للمصالح الغربية في المنطقة، كان على هذا المشروع أن ينبنى أساساً على القوة، فصاغ تفوقه منذ البداية وذلك بدعم العالم الغربي، وهذا قبل اعلان دولة اسرائيل. فالأسطورة الأخرى التي قالت بها اسرائيل من أن العرب يعملون على تدميرها منذ اعلانها وانهم يرغبون في رمي اليهود في البحر، ما هي إلا أسطورة أخرى أخذت بالتفكك بعد اطلاق سراح الوثائق الاسرائيلية المتعلقة بالعام ١٩٤٨. ومنذ ذلك الوقت أثبت الباحثون الاسرائيليون أو ما يسمى باسرائيل بالمؤرخين الجدد، أن الدول العربية والفلسطينيين مجتمعين لم يكونوا ليشكلوا خطراً على اسرائيل في ذلك الوقت، ولم تكن اسرائيل بحاجة إلى طرد الفلسطينيين بالمعنى الأمني، مما يعيد النظر في الرواية الاسرائيلية الرسمية لما حدث في العام ١٩٤٨. ويضع الطرد الذي مارسته العصابات الصهيونية في صلب العقيدة الصهيونية، وهو هدف مسبق لها، كانت تنتظر الفرصة لمارسته، وهذه الفرصة قد توفرت لها كل الأسباب والامكانيات لمارساتها في العام ١٩٤٨.

لم يكن المشروع الصهيوني لينجح بامكانياته الذاتية، لذلك فقد تمت رعايته من قبل الغرب، صاحب الذنب في ارتكاب المجازر ضد اليهود في الدول الغربية، ولكن في اطار المشروع الصهيوني في فلسطين كان الدعم الغربي بلا حدود، وكانت اسرائيل قبل وبعد قيامها الطفل المدلل للغرب، لبريطانيا زعيمة العالم الغربي ما قبل الحرب العالمية الثانية، والولايات المتحدة زعيمته في ما بعد الحرب. فقد أراد الغرب التكفير عن الذنب الذي اقترفه بحق اليهود، ولكن لم يسدد الفاتورة من حسابه الخاص، بل أراد أن يدفع الشعب الفلسطيني ثمن ذنب لم يرتكبه، وأكثر من ذلك فقد أراد الغرب أن يكفر عن ذنبه ويدعم المشروع الصهيوني ويوظفه لقاعدة متقدمة للغرب في المنطقة تعمل على تفكيكها، بمعنى انه أراد أن يكفر عن ذنبه بأن يدفع الشعب الفلسطيني ثمن هذا الذنب وأن يستثمر هذا التكفير لصالحه، وفي نهاية الأمر كانت جميع الحسابات تصب في مصلحة الغرب. لذلك كان الصمت الغربي عن الجريمة التي ارتكبها الصهاينة في فلسطين، وحتى الأصوات القليلة التي حاولت شرح الكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني جراء المشروع الصهيوني تم اسكاتها. فقد خدم المشروع الصهيوني في فلسطين الغرب على أكثر من مستوى، وبذلك استحق كل المساعدة الممكنة من الغرب المستمرة حتى هذا اليوم، واستحق أيضاً التواطؤ معه والصمت عن الجريمة التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني، وعملت كل الجهود الدولية المتواطئة مع المشروع الصهيوني بعد الكارثة الفلسطينية إلى تحويل قضية الشعب الفلسطيني إلى قضية مساعدات انسانية وطمسها كقضية شعب تم سلب وطنه كاملاً واقتلاعه منه. وكان افضل وسيلة للتعامل مع هذه القضية هي تحويلها إلى قضية لاجئين، وهذا ما ساد بعد النكبة مباشرة فاللاجئون سيتحولون بعد أعوام إلى مواطنين في دول اللجوء وينتهي الموضوع. فكان حق القضية الفلسطينية بوصفها قضية مساعدات ـ رغم أهمية القضية الفلسطينية كقضية انسانية ـ انسانية، هي أحد الأشكال التي تم العمل عليها من أجل قبر المشكلة بشكل نهائي.

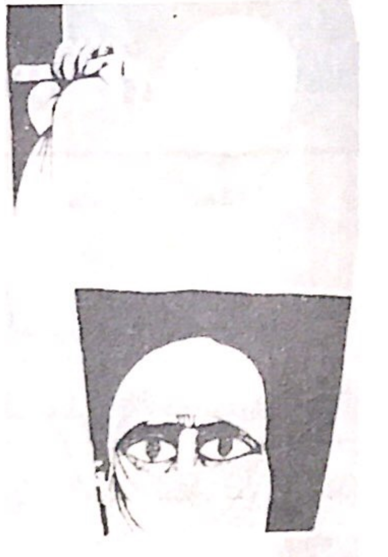
في ظل هذا الصمت الدولي وإطلاق اليد الصهيونية اكتملت فصول الجريمة الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني لحظة الاقتلاع، فكانت الكارثة الفلسطينية التي استمرت فصولها إلى اليوم. و٨٠٠ ألف فلسطيني الذين اقتلعوا من ارضهم تشتتوا في المنافي القريبة والبعيدة. وطرد أغلبهم إلى الدول العربية المجاورة. وخلال الخمسين عاماً الماضية تناسل ملايين الأشخاص في المنافي، ومعاناة مئات آلاف الأشخاص، أصبحت معاناة الملايين. وفي الكثير من المنافي لم يكن الفلسطينيون مرحباً بهم، وكان التوجس منهم أكبر من التعاطف معهم، فلم يتم النظر لهم بوصفهم الضحية فحسب، بل والخطر أيضاً، من هنا كانت المنافي معازل للفلسطينيين عن سكان البلدان المضيفة، ومنعوا في بعض البلدان من أدنى الحقوق الانسانية، ومازالوا حتى يومنا هذا على الوضع ذاته. لم تكن المخيمات كمعازل هي العقاب العربي الوحيد للفلسطينيين، بل تم إلغاؤهم أيضاً وفرض الصمت العربي عليهم، من خلال تعيين العرب لأنفسهم ناطقين باسم اللاجئين، مما هددهم بالزوال الفعلي بنوايا حسنة أو سيئة.

لقد شلت الكارثة الفلسطينيين في السنوات الأولى للكارثة، فقد انشغلوا بتضميد الجراح العميقة التي سببها الاقتلاع والمنفى، فكانت وسائلهم للدفاع بسيطة ولكنها فعالة، كان عليهم أن يعيدوا انتاج الوطن في المنافي، ويتحولون إلى ما سماه إلياس صنبر «بلاد تتنقل»، فكان عليهم أن يعيدوا انتاج الوطن في المنفى ويحافظوا عليه، ليس للذين اقتلعوا مباشرة بل لأولادهم أيضاً، فكانت الذاكرة الموسعة هي التي تحملت الوطن حياً في تجمعات شاء البعض أن تكون مواقع للنسيان لا للذاكرة. فلم يكن هدف الاقتلاع والمنافي سوى القبر النهائي للمشكلة، وكان يمكن للشتات أن يفعل فعله في تقطيع الشعب الفلسطيني وأن يعمل على تفكيك وحدته.

كن الظروف الموحدة للفلسطينيين في الشتات واستبعادهم والعمل على إلغائهم، أعاد انتاج وحدتهم، بدءاً من لهجتهم التي أعادوا صيغتها وحافظت على تميز واضح، وصولاً إلى نقل البلاد مانة إلى الجيل الذي ولد في المنافي، حيث نقل لوطن حياً عبر الذاكرة والحكايا والجغرافيا منقولة شفاهاً. وكان على الكارثة أن تكون مصنع عادة انتاج الشعب الفلسطيني، رغم كل الجراح والذابح والإلغاء. إلا أن الاستكانة كانت الخيار مرفوض دائماً. ورغم ما استهدف الشعب كان أكبر منه محلياً ودولياً، إلا أن الصمود واعادة انتاج الهوية الفلسطينية حتى عبر التفاصيل كان لدرس الأول الذي تعلمه الفلسطينيون في المنافي في مواجهة الالغاء، لتبقى حياً عليك اعادة انتاج نفسك كشعب يستحق الوجود على الخارطة لسياسية، وحتى يتحقق هذا الوجود عليك أن تقاوم مشروع الإلغاء الرئيسي، المشروع لصهيوني، فكان قدر الفلسطينيين أن يواجهوا هذا المشروع بكل ما أوتوا من قوة الصمود في لوطن وفي المنافي.

لم يهدد المشروع الصهيوني الفلسطينيين بحسب، بل شكل خطراً على مجمل المنطقة، رغم أن لفلسطينيين دفعوا الثمن الأغلى وتعرضوا لاعتداءات المشروع الصهيوني السافرة والباشرة، إلا أن هذا المشروع لم يكن يستهدفهم وحدهم، بل يستهدف المنطقة كلها وجاء في اطار ترتيب المنطقة لمصلحة الغرب بشكل دائم من خلال زرع ما يزعزع استقرارها بشكل دائم، وكان زرع كيان غريب أحد أنجع الوسائل لانجاز المهمة.

اعتبر العرب أن هذا المشروع يهدد المنطقة، وأن على الجميع التصدي له، وهو ليس قاصراً على الفلسطينيين، ومن أجل انجاز هذه المهمة كانت الفكرة القومية التي تقول بأن الوحدة هي الطريق إلى تحرير فلسطين، تمسك الفلسطينيون بهذا الشعار وآمنوا به وراهنوا على العرب باعادة ديارهم المسلوبة، وكان عليهم من أجل ذلك أن يستمروا في نكران أنفسهم، وحافظ العرب على دورهم كناطق باسم هذا الشعب المشرد، فقد كان الفلسطينيون مستعدين للمراهنة على اي شيء يستطيع أن يعيد لهم بيوتهم ويخلصهم من عذاب المنافي. لكن هذا الرهان كان خاسراً فلم يلبث هذا الطرح إلا أن عمل على المزيد من الإلغاء للفلسطينيين، وقد تم استكمال الكارثة بهزيمة العام ١٩٦٧. وكانت الأسئلة المطروحة على العرب عن هؤلاء الفلسطينيين الذين يتحدثون باسمهم، وللاجابة عن هذا السؤال ولدت منظمة التحرير في الاطار الرسمي العربي: فقد كان من أن لا يسمح لشعب عانى ما عانى كالشعب الفلسطيني من التعبير عن نفسه بذريعة القومية، وقد بدأ إدراك الفلسطينيين لهذا التغيب يفرض عليهم أسئلة الوجود ذاتها، كيف يستطيع هذا الشعب أن يجد تعبيره عن نفسه لما وجد وسائل الحفاظ عليها، فكان لابد من ايجاد



الوسيلة لاسماع صوت هذا الشعب الذي تعرض لجريمة كبرى بسلب وطنه، وتعرض لمؤامرة الصمت من أن يقول كلمة وجوده بإطلاق ثورته المسلحة، لتعلن أن هذا الشعب مازال حياً وأن هناك جريمة كبرى وقعت بحقه وليدافع عن وجوده المشروع ككل شعوب الأرض التي استقلت الواحدة بعد الأخرى وهو يكاد يقع في هوة النسيان، كان لابد من التعبير عن هويته الوطنية من الإلغاء والطمس في مواجهة عدو أحد أولوياته إلغاء هذا الشعب، والتصادم معه لا يكون إلا بإعادة الهوية إلى هذا الشعب، فكان أن التقت الثورة المسلحة مع منظمة التحرير الفلسطينية التي غيّرت وجهها. لم تكن الثورة الفلسطينية رداً على الهزيمة فحسب، لقد كانت ايضاً الحاجة الضرورية للحفاظ على هوية الشعب الفلسطيني من التبديد والإلغاء. فكان أن أنجز الشعب الفلسطيني عنوان هويته منظمة التحرير الفلسطينية.

نقلت هزيمة العام ١٩٦٧ المنطقة إلى مرحلة جديدة، باحتلال ما تبقى من أراضي فلسطين الانتدابية وأجزاء من أراضي الدول العربية المجاورة مما أكد الطبيعة التوسعية للمشروع الصهيوني واستهدافاته الأوسع للمنطقة. كان وقع الكارثة على الفلسطينيين مختلفاً إلى حد ما. فقد استوعب الفلسطينيون الدرس جراء كارثة ١٩٤٨، بذلك لم ينجح المشروع الصهيوني مرة أخرى في اقتلاع الفلسطينيين من ما تبقى من وطنهم والذي احتلته اسرائيل، فكانت أرقام النزوح أقل كثيراً وبشكل لا يقارن مع ١٩٤٨، ورغم كل المحاولات الاسرائيلية للطرد والاقتلاع، فإن البقاء في الوطن كان قرار الفلسطينيين، كما عملت المتغيرات في الظروف الدولية على تراجع امكانيات الطرد كما سادت في العام ١٩٤٨. لكن هذا لم يثن اسرائيل عن عزمها في تنفيذ مخططاتها لاقتلاع السكان بكل الوسائل، وزرع الاستيطان الصهيوني من جديد في الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد العام ١٩٦٧. وكانت القدس المدينة التي تعرضت لأكبر هجمة استيطانية بعد ضمها إلى اسرائيل. لكن المأساة الفلسطينية توسعت جراء هذه الهزيمة، وكان أن تحول جزء آخر من هذا الشعب إلى لاجئين مرة أخرى، فكان اللجوء مرة أخرى بمثابة كارثة جديدة، وتحولوا من لاجئين داخل وطنهم إلى لاجئين خارجه.

كان على الفلسطينيين أن يدفعوا الثمن في كل مرة، حتى في الأوضاع التي لا علاقة لهم بها لا من قريب ولا من بعيد، وكانت المعاناة المستمرة هي عنوان هذا الشعب، الموزع بين احتلال اقتلاعي اجلائي يستخدم كل الوسائل لانجاز مشروعه بـ«أرض اسرائيل» كما يدعي بما فيها الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، وبين مخيمات المنافي التي لاحقها المشروع الصهيوني حتى في أماكنها البعيدة. وحدت المعاناة بكل أشكالها الشعب الفلسطيني الذي تعرض لكل وسائل الإلغاء والتبديد، وكانت كل خسارة جديدة تزيد من تمسكه بأرضه. حتى كان الزلزال الأخير الذي هز المنطقة جراء حرب الخليج الثانية، ورغم أن الفلسطينيين ليس لهم علاقة بما جرى في الخليج، كان عليهم أن يدفعوا ثمن حرب الآخرين وثمن اعادة ترتيب المنطقة، فكانت الدعوة الأمريكية لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي في ظل موازين قوى مختلة اختلالاً ساحقاً. وفي ظل ترد عربي لم يسبق له مثيل. وفي هذه الشروط كان على الفلسطينيين أن يخوضوا مفاوضات إلغائية، لقد عكس المشروع الصهيوني نفسه على وسائل المفاوضات الاسرائيلية التي أدارت المفاوضات ومازالت على أساس تحول الفلسطينيين إلى أداة بيد الاحتلال وقضم أكبر حجم ممكن من الأراضي الفلسطينية، وتحويل الفلسطينيين إلى سكان معازل على أرضهم، وحسب المنطق الاسرائيلي في «أرض اسرائيل».

لقد كان واضحاً في اطار المفاوضات التي أسفرت عن اتفاقات أوسلو، أن جميع الأطراف ـ وللأسف بما فيها الطرف الفلسطيني ـ قد قرروا تجاوز الأسباب الجذرية للصراع، وحصر موضوع الحل في التبعات التي أفرزها الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧، متناسين جذر الصراع الذي يعود إلى قرن سابق، كانت ذروته قد وقعت في كارثة ١٩٤٨.

وفي الصورة القائمة اليوم، يبدو فلسطينيو المنافي ضحايا المشروع الصهيوني، فهم الدليل الحي لعدم شرعية قيام اسرائيل على أرضهم، وبذلك يسعى الكثيرون إلى تجاهلهم مرة أخرى، خاصة المتسابقين للتقرب من دولة اسرائيل. إن أي حل للمشكلة الفلسطينية لا يمكن أن يكون بحل افرازاتها الجانبية فقط، بل لابد من حل جذر المشكلة، وهذا الجذر عنوانه الكارثة الفلسطينية عام ١٩٤٨، وإلا بقيت أية تسوية عرضة للانهيار جراء هذا التجاهل ■■

جذور السجل الإرهابي للصهيونية عبر التاريخ

حمدان حمدان*

أي حكم يمكن إطلاقه على السجل الإرهابي الصهيوني الذي أدى إلى مأساة شعب فلسطين؟!.. فالصور التي أطلقت حتى الآن مع شواهدها القاطعة ليست بالقليلة، ولو أنَّ أفضلها جاء بأقلام الإسرائيليين أنفسهم وليس غيرهم، فهذا هو موشي دايان في العام ١٩٥٦ يقول في رثاء صديق له اسمه روي روتمبرغ قُتل في مصادمات مع العرب: (لنتوقف اليوم عن قذف الذين قتلوا بالإتهامات، إذ مَنْ نحنُ حتى نناقش غيظهم، فقد انقضت ثمانية أعوام حتى الآن، وهم يجلسون أمام مخيماتهم الرثّة، وفي غزة يتم تحت عيونهم كيف نحوّل إلى مُمتلكاتنا الأراضي والقرى التي عاش فيها آباؤهم وأجدادهم.. نحن جيل من المستوطنين، لولا الخوذة الفولاذية والمدافع لما استطعنا أن نبني بيتاً أو نزرع شجرة بحذائهم).

وهذا هو الفيلسوف الإسرائيلي مارتن بوبر في كتابه اسرائيل والعالم، يُعلّق على مذبحة دير ياسين بقوله:

(هنا كانت الجريمة جريمتنا، أو جريمتي أنا بالذات، جريمة اليهود ضد الروح والإنسان، إنني حتى اليوم ومع تباعد السنين، لا أستطيع التذكر أو استدعاء الواقعة دون أن أشعر في قرارة نفسي بأنني مجرم).

إنّ أمام الباحث في شأن الإرهاب الصهيوني فرصةً نادرة، لايمكن أن تتاح لأي باحث في الإرهاب مهما كان اتجاهه أو جنَسيته، حيث بمكنته أن يغرف من بحر الدماء العربي عبر قرن أو ينوف، فقادة الإرهاب الصهيوني نشروا مؤلفاتهم سواء على شكل مذكرات أو أبحاث، حيث أماطوا فيها اللثام عن مختلف المنظمات الإرهابية التي كانوا ينتمون إليها مع العقائد الأساسية التي وجّهت عنف سلوكهم ودمويتهم ضد الآخر، كما وصفوا بدقة نادرة مختلف الجرائم التي ارتكبوها أو التمثيل بالجثث.. وغيرها من صور الوحشية دون خجل أو خوف أو تردد، وليس من المبالغة القول، بأنه لايسع المرء أن يجد في أي تراث عسكري ـ سياسي لشعب آخر، مثل هذا التراث المملوء بشتى نوازع السادية والإرهاب، دون حدود، وكما أن الإرهاب الصهيوني لم يقتصر على العنف ضد الأبرياء من عربِ فلسطين، فإن الإرهاب الصهيوني كان موجّهاً في وجهٍ من وجوهه، ضد اليهود ايضاً، ومَنْ يطّلع على تاريخ اليهود في الغرب، يدرك مدى الدور الذي لعبته الحركة الصهيونية في إيقاظ اللاسامية ضد اليهود..

إن القرار العقلي الذي تمّ بموجبه تجريد شعبٍ كامل من تاريخه وحقوقه لهو تحدٍّ للعقل والضمير الإنسانيين في جميع المقاييس، ففلسطين لم تكن أرضاً بلا شعب، كي يتم تعبئتها باليهود، وقد كان ذلك أول مصدر من مصادر الإرهاب ضد شعب آمن، ففي الوقت الذي لم يتجاوز فيه عدد اليهود في فلسطين عشرين ألفاً مقابل ثلاثمائة وخمسين ألفاً من عرب فلسطين، كتب هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية:

(سنحاول أن نخرج السكان المُعدمين عبر الحدود بأنْ نجد لهم مأوى في البلدان التي نطردهم إليها.. إننا ننكر عليهم أي عملٍ في بلادنا.. فإذا انتقلنا إلى منطقة توجد فيها حيوانات مفترسة، سنلقي بالسكان البدائيين للقضاء عليها قبل طردهم خلف الحدود ـ الدولة اليهودية ـ تيودور هرتزل ١٨٩٦).

وهكذا ينتقل هرتزل من الخواء إلى نظرية تفسير الخواء، فبعد أن كانت فلسطين في مخيّلته بلا شعب، أصبحت بعد أن زارها لمدة أسبوع فقط، أرضاً للبدائيين أو المعدمين، فالبدائية هي مكافئ الفراغ، ولا شيء آخر.

هذا وسيمدد وايزمن خَلف هرتزل في القيادة مفهوم الفراغ الفلسطيني ليشمل كل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا..

لقد كتب المؤرخ اليهودي موشي مينوحين الذي نشأ صهيونياً ثم ما لبث أن ارتدَّ عنها:

(لقد احتجت إلى حياةٍ كاملة، كي أنفصل عن هذه الفلسفة الوحشية العاصفة ـ أي الصهيونية ـ إنني اراها شكلاً مَرَضياً مأزوماً من أخطر الأمراض التي هي الأنانية الجماعية، إذ ما هذه القومية المتفلسفة التي تعتبر نفسها (مُطلقاً) يدين لها العالم بكل شيء ولا تدين لأحدٍ بأي شيء؟!..)



الشخصية الأخرى في قيادة الحركة الصهيونية هو زئيف جابوتنسكي حيث يتوجب منا اقتفاء آثار الجذر الإرهابي في فكره حين يوجه النصح للصهيوني قائلاً:

(كل إنسان آخر على خطأ، وأنتَ وحدَك على صواب، لاتحاول ان تجد أعذاراً لغيرك، فهي غير ضرورية، كما أنها ليست صحيحة.. لاتوجد حقيقة واحدة في هذا العالم إلا وكانت حقيقة وجودك أنت وليس غيرك!..)

ثم يقول: (إن ابني يعمل لصالح الهجرة غير الشرعية لإيصال اليهود إلى فلسطين.. إنه ظرف لايحق لي مناقشته!..)

أما تلميذ جابوتنسكي الحميم، ميناحيم بيغن فيقول على هدي مدرسته في الإرهاب:

(أكثر الأمور جوهرية في حياتنا، هو في امتلاك الشعور الداخلي الغامر، الذي يحوّل ما هو شرعي إلى غير شرعي، وما هو غير شرعي إلى شرعي مبرر، نحن بحاجة إلى الإقتناع المتواصل، بالشرعية المطلقة لأعمالنا غير الشرعية).

إن المنطلقات الإيديولوجية التي تشكل مجموعها ما يمكن أن يُسمّى بفلسفة الإرهاب الصهيوني، هي ما تشكل مجمل العقيدة السياسية للحركة الصهيونية وكذلك موقفها من الغير، إذ لم يأت تاريخ التشكل الإرهابي اليهودي منذ بداية هذا القرن مصادفة عابرة، فمن بين ست منظمات يهودية سياسية، كان منها ست منظمات ارهابية دون نقصان، إذ يمكن وضع تفاصيل مروعة من أعمال الإرهاب لهذه المنظمات الصهيونية التاريخية التالية:

١ـ منظمة هاشومير (فرق الحراس) وقد شكلها حزب بوعالي صهيون.

٢ـ فرق العمل، وهي منظمة إرهابية شكّلها المتطرف الصهيوني يوسف ترمبلدور.

٣ـ البالماخ: وشكلها اسحاق سادة وموشي دايان ورابين ولها اليد الطولى في مجازر قبية واللد والرملة..

٤ـ الأرغون وشكلها المتطرف الإرهابي الشهير ميناحيم بيغن وكان لها اليد الطولى في مذبحة دير ياسين.

٥ـ ليحي أو شترن وهي منظمة ارهابية شكلها المتطرف الصهيوني الشهير ابراهام شترن، وكان لها اليد الطولى في عمليات اغتيال العرب والإنكليز داخل فلسطين وخارجها...

٦ـ أما ما يحكى عن منظمة الهاغاناة التي أسسها دافيد بن غوريون، من أنها مجرد مؤسسة عسكرية أدت إلى توليد جيش الدفاع الإسرائيلي، فإليكم الوثيقة الرسمية التي أصدرتها حكومة الإنتداب البريطاني يوم ٢٤/ ١٩٤٦/٧ تحت رقم ٦٨٧٣ بخصوص منظمة الهاغاناة.

تقول الوثيقة:

(إن منظمة الأرغون وعصابة شتيرن تعملان بالتعاون التام مع قيادة منظمة الهاغاناة، في تنفيذ جميع العمليات المشتركة، كما أن الإذاعة السرية المسماة بصوت اسرائيل، هي في خدمة جميع المنظمات الصهيونية دون استثناء).

على صعيد الأعمال الإرهابية الميدانية التي مارستها اسرائيل ضد عرب فلسطين، فإنه لايتسع المجال هنا، لإستعراضها حسب اماكنها وتواريخها، وقد أحصى الأستاذ ابراهيم العابد في دراسته الفلسطينية حول العنف الإسرائيلي ما مجموعه ١١٩ عدواناً إرهابياً اسرائيلياً ضد العرب من العام ١٩٤٨-١٩٦٧، كذلك يكفي ما أوجزه الكاتب الفرنسي روجيه غارودي في كتابه فلسطين ـ أرض الرسالات صفحة ٣٢٦ حيث يقول: (لقد كانت نسبة الضحايا منذ قيام دولة اسرائيل مئة ضحية عربية مقابل ضحية اسرائيلية واحدة، ومع ذلك فإن الغرب الذي توجهه ماكينات الدعاية الصهيونية، يسمي الفلسطينين ارهابيين!..)

في جميع الظروف، فإنه ليس ثمَّة ما يبعث على الإستغراب، ففي الأسطورة اليهودية عن إعدام أريحا في التاريخ ما يبعث على الفخار، كذلك هو الوصف عينه لمذبحة شكيم (نابلس) في التاريخ، ألم يقل سفر يشوع عن أريحا (ضربوها بحد السيف مع ملكها وكل نفس بها..) وعن شكيم في سفر التكوين (قتلوا كل ذكر، وحمور وابنه ثم نهبوا المدينة، غَنَمهم وبقرهم وحميرهم.. وكل ما في المدينة أخذوه)، وعن كنعان (فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد) وعن العماليق (ضربوهم جميعاً بحد السيف ولم يبقوا منهم نسمة).

فمن للإرهاب في إبادته الجماعية، بأفضل من هذا النسق الفكري ـ الأسطوري المُظلم عبر الوف القرون؟! ■■

باحث فلسطيني مقيم في دمشق

الحركة الصهيونية نشاز تاريخي

عدنان مسلّم*

ترجع محاولة اليهود بإقامة دولة يهودية في فلسطين إلى العهد الذي أبيدت فيه مملكتهم القديمة على يد الامبراطورية الرومانية وقد استمرت هذه المحاولة اليهودية على مدى الأجيال عندما كانوا يعانون حياة التشرد في كل مكان وعبروا عنه بالطقوس والشعائر الدينية، والأدب والأساطير والقصص والتعاليم السرية والتربية الدينية.



وظلت هذه المحاولة حية في نفوسهم الحاقدة السوداء، تدفعهم دوماً إلى بذل الجهود في سبيل العودة ولكنها لم تأخذ مجراها السياسي إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

وقد تجلت هذه المحاولة وتجسدت بشكل عملي رسمي بالبرنامج الرسمي لحركة الصهيونية وقد عبر عنه في مؤتمر (بال) عام١٨٩٧.

يفسر الهدف من هذا البرنامج بأن غاية الصهيونية إيجاد وطن للشعب اليهودي الموزع في الشتات في فلسطين يدعمه قانون عام، وإيجاد هذه الدولة هو شيء أساسي لانجاز هدف الصهيونية أما البداية لتحقيق الغاية فهي أن يجدوا عوناً دولياً من قبل حكام العالم وقد كان ذلك ملقى على عاتق مؤسس الحركة الصهيونية المدعو(تيبورد هرتزل) وأخلافه من أقطاب الصهيونية الذين كرسوا أنفسهم لهذا الهدف منذ وجود الحركة الصهيونية وحتى الآن. واستمرت الصهيونية تعمل في الخفاء بسبب الاضطهاد الذي تعرض له اليهود الأمر الذي جعلها تحث اليهود سراً على التمسك بتعاليم التوراة ووصايا الحاخامين وقد لجأت إلى اساليب عديدة وخطيرة لتحقيق أغراضها كإنشاء الجمعيات ذات الأهداف السرية لتحقيق مساواة اليهود مع غيرهم من افراد المجتمعات التي يعيشون فيها وهدم الإيمان وزرع الشكوك وإشاعة الفوضى والأحقاد والخلافات لاستغلال ذلك كله من أجل مصلحة اليهود وتأمين النفوذ والسيطرة لهم.

واستطاعت الصهيونية أن تحفظ لليهود تماسكهم رغم تشتتهم وقلة عددهم وحفظت لهم كيانهم من الذوبان في الأمم التي عاشوا فيها أو بينها مئات السنين.

وتمكنت الصهيونية من فرض سيطرتها على بعض دول العالم فكان لليهود نفوذ كبير على أجهزة ومراكز التوجيه في البلاد التي يوجدون فيها عن طريق امتلاكهم الأموال وسيطرتهم على مصادر الثروة والقوى الاقتصادية، معتمدين للوصول إلى هذه المراكز على: ١- اتحاد ومصالح اليهود وحاجتهم إلى أن يساعد بعضهم بعضاً محلياً وعالمياً. ٢- وحدة التاريخ اليهودي بكل إيجابياته وسلبياته. ٣- وحدة الغرض وهو استغلال العالم لمصلحتهم. ٤-وحدة الدم حيث يعيشون منعزلين عن باقي الأجناس البشرية. ٥- اضطرارهم للتعاون مع بعضهم البعض للمحافظة على كيانهم. ٦-إحساسهم المشترك بالنقمة على العالم بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا إليه. ٧- وحدة الدين التي تنص على بعث الفكرة العنصرية واحتقار باقي الأجناس الاخرى والعمل على تنفيذ أوامر الرب لتحقيق سيادتهم على الأجناس الأخرى.

وحقق اليهود لأنفسهم فعلاً مراكز ممتازة في معظم دول أوروبا خلال القرن السابع عشر وما تلاه فكان منهم الحكام والوزراء ورجال السياسة وأصحاب الملايين والصناعيون الكبار وأصحاب البنوك والشركات والمفكرون والكتاب والادباء.

وقد استقرت سيادتهم وسلطتهم على هذه المراكز بفضل مقررات وتعاليم دستورهم المستقبلي وهي ما سميت (بروتوكولات حكماء صهيون) وهي مبادىء خطيرة جداً تهدف إلى دوام السيطرة اليهودية على العالم عن طريق إشاعة التفريق والشقاق بين

الشعوب، وهدم شرائع الأمم ومقدساتها ونشر الذعر والفوضى والفتن والسيطرة الخفية على مصادر الانتاج والقوة.

ولعل سبب انكشاف المخطط الرهيب (البروتوكولات) أن أقطاب الصهيونية العالمية لما كانوا يعقدون مؤتمرهم الخاص في (بال) سنة ١٨٩٧ دهمهم نفر من الشرطة القيصرية الروسية القادمين من موسكو بنار أضرمت في البناء حيث يعقد المؤتمر فحاقت الهلكة بالصهيونيين المؤتمرين فلاذوا بالفرار فاقتحم رجال الشرطة القاعة وجمعوا ما على مناضدهم من اوراق ومضابط ومذكرات، وانتقلوا بها إلى موسكو وهناك جرى تمحيصها وإذ مافيها أطلق عليه:

«برتوكولات حكماء صهيون»

وتتجلى هذه البرتوكولات بالمعطيات التالية:

أولاً: القوة هي مصدر السلطة وتستمد من خلال العنف والارهاب «يجب علينا نحن اليهود أن نعرف أن ذوي المطامع والطباع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطباع النبيلة وإذا فخير الوسائل في حكم العالم ما نقوم به من مؤتمرات عن طريق هؤلاء الأشخاص واستعمال العنف والارهاب».

ثانياً: الاعتماد على التجارة والربا: «يجب نحن اليهود أن نوجه ضرباتنا لكل أمة حسب مزاجها ولونها ولا ننسى أن جميع الأمم تعتز بالذهب ورغد العيش. وإذاً فسيكون مرابونا على استعداد دائماً لغزو القصور والبورصات وانتشال التجارة من أيدي غير اليهود وذلك بتوحيد جهودنا وجمع كلمتنا ورسم خطة واحدة».

ثالثاً: الإيمان بالرمز المقدس لهم وهو الأفعى ولهذه الأفعى مخطط مؤلف من /٩/ مراحل بدأ هذا المخطط من وقت سبي بابل منذ ٢٤-٢٥ قرناً وموعد انتهاء المرحلة الأخيرة آخر القرن العشرين هذا وفي فلسطين كما يزعمون.

ولعل القارىء العربي تعروه وثبة شعورية: نحن على مرمى حجر من نهاية القرن العشرين هي على حساب المخطط اليهودي لاتمام الوصول إلى فلسطين ويكون ذلك المرحلة التاسعة والأخيرة عن طريق القسطنطينية.

ثقوا أيها الأخوان أننا اقتربنا من تحقيق هدفنا ورمزنا (الأفعى) كادت تصل إلى حجرها بعد أن نفثت سمومها في أكثر الأمم المتمدنة ولم يتخلف عن هذه السموم ما يسمونه أحزاباً كل منهم يهدم الآخر فلن يعودوا أقوياء لمقاومتنا ولن يرد بصرهم لأنهم قد فقدوا بصيرتهم أو أصبحوا كالأعمى الذي فقد عكازه.

رابعاً: التركيز على الجمعيات الماسونية: «كل تبديل في الحكم سيصحبه تخريب. ولاينزل الملوك عن عروشهم إلا بضربات الشعوب القاصمة وسيكون وكلاؤنا دائماً مستترين وراء الجمعيات الماسونية المنتشرة في العالم».

خامساً: السعي لتحقيق الحكومة المركزية والتأكيد على التعصب الذهبي والاعتماد على المضاربات في البورصات لتحطيم أي نشاط صناعي أو زراعي وإلى جانب الخطط السابقة الحاجة إلى الجيوش الجرارة والقوات الكبيرة من البوليس لحماية الجمعيات السرية.

سادساً: اتقان جميع الوسائل الهدامة لتحطيم أخلاق الشعوب غير اليهودية «يجب علينا أن نكون على استعداد دائماً لمواجهة أعدائنا في كل الميادين. وليكن تعاوننا مع أهل السوء وأصحاب السوابق والماضي البغيض أو نقوم بشراء دم الأحرار والكتاب والشعراء حتى إذا وقع اختيارنا على حكومة منهم كنا كالديدان خلفهم كي لا يحيدوا عن الطريق الذي نرسمه لهم، فإذا ما خالفونا فضحنا أمرهم وقبضنا بأيدينا عليهم».

سابعاً: تحديد مهارة الساسة والحكام في الكذب والنفاق والكلام المعسول وقلب الحقائق ودراسة الوسائل المؤدية إلى تنفيذها وأهمها رشوة الدجالين والمنافقين الذين يوافقون على كل مطلب منهم.

ثامناً: طغيان الدين اليهودي وسيطرته على كل الأديان: «عندما نصبح سادة العالم وساسته لن نسمح لدين من الأديان بالظهور عدا الدين اليهودي الذي اخترناه والذي به اختارنا الرب لنسود العالم فلنكن أساتذة في اللاهوت عالمياً ودعاة أحرار الفكر ورجال الأدب».

تاسعاً: دور الماسونية في السيطرة على العالم «سنقبض بيد من حديد على من تحدثه نفسه بالمؤامرات ضدنا قبل أن نصل إلى هدفنا الذي سنعد له العدة بالانقلابات السياسية في أنحاء المعمورة في وقت واحد كما أننا نعرف أن هذا لن يتحقق بالوقت القريب العاجل ولكننا سننتظر ولو قرناً حتى نتمكن من تصويب ضربتنا القاتلة إلى كل من تحدثه نفسه بمقاومتنا كما أننا لن نبقي على الجمعيات السرية إلا ما يقوم منها بخدمتنا كالجمعيات الماسونية».

عاشراً: السيطرة على الأجيال: «سنحدد برامج الدراسة في الجامعات ونعين لها أساتذتنا أي أساتذة يهود لنخرج منها هدامين للمجتمع غير اليهودي. وبذلك نستطيع السيطرة على أطفال الشعب ونجعل منهم آلات تحركها أصابعنا ويكونون طوعاً لنا يرهبون حاكمهم ويحبونه ويكون ذلك بتعليمهم العلوم النظرية لا العلمية أو الفكرية حتى يكونوا دائما كالبهائم».

أحد عشر: استخدام الاغتيالات السياسية كوسيلة من وسائل تحقيق أهداف الصهيونية. ناهيك عن بقية الوسائل الأخرى.

هذه حقيقة الصهيونية كامنة في بروتوكولاتها التي خطتها في مؤتمرها الأول من قبل زعمائها.

فلنعرف جميعاً أنها حركة عنصرية سياسية تقوم على أسافين ثلاثة ترجمتها هذه البروتوكولات ألا وهي:

أ ـ العرق، ب ـ العنف، جـ ـ الدم.

وهي تطبق هذه البروتوكولات حسب الظروف والامكانيات وستستمر حتى التحقيق الكامل.

ولنعلم جميعاً أن اليهود ينتشرون في جميع أنحاء العالم وهم أداة تنفيذ دستور الصهيونية ويغلب عليهم حيثما وجدوا التكتل والتنظيم على نحو قوي. إن الصهيونية إذاً: ليست وليدة القرن التاسع عشر نتيجة الاضطهاد الذي عاني منه اليهود كما يحلو القول للمؤرخين دائماً هي تضرب جذورها في أرض التوراة.

على أنهار بابل. هناك جلسنا بكينا عندما تذكرنا صهيون.

نعم لقد قال «بن غوريون» «إن اليهود لا يحتلون شبراً واحداً من أرض العرب. ولايزال العرب يحتلون مساحات واسعة جداً من الأرض اليهودية الأرض التي وعدهم بها الرب».

ويقول كاتب العهد القديم:

«هكذا قال كورش ملك الفرس: إن الرب إله السماء قد أعطاني جميع ممالك الأرض وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم».

وحديثاً قال «بن غوريون» في كتابه بعث اسرائيل ومصيرها «إن ما خلق دولة اسرائيل هو رؤيا الخلاص المسيحي المنتظر لدى شعب مشتت في سائر أنحاء العالم. ولكن الدولة لم تحقق الرؤيا بعد».

وبعد فليستيقظ العرب من سباتهم ولترفع الأقنعة المسدولة هنا وهناك ويدرك الجميع أن حقيقة الصهيونية في بروتوكولاتها، وهي نشاز تاريخي وشر للبشرية كلها ■■

* استاذ في كلية الآداب ـ جامعة دمشق

الرواية.. الحنين.. المنفى

"الرب لم يسترح في اليوم السابع" لرشاد أبو شاور... نموذجاً

علي الكردي



قيل بما يشبه التأكيد، أن الرواية كشكل من الأشكال الأدبية تنبثق من لاواقعية الطموح والخيال، وهي بذلك أكثر الأشكال تعبيراً عن الحنين إلى وطن حنيناً ـ يتجاوز كل الحدود ـ هكذا عبّر جورج لوكاش في كتابه «نظرية الرواية» عن الأصول الفلسفية والروحية للرواية.

الآن، وبعد مرور خمسين لعنة على اجتثاث الفلسطيني من أرضه، ونفيه عن جذوره وماضيه، يُطرح السؤال مرة اخرى وبقوة: لماذا لم يكتب الفلسطيني بعد روايته على نحو مطلق؟! لماذا (إلى الآن) لانرى سوى شذرات موزعة هنا وهناك عن معاناة الفلسطيني المتجدّدة تروي قصة النزوح وآلام التجربة، لكنها لاترتقي بأي حال من الأحوال إلى مستوى التراجيديا التي أحاقت بهذا الشعب؟!

الروائي اللبناني إلياس خوري، حاول أن يتصدى لهذه المهمة الجليلة في روايته (باب الشمس) التي صدرت مؤخراً، لكنه يبدي في أحد الحوارات التي أجريت معه دهشته لعدم تصدّي المبدعين الفلسطينيين لهذه المهمة الصعبة؟! ربما الإجابة على مثل هذا السؤال تستدعي دراسات معمقة في النقد وعلم الإجتماع والسيكولوجيا الجمعية لهذا الشعب، قبل الجزم والإجابة التبسيطية على مثل هذه الأسئلة الصعبة، لكن المؤكد أن الفلسطيني، يعيش المنفى كحالة للوجود غير المتصل. ومن هنا نشأت حالة صراعية لم تنتهِ بعد وهذه الحالة فرضت حالة البحث الدائم عن الذات وبالتالي خلقت شعوراً ملحاً لدى أهل المنفى بضرورة إعادة تشكيل حياتهم المحطمة، وذلك بالتأكيد على خصوصية الهوية والإهتمام الدائم بإعادة إحياء التراث الوطني... والثقافة الوطنية، وهذه الحالة هي شكل من أشكال رفض الذوبان، أو الإمحاء، وربما استغرقت هذه المهمات العاجلة المبدع الفلسطيني، وحالت دونه والتأمّل العميق الذي يدفعه إلى كتابة روايته على نحو مطلق.

يعالج إدوارد سعيد في مقالة له نشرتها «الكرمل» تحت عنوان: «تأملات في المنفى» هذه المسألة باستفاضة، ومما يقوله: «حتى لو تناسينا الأهمية التاريخية والسياسية للصراع بين اليهود ـ الصهاينة والفلسطينيين العرب، فهل من تصلّب ـ فيما يشهده العالم اليوم ـ أعنف من ذلك الذي يشوب نزاعهم وهو نزاع بين منفيين ومنفيين؟

الفلسطينيون من جانبهم يشعرون أنهم حولوا إلى أهل منفى على يد اليهود الذين عاشوا عبر التاريخ في المنفى. من المفارقات في التاريخ أن ينفى شعب على يد منفيين، وأن يحكم عليه إلى ما يبدو وكأنه الأبد، أن يعيش مرةً أخرى عملية الإقتلاع بيد منفيين، يبدو وكأنهم يتطلبون تكرار الرواية لأسباب يصعب على معظم الفلسطينيين فهمها، وفي صيف العام ١٩٨٢ تساءل كل الفلسطينيين عن ذلك الدافع الخفي الذي دعا اسرائيل التي أخرجتهم في العام ١٩٤٨ من ديارهم إلى مطاردتهم لإخراجهم من مخيمات اللاجئين في لبنان».

الحالة الصراعية الدائمة، تفرض إذاً على الفلسطيني معاناة متجدّدة، نرى تجلياتها الآن في حالة الحصار، والإيغال في الإستيطان وبناء الطرق الإلتفافية وتهويد القدس ومحو هويتها، والإصرار على عدم الإعتراف بحق العودة، وبالتالي إسقاط حق انتماء الفلسطيني إلى وطنه، إضافةً إلى محاولات طمسه وتغييبه، لكن الفلسطيني يقاوم كل هذه المحاولات بحنينه الذي لاينضب إلى وطن، هذا الحنين الذي يتجاوز كل الحدود كما قال جورج لوكاش، وعلى صعيد الرواية جرى التعبير بقوة عن هذا الحنين في أعمال روائيين فلسطينيين كغسان كنفاني، وجبرا ابراهيم جبرا، وأميل حبيبي، وسحر خليفة، وليانة بدر، ويمكن في هذا السياق أن نأخذ رشاد أبو شاور نموذجاً في روايته (الرب لم يسترح في اليوم السابع)، حيث يجسّد رشاد على نحو واضح في روايته هذه المعاناة المتجدّدة للمنفى الفلسطيني، في سفر جديد لآلام المنفيين. وإن يكن ثمة فروق (يجب أن نميزها) بين المنفيين واللاجئين والمغتربين والمهاجرين.. وإن كانت مصائرهم وأوضاعهم القانونية كثيراً ما تمتزج..

يحاول أبو شاور في هذه الرواية أن ... عذابات ومحن شعب يطرد مراتٍ عديدة، ... من مكان إلى مكان وهي تجربة فريدة، ... قصة الرحيل الفلسطيني الدائم من منفى ... منفى، بجمل قصيرة، نابضة بحرارة ... وكثافة الواقع، حيث يتجلّى الحنين ... تحدثنا عنه على نحو جارف بين قطبي ... الرحيل.. وسفينة العودة، حيث يكبر ... الفلسطيني بإعادة بناء ما تشظى عبر ... إعادة بناء الهوية ـ الوطن، واكتشاف ... حيث الرحلة بقطبيها السلبي والإيجابي، التي تمت والتي لم تتم، تحمل ... طياتها التناقضات الكبيرة والصغيرة لهذا الشعب، كأي شعب بكل ما فيه من أبيض وأسود وما بينهما من تدرّجات لونية.

لايحاول أبو شاور في هذه الرواية، إخفاء الجوانب السلبية، بل على العكس، يعمل بجرأة على كشف العيوب الذاتية وتعريتها من أجل تعميق الإنتماء لهذه القضية وربطها بالقضايا الإنسانية الأكثر شمولية لذلك فهو يتجاوز عالم «الغيتو» الضيّق رغم الغربة والمعاناة والحصار، وينظر إلى المسألة بمنظار انساني شمولي لحركة شعب يناضل من أجل استعادة كيانه وهويته.

ورغم أن الرواية طافحة بالسياسة، بما هي معادل للحياة، وانعكاس للواقع بتلاوينه العميقة، عبر الإيحاء والإشارة والرمز، إلا أن (الحنين) هو الذي يطفو على فضاء النص، ويطغى على كل ما عداه، والترميز هنا ليس تجريداً في الفراغ، بل ترميز للواقع نفسه، وتأصيل له، وإلاّ كيف تصبح «الميرمية» برائحتها النفاذة الخاصة رمزاً للفلسطيني المرتبط بالأرض.. كذلك رقصة الجنونة، ورائحة خبز الطابون، وصوت الناي، وزغرودة الأم الفلسطينية، والمواويل.. إنه الحنين الذي تحدث عنه لوكاش، هذا الحنين النابع من الذاكرة الشعبية الفلسطينية، الضاربة جذورها في التاريخ العميق لهذا الشعب، والأصالة ذات الأبعاد الإنسانية التي تتجاوز الحدود الضيقة بانفتاحها الحار، وتفاعلها المتبادل مع الآخرين.

ثمة إشارة أيضاً إلى الضرورة المعرفية، حتى لايظل الحنين مجرد حنين رومانسي غير فاعل «الكتب كثيرة في البيت، كتب.. كتب.. كتب في الدين والقومية وفي الماركسية.. كتب غسان كنفاني وصورة الشيخ عز الدين القسام» وكأن الكاتب يريد التأكيد على ضرورة استمرارية النضال على ضوء الرؤية القسامية الوطنية، وكذلك يريد التأكيد على استمرارية فعل الشهيد، الرمز «غسان كنفاني»، فالكتاب هنا بمثابة المشروع الثقافي الوطني الذي دفع الشهيد غسان حياته ثمناً له «كتب غسان كنفاني ساضعها هنا على الصوفا، حتى



إذا دخلوا صدموا بانه لم يمت» ص٢٢.

إن معنى الكتابة، كما يقول فيصل درّاج هو بحثها عن النقاط العمياء، هو كشفها عن لامرئي قائم في الحياة، هو تدميرها لرؤية خاطئة.. بهذا المعنى نجح أبو شاور الذي عاش معاناة المنفى، وقلق الحصار، ومعاناة الرحيل، وقرع الموت بابه أكثر من مرة في كشف خبايا الواقع وتعقيداته، لأنه لم يكتب كمتفرّج يلعب لعبة ذهنية من بعيد، بل عاش صخب الأحداث، ونزف معاناته المعاشة على الورق، فحبك نسيج عمله الروائي من مئات المشاهد اليومية الصغيرة التي كانت تزخر بها شوارع بيروت المقاتلة: بيروت المحاصرة والحالمة «بيروت التي تعبق برائحة الياسمين رغم أكوام الزبالة.. والذباب والجرذان».

ما بعد لوحة الوداع، حيث نودّع بيروت المدنية ـ الرمز تدور بقية أحداث الرواية على متن السفينة القبرصية «سولفيرين» إحدى السفن التي نقلت المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، وتتوالى اللوحات على مدار ستة أيام هي عمر الرحلة، عمر الخلق، فالرب استراح في اليوم السابع، وربما نسي الفلسطيني غارقاً في معاناته وغربته، والرحلة وصلت المنفى الجديد (المصير المجهول)• يطرح الكاتب من خلال روايته، مجموعة من الأسئلة، ويقدّم نماذج حيّة من هذا الشعب، تتحرّك على ظهر السفينة بدمها ولحمها، بانتصاراتها وهزائمها، بقوتها وضعفها، ومن هذه الزاوية فهو لايقدّم وجهاً أحادياً بل يحاول تسليط الضوء على كل الألوان، ولا تنقصه الروح الإنتقادية الساخرة، ولا الجرأة في اقتحام الظاهر، وإبراز ما وراء الأشياء، أو كشف المفارقات، وتوجيه الإدانات، إنها عملية صراع داخلية لإسقاط الأقنعة، فعلى ظهر السفينة وجنباً إلى جنب يوجد أصحاب المحسوبيات من عناصر الأمن وقوات الـ ١٧.. وأصحاب الرتب من عقداء ومقدمين.. وكل هذا العفش الذي تفوح منه روائح كريهة، منفرة، إلى جانب المقاتلين الحقيقيين الذين دافعوا بأجسادهم وأرواحهم وعقولهم عن بيروت الباسلة.. عن الثورة ـ الوطن.

يوحّد رشاد بين الأرض والإنسان.. بين المرأة والتربة، بين جوهر الإنسان اليومي ومعنى التاريخ.. إنه مزج المجرّد بالمشخص على حد تعبير درّاج: «كيف يحمل الإنسان ملامح الأرض، وكيف يستوي المحدود واللامحدود، وكيف يتساوى الفرد والتاريخ؟!».

في هذه الرواية ـ النموذج، لايحاول الكاتب صياغة الفرد، أو الإكتفاء بالسرد، أو الوصف الداخلي أو الخارجي لأحداث روايته وإنما يقدم صيغة جديدة للكتابة تحاول بصورة بانورامية مقاربة تاريخ شعب، وما تركيز الضوء على الفرد سوى محاولة لخدمة هذه الفكرة وإغنائها، حيث الحوادث التي يركّز عليها بسيطة في ظاهرها لكنها عميقة بدلالاتها لوحة (رشيد يبكي) حيث نلمس حس المسؤولية العميق لدى هذا المناضل الذي يكبس الملح على الجرح ويبكي قهراً لأنه لايريد المواجهة مع أصحاب المحسوبيات في وقت غير ملائم حيث يلاحقنا سمك القرش (البارجة الأمريكية سيرسه والمركب الفرنسي)، ورغم أنه يعي الترابط وعلاقة العوامل الداخلية بالعوامل الخارجية، وليس لديه وهم المبالغة في حصر المسألة بالشر القادم من الخارج فقط باعتبار السلبيات الكامنة فينا هي امتداد لهذا الشر ودوار البحر، إلا أنه يفضل عدم المواجهة وتغليب الرئيسي على الثانوي، لأنه لايريد خلق مذبحة غير مبررة على ظهر السفينة.

إن الحنين يتجلّى أيضاً في شخصية (رشيد) المثقف الوطني الذي يحمل في داخله تكثيفاً عميقاً للكلمة الصادقة المقترنة بالممارسة العملية ومقياسها الصدق والمشروع الوطني البديل و /أريحا مدينة القمر/ في قلبه أينما ذهب «أريحا أخفض نقطة في العالم وهي مقدسة.. لقد طهرناها من الأفاعي والعقارب وظل أغنياؤنا يلوثونها».

ورشيد يحب «زينب» المقاتلة ذات العينين السوداوين والجسد المضمخ برائحة العرق الزكية.. زينب المرأة ـ الخصب نموذج الفتاة الفلسطينية ـ المعاصرة، مثقفة ومقاتلة، عاشت غربة المنفى في أمريكا ودرست الإقتصاد السياسي هناك، لكنها لم تنس رقصة الطيارة وخبز الطابون، ورائحة الميرمية والزغرودة.. هذه هي الأصالة الفلسطينية التي تشكّل أدوات المواجهة، وهي بعد مرور خمسين لعنة مازالت عميقة الجذور، منفتحة على الأفق وواعدة في المستقبل ■■

ندوة

محمد ملص - قيس الزبيدي - بسام كوسا

السينما العربية والقضية الفلسطينية

ملص: المسألة ليست قضية فلسطين وإنما، ليس للسينما حضور وجداني في حياتنا.

الزبيدي: أعمل على تأسيس أرشيف سينمائي وطني فلسطيني.

بسام كوسا: لانستطيع القول أن هناك سينما عربية تتحدث عن القضية الفلسطينية.

في إطار الفعاليات الثقافية، التي أقامها منتدى غسان كنفاني الثقافي في الذكرى الخمسين للنكبة في قاعة الشهيد غسان كنفاني بمخيم اليرموك (قرب دمشق)، تحدث كل من المخرج السينمائي محمد ملص، والمخرج قيس الزبيدي، والفنان بسام كوسا في مسألة السينما العربية والقضية الفلسطينية. هنا تكثيف لأهم ما جاء في أحاديثهم.

محمد ملص:

- لايختلف كثيراً وضع الفلسطيني في السينما العربية عن وضع العربي في السينما العربية، المأساة والمشكلة ما تزال واحدة، وكما نشأت فلسطين كمشكلة في هذا المجتمع العربي وكما عاشت هذه المشكلة إرهاصاتها المتعددة ومحاولاتها المتعددة لتجاوز نفسها كمشكلة، ما تزال المشاكل والقضايا التي يعيشها هذا المجتمع هي صور مستنسخة تماماً عن بعضها البعض وغير قادرين على الخروج منها، كمن يسير في مستنقع يتولد عنده وهم السير لكنه أبداً لايخرج من هذا المستنقع.

كي لا أحول الكلام وألقيه وأجعل من فلسطين قميصاً، لا أقصد في كلامي الموضوع السياسي فقط. بل من الممكن أن أضع نفسي أمام أسئلة نطرحها اليوم، كم نحن على علاقة ليس فقط بقضيتنا ومشاكلنا وبوجودنا كله؟ كم نحن على علاقة بعصرنا؟ آخذ مثالاً (كثير تافه) نحن نتحدث عن منتدى غسان كنفاني عن السينما وهذا المنتدى ينتمي إلى أحد الفصائل الفلسطينية الهامة، كنت أتمنى أن تجري هذه الندوة في صالة فيها شاشة ونحكي كم هو غائب الفيلم، لكن الفيلم غائب والشاشة غائبة والصالة غائبة وتكاد تكون (مع حبي للجبهة) أن تغيب الجبهة، ولنكن واضحين، لأننا إن لم نكن صريحين مع بعضنا لن نلتقط كيف نخطو خطوة صغيرة للأمام، القضية ليست قضية فلسطين إنما القضية يبدو لي أن السينما ليست ذات حضور وجداني في حياتنا في عالمنا، ويبدو لي أنه لم تتحول السينما إلى وسيلة إلا حين تكون لدينا مشكلة كأنه نحتاج لمشكلة فلسطين ليكون هناك سينما فلسطينية، يجب أن تعيش الناس في المخيمات حتى نعبر عن بؤسهم، أن يقتل قائد حتى تدور الكاميرا وتصور، هذه أمثلة نطرحها لإلقاء ضوء على آلية حضور السينما في داخلنا، وكيف يخرج من داخل هذاالحضور الضئيل، تخرج منظمات وتصبح ثورة وتخرج قادة سياسيين والسينما لاتتحول في وجدانهم إلى سينما، لماذا لاتتحول، لأنه يبدو لي السؤال الأعمق (وأنا لاأريد أن أطير فوق الأسئلة) نحن نتحدث كثيراً عن الهوية لكن أبداً لا نعرف ولا نفكر ولا نكتشف وسائل تحديد الهوية، (تصوروا: كل شهداء الثورة الفلسطينية استشهدوا من أجل الهوية، كما تربينا على مدى خمسين عاماً) طيب ما هي الهوية؟!

السينما إذا لم يكن لها حضور في وجدان الحياة اليومية للناس، طالما الفيلم السينمائي لم يتحول ولا مرة لجزء من الحياة العضوية للناس، للحياة المعاشة، كي نلتقط عبر وجودها في داخلنا، كي نلتقط أين نجد أنفسنا في داخل هذا الوجود الموجودة فيها السينما، بدون مبالغات كلنا سواء كعرب، كلنا اليوم بعيدون كثيراً عن موضوع الإرتباط بالعصر بالمعنى الذي تحدث عنه الأستاذ قيس الزبيدي، بمعنى ما يثار اليوم من أحاديث وعناوين قد تبدو بعد خمسين سنة غير واضحة في حياتنا العربية كمواضيع العولمة، استبدلنا الإمبريالية بالنظام العالمي الجديد، ودائماً نمشي بنفس السكة الوحيدة التي وجدناها أمامنا، عمرنا لم نحاول البحث عن سكك مختلفة للمضي سواء السكك الموصلة إلى أنفسنا إلى داخلنا أو السكك الموصلة للعالم المحيط فينا، بهذا المعنى قد ندين البنيان العلوي، الفوقي (كما كان يسمى بالماركسية) الذي لم يساهم بتحول الأفكار والإنتاج الذي يساعد على التعرف بهويتنا بشكل أفضل، هذا البنيان الذي هو خارج عن البنيان التحتي، هذا لم يكن موضوعاً أو قضية، وكان البحث عن السينما دائماً هو مادة مقلقة للقليل من محبي السينما وعلى الأغلب هم ينتمون إلى ما يمكن تسميته بالشريحة المثقفة في مجتمع من المجتمعات، سوري، مصري..الخ

أنا الآن أحاول التطلع في وجوه الحاضرين وأحاول رؤية رغبة في الإستجابة، الأسئلة اليوم، إذا أردنا عمل جردة لنقول ماذا عملنا في الماضي على صعيد السينما أبداً لايختلف عما عملناه على أصعدة أخرى وعلى نتائج أخرى، اليوم نرى هذا التحالف، الحماس، الإندفاع ضمر في داخلنا ويكاد أن يكون على وشك الإنطفاء، هذا الذي يسمى الوهج والإندفاع الداخلي لأنه لم يكن إلا اندفاعاً له علاقة بالمشكلة كمشكلة والشعارات التي تفرض نفسها وتطرحها محطات في مسيرة وعلاقة الإنسان بالمشكلة التي واجهها، لم يكن يتحول إلى وهج مرتبط بالإنسان ووجوده، بالمعنى الوجداني الذي نرى المجتمعات كلها تحاول أن تعبر عنها بشكل إبداعي سواءً عبر الأدب/ المسرح/ السينما/، نحن ليس فقط عبر


محمد ملص


قيس الزبيدي


بسام كوسا

السينما لم نتمكن من ذلك ربما عبر كل وسائل التعبير عن أنفسنا لأننا يبدو لي أن أنفسنا لانتعرف عليها صح، وهنا سواء بالتذكير أن العدو الصهيوني كان منذ ظهور السينما على وعي بذلك، لأنه كان على وعي بنفسه وبمشكلته بالتالي لم يكن من الصعب أن يكتشف الأدوات القوية القادرة على أن يستخدمها للتعبير عن نفسه، بمعنى آخر لسنا فقط لم نتعرف أنفسنا أيضاً لم نتعرف على عدونا.

دعونا حتى لانكون في حوار طرشان، نثقب كل السموم وكل السدود الموضوعة على آذاننا وأن نمسح كل الغشاوات التي وضعتها المشكلات والأنظمة..

لكي لانستمع فقط إلى فكرة واحدة أو جهة واحدة، أن نستمع بآذاننا نحن وأن نرى بأعيننا نحن نفسنا من أجل أن نتعرف على هويتنا وصراعنا، وليس صراعاً مع عناوين أو أوهام أو أقنعة، هذه القضية تكاد تبدو لي اليوم بالهموم الداخلية الخاصة بنا، تبدو لي ترفاً..

قيس الزبيدي:
أرشيف وطني سينمائي

ـ الحقيقة أنا الآن كما في السابق أعمل على موضوع مهم جداً كما أظن وهو التحضير لتأسيس ارشيف وطني فلسطيني، ففي «اسرائيل» هناك أرشيفان، وهما من الأرشيفات المهمة والشاملة لكل ما له علاقة «باسرائيل»، وبسبب من تداخل التاريخين الفلسطيني و «الإسرائيلي» هو في ذات الوقت بكل ما له علاقة بالشعب الفلسطيني، وموضوع الأرشيف الفلسطيني يخص بالدرجة الأولى الذاكرة البصرية للشعب الفلسطيني، في الوقت الحاضر مثلاً هناك مساع في أوروبا ودول البحر المتوسط للحفاظ على الذاكرة البصرية للشعوب الأوروبية وشعوب دول المتوسط، بسبب ما يُسمى بالعولمة الثقافية، واستحواذ محطات التلفزة الأمريكية على أرشيفات كثيرة سواء التي اشترتها أو تم الحصول عليها بعد انهيار المعسكر الإشتراكي وهذا يقود بالتالي إلى أن بعض التلفزيونات الأمريكية والإحتكارات الكبيرة استطاعت الحصول على قسم كبير من صور تنتمي لذاكرة هذا الشعب او ذاك، وتم توظيف هذه الصور في برامج تبث باللغة الوطنية وبالتالي يتم كتابة تاريخ شعوب كاملة عبر استخدام هذه الوثائق والصور، والمواطن في هذا البلد أو ذاك يتعرف على تاريخه عبر كتابة أخرى ليست كتابة وطنية، وهذا كان أحد الدوافع الأساسية للحفاظ على المواد البصرية التي عمرها الآن قرن من الزمان والتي لاتعتمدها أي كتابة للتاريخ في الرجوع إلى هذه الوثائق، ومن هنا فإن أهمية أن يكون للشعب الفلسطيني ذاكرة، وعبر هذه الذاكرة يتم تحديد هوية ونضال وثقافة الشعب الفلسطيني، ومن هنا تأتي الحاجة الماسة لتأسيس أرشيف وطني فلسطيني تحفظ كل ماله علاقة بهوية وتاريخ ونضال الشعب الفلسطيني، ويكون بمثابة مادة للكتابة التاريخية ومادة للتوغل في معرفة الهوية الفلسطينية، وبالتالي تحفظ هذه للأجيال القادمة من ١٩٤٨ وحتى الآن ـ وهذا ممكن عبر الرجوع إلى هذه الصور ـ لكن يبقى السؤال: هل هناك حقاً ذاكرة تم تسجيلها على صور؟! مباشرة أو بشكل غير مباشر وما هو حجم وسعة وكم هذه الذاكرة ـ الخزن والإحتفاظ لها علاقة بالكم وأيضاً بالكيف ـ ليس كل شيء تم تدوينه ذا أثر وأهمية ـ فهذا السؤال الذي يطرح، نورد بعض المعلومات وهي ليست معلومات ذهنية بقدر ما هي معلومات ملموسة وبالتالي عندما يتم بحث أو تأسيس مركز لحفظ الصور، فبالتي يتم معرفة حجم التدوين البصري أو السمع البصري على مايجب أن يحفظ، لدي إحصائية تتعلق بكل ما له علاقة مباشرة بالشعب الفلسطيني سواء كان فلسطينياً أو عربياً أو أوروبياً:

ـ حتى عام ١٩٨٦، هناك حوالي سبعين (٧٠) فيلماً تسجيلياً عربياً (بمختلف الأطوار يتناول الموضوع الفلسطيني/ من مقابلة مع فلسطينيي بغداد إلى مرافقة فدائيين في لبنان) هناك خمسون (٥٠) فيلماً روائياً طويلاً وقصيراً، وسبعين (٧٠) فيلم تسجيلي تم تسجيله في المؤسسات الفلسطينية/ مؤسسة الإعلام الموحد في بيروت، والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية ومختلف الفصائل الفلسطينية، هذا هو الكم الذي نستطيع ذكره كأرقام، ويمكن حسابه بالوقت، الساعات (الأمتار) بحيث يتم تأسيس أرشيف فلسطيني يستطيع معرفة (طاقة الخزن).

وهناك الكثير من الوثائق التي تم تصويرها في العالم التي تنتمي إلى ميدان أو حقل تاريخ وذاكرة الشعب الفلسطيني في بداية القرن، لكن نحن نتحدث عن الأفلام التي تم إنجازها منذ عام ١٩٦٨، بدءاً من عمان وبعدئذ في بيروت والشتات وخاصة من العام ١٩٧٠-١٩٨٢ التي كانت فترة استقرار نسبي تم فيها أكبر انتاج للسينما الفلسطينية، ما عدا ذلك، هذه السنة تم في مركز معهد العالم العربي في باريس عرض ستين فيلماً (٦٠) فيلم عن القضية الفلسطينية، من بين هذه الأفلام الـ ٦٠ كان هناك ٢٨ فيلماً فلسطينياً وهي أفلام تم انتاجها في الفترة من عام ١٩٨٠ حتى ١٩٩٦، والتي بدأت المرحلة الثانية التي هي نوعياً مختلفة عن السينما التي نشأت في أحضان الثورة الفلسطينية، وهي بدأت في أوروبا مع ميشيل خليفي في بلجيكا وغير ميشيل هناك

المشهراوي وإيليا سليمان ومي المصري، من جملة الأفلام التي عرضت وتتناول القضية الفلسطينية أو مصير الشعب الفلسطيني وتنقسم هذه الأفلام الـ ٢٨ إلى ٧ أفلام روائية حصراً و ٣ أفلام روائية قصيرة و ١٨ فيلماً تسجيلياً - أي هناك ٧ أفلام روائية طويلة بينما فترة لبنان تم انتاج فيلمين فلسطينيين أحدهما بالإشتراك مع المؤسسة العامة للسينما، لكريستيان غازي (مائة وجه ليوم واحد) وفيلم قاسم حول (عائد إلى حيفا) من انتاج الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

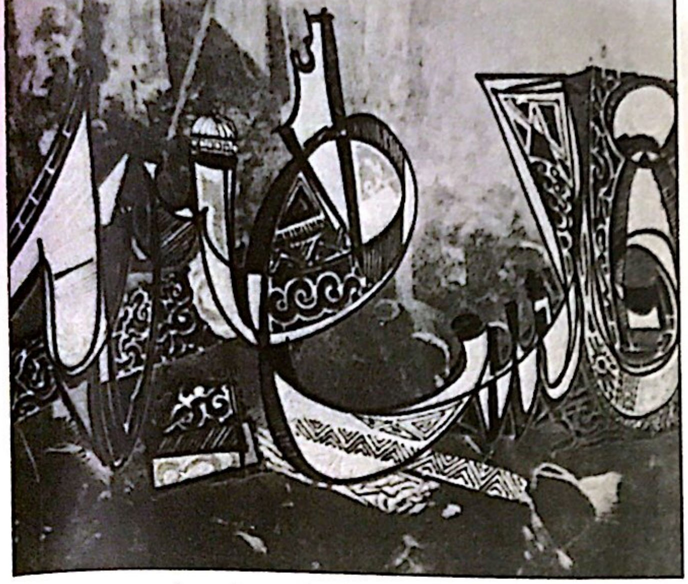
في «اسرائيل» عرض أكثر، لكن هناك فيلمين روائيين مخصصين للقضية الفلسطينية و ١١ فيلماً تسجيلياً طويلاً (١٣ فيلماً تم عرضهم في باريس) من أوروبا فيلمان روائيان وتسعة أفلام تسجيلية وعربياً كان هناك ٥ أفلام روائية أغلبها تم انتاجها في سوريا، وعرض أيضاً فيلمان عربيان وهما في الواقع فليمان فلسطينيان/ فيلم المنام لمحمد ملص، وفيلم وطن الأسلاك الشائكة لقيس الزبيدي لكن تم حصرهم ضمن الأفلام العربية، الأفلام العربية كانت ٧ من مجموع الستين فيلم وكان هناك فيلم أميركي روائي طويل واحد تم انتاجه في أمريكا عن القضية الفلسطينية. في الحقيقة هذه ليست مجرد أرقام بقدر ما هي مفاتيح لمعرفة الكم (كم الصورة التي تم تخصيصها عموماً لقضية مهمة هي قضية الشعب الفلسطيني) من بين الأرقام التي ذكرناها الآن هناك خمسون فيلماً روائياً طويلاً وقصيراً فيهم مجموعة كبيرة من الأفلام المصرية، هذه الأفلام ليست بذات قيمة مهمة للفلسطينيين، إنما هي أفلام كانت تتوجه للحماس عند جمهور القضية الفلسطينية وبالتالي استغلال هذا الحماس لأغراض يحددها شباك التذاكر (أي السينما التجارية) لكن الشيء الحقيقي الذي حصل في فترة من الفترات في سوريا/ فترة ٦٩ لحتى حوالي ٤ سنوات/ التي تم فيها انتاج أعمال مهمة جداً روائية وتسجيلية، نذكر منها/ رجال تحت الشمس والمخدوعون وكفر قاسم والسكين والأبطال يولدون مرتين/ هذه الأفلام بغض النظر عن الفوارق التعبيرية الفنية هي بدوافع ليست تجارية إنما هي بدافع الإهتمام السياسي والفكري بقضية الشعب الفلسطيني.

والسؤال الآن: إذا تحدثنا عما يسمى بالذاكرة الفلسطينية وأهمية الصور لهذه الذاكرة فأي من هذه الصور والأفلام فعلاً تصب حقيقة وتفيد في الحفاظ وإنعاش ذاكرة الشعب الفلسطيني؟ خصوصاً في الفترة من ٤٨ وحتى الآن؟ نقصد فلسطينيي الشتات والذين لهم حتى الآن في الإتفاقات السياسية وضع خاص، والذين وقع عليهم العبء الأكبر حتى في قضية تسيير وتوجيه النضال الشعبي الفلسطيني خارج فلسطين، من أجل تحقيق الدولة الفلسطينية، السؤال مفيد ومهم عندما نؤسس أرشيفاً فلسطينياً، ما هي فائدة هذه الصور والأفلام التي حفظت للأجيال القادمة وللجيل الحالي، ولمعرفة كيف عاش الفلسطينيون وضمن أي ظروف ما هي القضايا التي كانت تشغلهم والتي هي جزء كبير منها له طبيعة خاصة بتاريخ الشعب الفلسطيني، وفي هذه الحالة يتم الفرز وهذا يحتاج لجهود مركزية وشبه موضوعية وبالتالي نستطيع أن نستنثي قسماً كبيراً من الأفلام وبشكل خاص الروائية التي انتجت في مصر وأحدها في تونس، هذه الأفلام التي انتاجها أو عدمه في الحقيقة لاينتمي إلى تاريخ وهوية وذاكرة الشعب الفلسطيني.

بسام كوسا:

- ابدأ بتساؤل، ماذا قدم السينمائيون العرب والسينمائيون الفلسطينيون من مهمات اسميها نضالية - وإن أصبحت التسمية قديمة - للقضية الفلسطينية؟

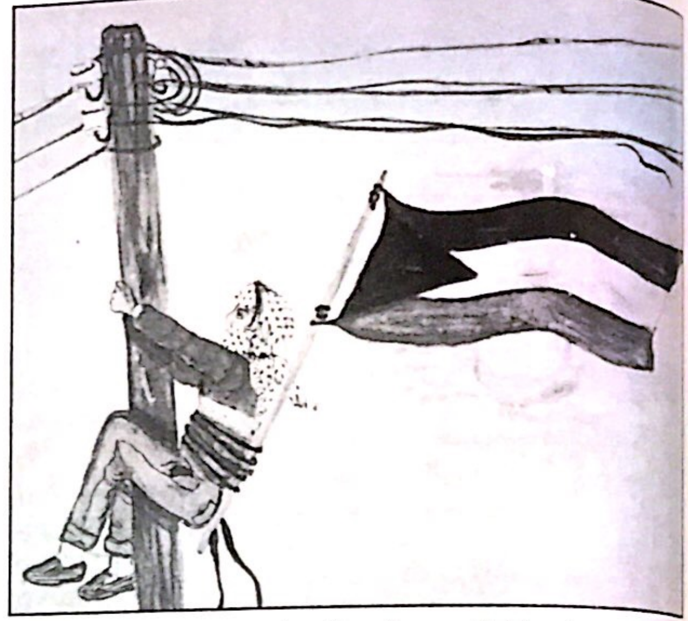
برأيي بهكذا حالة لايعنيني مطلقاً الجانب الإيجابي أن أذكره بقدر ما أريد أن نرى الجوانب السلبية التي كانت موجودة وتعامل معها المثقفون العرب والفلسطينيون من أجل هذه القضية - التي هي قضية محورية بالنسبة لكل المنطقة - حالياً يجري الحديث بمسألة السينما، مرت م.ت.ف أو الشعب الفلسطيني ممثلاً بـ م.ت.ف - بظروف عديدة أهمها أنه كان حتى العام ١٩٦٨ لايمتلك أي أدوات لوسائل الإعلام - من صحافة/ سينما/ مسرح/ إذاعة..الخ، بالتالي كان هناك دول عربية تقوم بهذه المساهمات كل حسب زاويته وحسب قناعته، أي كانت تنتج الدولة أعمال فلسطينية ولكن من وجهة نظرها القطرية بما يؤكد الموقع السياسي لهذه الدولة، بمعنى ليس هناك صوت خاص للشعب الفلسطيني لأنه لايمتلك أدوات وسائل الإعلام. لذلك ظلت هموم الشعب الفلسطيني متروكة لوسائل الإعلام العربية وهذه الوسائل حتى الثقافية منها وليس فقط الإعلامية، تضع هذه الهموم في نهاية سلم الأولويات، كانت تستخدم فقط عند الضرورة والحاجة، فأي نظام أو طرف أو مؤسسة تريد أن تقف في واجهة النضال تأخذ قميص عثمان (القضية الفلسطينية) وتقول نحن مع الشعب الفلسطيني، وبالتالي كل الإستخدامات الإعلامية كانت استخدامات مسخرة لهذه الأنظمة، وهذه من



المشاكل التي قدمت من خلالها أعمالاً لاتمت نهائياً بشكل مباشر وحقيقي للهم الفلسطيني أو القضية الفلسطينية، وكانت عبارة عن أعمال دعائية ومسطحة وإعلامية محضة.

هناك مجموعة انتاجات عربية وأهمها المصرية لأنها بدأت في الإنتاجات السينمائية كماً وزمناً - كم هائل من الأفلام السينمائية - ولكن معظم هذه الأفلام كانت تتناول قضية فلسطين بعد عام ٤٨ وماذا جرى بعد هذا العام - النزوح ومشاكل اللاجئين، ولم تتطرق إطلاقاً لأسباب النكبة وإلى السبب الحقيقي لنشوء هذه الأزمة التي سميت فيما بعد مشكلة فلسطين، دائماً يتحدث الفيلم عما بعد عام ٤٨.

وحتى عند وجود أفلام تتعامل مع المشكلة ما قبل ٤٨، ممكن أن تلقي الضوء على مجموعة مفاصل هامة، لماذا أصبحت «دولة إسرائيل»؟ ومن هو المسبب؟ لم تستطع هذه الأفلام التطرق لمسؤولية الحكومات والأحزاب والتيارات السياسية أو الطبقات الإجتماعية، كان هناك سبب واحد يجري الحديث عنه وهو الإستعمار والصهيونية، وكان ليس هناك عرب لهم اصبع أكثر من الإستعمار الصهيوني في فقدان فلسطين، وهذه من أهم المشاكل التي عانت منها السينما التي عالجت القضية الفلسطينية، إذا



هناك ذنب على أطراف عربية وفلسطينية في فقدان فلسطين، كلنا مسؤولون، ولكن كون هذه الأطراف تنتج أعمالاً لأجل مصلحتها فلا يمكن أن تتحدث إلا هجوماً ضد الإمبريالية والصهيونية التي سلبت منا فلسطين، وهذه النظرة قاصرة وسطحية جداً جداً.

بالتالي كان هناك مرحلتان من ٤٨ حتى ٦٧ وهي مرحلة ميتة وكان من يقوم بالأفعال الثقافية والإعلامية هي الدول العربية. والمرحلة الثانية من ٦٧ وحتى الآن، حيث صار هناك بعض الأفلام التسجيلية في فلسطين ولكنها كانت سياحية فقط لإلقاء الضوء على العمارة/ الشوارع/ الناس/ القدس.. من بعيد وليس على الهم الفلسطيني. جاءت مشكلة الأفلام التي تتحدث عن بؤس المخيمات، بؤس اللاجئين، حتى وكالة الغوث عملت أفلاماً ولكن مشكلتها أنها أفلام صحية تعلم اللاجئين كيف يتفاعلون ويتعايشون مع المخيم وكأنه أمر واقع منته، تعلم كيف تعيش بهذا المخيم، حتى وكالة دولية من هذا النوع كانت تقدم أفلاماً ليس لها جدوى للقضية الفلسطينية سوى أن تقدم خدمات صحية للاجئين الفلسطينيين/ تعلموا كيف تتعاملون مع هذه الجراثيم التي تعيش معكم لم تقدم شيئاً مفيداً.

بعد ٦٧ كان هناك أفلام ـ وأنا أتحدث عن العام السائد رغم بعض الإستثناءات التي لها قيمة ـ لكن العام والسائد وهو الأخطر كان عدد هائل من الأفلام الهدف الرئيسي منها هو استثمار القضية الفلسطينية تجارياً، الهم جذب الجمهور (دخل الشباك) وهذا الإستثمار حدد نوع وشكل هذه الأفلام التي قدمت أفلاماً ميلودرامية/ قصص حب مجانية ـ معالجات بوليسية ـ مبالغات ومصادفات/ باستثناءات بسيطة، وكان هناك أفلام حسنة النية ولكنها رديئة التنفيذ وهذه مشكلة بالفن والقضايا الكبيرة.

أدركت السينما بعد فترة تقصيرها بحق القضية الفلسطينية، وهذا التقصير كبير بسبب من أن هذه القضية لها علاقة جدلية وحقيقية بالتحرر العربي كاملاً وليس بتحرر فلسطين فقط وبالتالي أحسوا بهذا التقصير الكبير وحاولوا العمل على هذا الموضوع، صار هناك موجة من الأفلام الفدائية معظمها أفلام ميلودرامية أساءت أكثر بكثير مما أفادت بسبب تصويرها الفدائي كرجل لايقهر، سوبرمان، لايخاف، ينتصر دائماً، نصف إله، وكأنه خارج الزمان والمكان وليس خارجاً من بين الناس، لايتالم (رجل حديدي)، حولوا الفدائي إلى أسطورة بينما كان المطلوب تحويله إلى إنسان له مشاعر وأحاسيس ويخاف ويجبن أحياناً ويتألم أحياناً، هذا كله ألغي مما اساء إلى العمل الفدائي وحتى عندما يستشهد كان يستشهد بشكل أسطوري ـ لايوجد شيء عادي عنده ـ كل هذا الكلام يخص القطاع الخاص الذي استثمر القضية الفلسطينية بأقصى قدر ممكن لأن القطاع العام كان أكثر عقلانية، أقل مبالغة، النوايا جيدة، الإمكانات أفضل، الرغبة بالربح تقريباً ملغية أما القطاع الخاص فكان عمله مبنياً على استغلال الجمهور وابتزاز العواطف من الجماهير وحماسها الهائل في تلك المرحلة، تحول الرجل الفلسطيني الأمل إلى دون كيشوت، إلى وهم كبير لأن الأفلام كانت تنزع نحو الخطابة والحماسة الفارغة بعد مدة رفض الجمهور هذه النوعية من الأفلام لكن بعد أن فعلت فعلها ـ مشاهد متخلف أمي مقهور مُسْتَعمَر مستلَب جائع يدخل إلى السينما فيشاهد انتصاراته طوال مدة الفيلم ثم يخرج ليجد نفسه مقهوراً مضطهداً حتى يحين الفيلم القادم، عموماً أفلام القطاع الخاص والمنتجين تأثروا لحد كبير جداً بالسينما الأمريكية وهذه من عيوب الأفلام التي استثمرت القضية الفلسطينية.

ابتعدت هذه الأفلام تحديداً عن التحليل العقلاني ومسببات هذه النكبة وكانت أقل حرية ـ حتى لو أرادت ـ من أن تقول السبب في هزائمنا دائماً. بل قدمت بدلاً من ذلك مصنعاً للأحلام والأوهام يعوضها عن هزيمتها، وأخطر شيء كانت تقدم البطل الفرد.

أنتجت المؤسسات الرسمية أعداداً كبيرة من الأفلام التسجيلية عن الفلسطينيين كنوع من المتاجرة ببؤسهم فقط لكسب مواقع سياسية معينة، حتى لوكانت الدولة هي التي تنتج هذه الأفلام، فهي تصنعها لتضع نفسها قيمة على هذه المشكلة لكسب خطوة للأمام.

السينما مشكلة لأنها لاتحتاج فقط لحرية رأي (الكلمة وحدها لاتكفي) السينما بحاجة لأموال بحاجة لعقلية انتاجية، بحاجة لكوادر، لإمكانات بشرية، طاقات معرفية هائلة حتى تأخذ دورها الحقيقي الذي لم تأخذه حتى الآن، من مجمل الأعمال إن سألنا ماذا قدمت السينما العربية والفلسطينية للقضية الفلسطينية؟ نخرج بمحصلة بائسة جداً، حتى لانغالي يمكن لعملية فدائية صغيرة بالأرض المحتلة أن تساوي ضعف ما أنتج هذه السنوات من أفلام. الأمنيات دائماً أكبر من الواقع ولذلك نحن هنا، دائماً هناك هم، ليس من بعد بين الهم الإقليمي عن الفلسطيني بأي مكان، دائماً كانت تبرز مشكلة العزف على وتر الحماسة مما أنتج سينما حماسية تافهة، ألأنها فقط حماسية يجب أن أصفق لها، لمجرد أنتج أغنية حماسية (سميت تقدمية) يجب أن أصفق لها شعراء لمجرد أنهم يتحدثون عن البندقية يجب أن أصفق لهم، وهذه مشكلة فظيعة صاحب القضية يجب أن ينتج فناً راقياً، فناً بديلاً، لانستطيع أن نعلق على القضية كل تخلفنا وافتقارنا لأدوات التعبير، بل على العكس تماماً يجب أن تحفزنا على أن تكون أدوات تعبيرنا هي أرقى أنواع أدوات التعبير، لأننا أصحاب قضية خطيرة وصعبة.

العدو الصهيوني أدرك أهمية السينما بعد عامين أو ثلاثة من أختراع السينما ١٨٩٥، اي بعد المؤتمر الصهيوني الأول بعامين، من منطلق أنه يجب أن يكون هذا الإختراع التقني العظيم في خدمة قضيتهم الصهيونية، واستفادوا منها، نشاهد أفلاماً على مستوى أوسكار لكنها صهيونية، فيما نحن لم نستطع أن نصنع فيلماً (بالمفهوم المطلق وليس الإستثنائي) على مستوى عال جداً، إلا ما ندر قليلاً وبالتالي لانستطيع القول أن هناك سينما عربية تتحدث عن القضية الفلسطينية، نقول أنه عندنا بعض الأفلام التي تحدثت عن هذه القضية وهي أفلام نقف لها باحترام واجلال على قلتها ■■

النكبة والبحث عن الهوية القومية

عبد الكريم درويش

ليس كالمحن والمظالم والمآسي تفتّح وعي الإنسان على حقيقة قيمه ومبادئه وثوابته هذا الإنسان الرّازح تحت عبء ازدواجية مشروع النهضة الذي لم يتكوّن ويتجسد بعد، ومشروع الإنحطاط الذي يولد وينمو ويكبر ويصول ويجول: فالإزدواجية، ما انفكت تؤلف قطبي أزمة الحضارة العربية التي هي في الأصل تطرح مسألة وجود الأمة التاريخي، إن كان وهماً أو انبعاثاً حقيقيا، إن كان مرشحاً فعلاً لمضاهاة الواقع بما يتجاوزه ويبدّله، أوأنّه الإنبعاث على طريقة /لعازار/ «خليل حاوي» الذي أحيته معجزة لخدمة، نبوّة، في حين ظلّ هو الميّت المكفّن بخضرة التراب الرطب، ميّتاً، حجّرته شهوة الموت، رغم أنّه تحرّك بحضرة سيده المسيح وذهب إلى زوجته، التي عاشت معه فجيعة الإنبعاث المشوّد، ورفضته لأنها فضلت عليه «لعازار» الميّت الحقيقي.

فان تشيخ النهضة قبل أن تعطي حضارتها، ذلك هو رهان أهل التكنولوجيا ضد مشروع العرب في تأصيل الهوية القومية والعودة الحقيقية إلى التاريخ.

وليس كالهزائم والنكبات تفتّح بصيرة الإنسان على حقيقة مسلماته وبديهياته ومصادراته. هذا الإنسان المنسلب بالقطرية والطائفية والقبلية والصورة السياسية والإيديولوجية للرحم التي تخنق وليدها، حين يعجز عن اختراق جدارها، والإنسياح والإنفتاح على العالم.

إنها الردّة إلى الإنكماش والإزورار والتقوقع وراء حلم العودة إلى سكون الرحم خارج الزمان والمكان. إنها الرحم التي تنقلب قبراً لجنينها الذي عجز عن الصيرورة إلى وليد منفصل عن حَبْلها، وخارج وسطها الهيولى الساكن الراكد. إنها الخروج إلى ما قبل الميلاد، ولذلك هي استلاب البذرة لمشروع نموّها قبل التكوّن في جسدٍ ما وشكلٍ ما وهويةٍ ما.

وهل هوية الأمة هي ما تعرفه عن ذاتها، أو ما تتمنى أن تصير إليه. ومن يعرّف هذه الهوية في الأمة: الطبقة، السلطة، الأجهزة المعرفية التقليدية أو السائرة نحو التمأسس الإجتماعي والسلطوي. هل هي تعلّة التغيير نحو يوتوبيا معينة.. أو أنّها التعبير غير المستقر، عن حضورية المشروع الثقافي للأمة وفق لحظة تاريخية معينة. وكيف يكون هذا التعبير وما هي أدواته للتجذّر الفكري والموضوعي في خارطة عالم متغيّر دائماً.

مثل هذه المشكلات لاتبدو ترفاً فكرياً، وإنّما هي أشبه بميتافيزيقا صراعات كثيفة مختلفة. قد

> (تُولدُ الفكرةُ في السوق بَغيّاً ثمَّ تقضي العُمْرَ في لَفْقِ البكارة)
>
> خليل حاوي

لايُبرزها خطاب مباشر. وإنما تظلّ تحرّك جدلية التكوّن وإعادة التكوّن بالنسبة لقوى التغيير في كل مجتمع حي.

إن معاودة طرح الهوية، شكلها، مضمونها، صلتها بالماضي الذاتي، بالتحدّي العالمي، هو تميّز دائم للشعوب الناهضة الجديدة، الباحثة عن حقيقتها في معركة لاتستطيع أن تتبيّن حدودها دفعة واحدة. ولذلك يرزح الوعي الناهض دائماً تحت أعباء الذات. وأهم ما يمكن أن يتبيّنه هذا الوعي في تجربة اكتشاف الذات عبر الآخر، في صراعه معه ضده، هو أنّ الهوية ليست إرثاً جاهزاً، وإنما هي فعل تغيير دائم.

هوية واحدة ذات سلطان كلي. وكل عملية تأسيس للذات القومية تتجاهل هوية الآخر، تفر من سلطان المعرفة بالتاريخ نحو الإستغراق في غيبيات الفرار من الواقع.

طوال القرن الماضي، حفلت الأقطار العربية، بعلاماتٍ تدلّ على النزوع ـ بدرجات متفاوتة ـ إلى التوحد القومي.

فمع اضمحلال الدولة العثمانية، ونمو حركة القوميات الأوروبية، وبدء تكوّن البرجوازية العربية، وعمق الروابط التاريخية بين أجزاء العالم العربي، كان طموح الجماهير العربية إلى الوحدة تعبيراً عن واقع موضوعي، يمثل بدء الحركة العربية المعادية للسيطرة الأجنبية. وتولت انكلترا وفرنسا، باعتبارهما قيادة العالم الرأسمالي عندئذٍ، الرد على هذه الحركة بعمليات احتلال وإخضاع مباشر لعديد من الأقطار العربية، فأجج ذلك من نيران الحركة وأخذ مفهوم القومية العربية يتبلور عند الفئات المتقدمة من المثقفين العرب.

وفي هذا الوقت، كانت تتشكل الفكرة الصهيونية بوصفها ايديولوجيا التحالف الثيوقراطي البرجوازي/ الكهنوتي اليهودي اليهوي، ولتخرج من الوجود الضمني بالقوة إلى الوجود الصريح بالفعل، والمرتبطة منذ اللحظة الأولى، بالإمبريالية العالمية، من أجل بناء وطن قومي لليهود. ولقد رأت الإمبريالية، بقيادة انكلترا، أن يكون الوطن في فلسطين، وذلك محاولة لوأد ولادة وتبلور المشاعر والتطلعات القومية في العالم العربي، باعتبارها خطراً يهدد المصالح الإمبريالية في المنطقة، وأوصت بريطانيا، بضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الأسيوي، عن طريق إقامة حاجز ديمغرافي كوسموبولوتي، على الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا، ويربطهما معاً، بالبحر المتوسط، بحيث تقوم في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة حليفة للإستعمار، وعدوة لهوية المنطقة.

وبالفعل، ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، تحولت فلسطين إلى مستعمرة بريطانية. وتم تقسيم المنطقة العربية بين النفوذين الإنكليزي والفرنسي. وحالت السيطرة الإستعمارية المباشرة دون تقارب الأقطار العربية. وعمدت إلى قمع كل دعوة للوحدة العربية.

وعلى الرغم من قيام الإستعمار بتعميق التفاوت في التطور الإقتصادي بين الاقطار العربية، وعلى الرغم من تبعيّة تحالف الإقطاع ورأس المال الحاكم للإمبريالية، فقد أخذت الروابط القومية تتسع وتتعمق باتساع النضال السياسي. وتجلى ذلك بالتضامن بين الحركات الوطنية في البلدان العربية. وبنشاطها اتسعت وتعمقت مشاعر العرب وتطلعاتهم نحو التوحّد القومي.

وقاوم الشعب الفلسطيني بحدود وعيه وإمكاناته المتاحة، خطة اغتصاب فلسطين. ابتداء من هبّة ١٩٢٠ وانتفاضة ١٩٣٣، وثورة ١٩٣٦، وانتهاءً بالثورة الشاملة في عامي ١٩٣٧-١٩٣٩. لكن الإقطاعية الرجعية العربية حاولت تركيز المقاومة ضد اليهود، وصرفها عن الإحتلال البريطاني، الذي كان ينفذ مخطط الامبريالية والصهيونية في إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين. ومع ذلك، فإنه باقتراب خطر الحرب العالميةالثانية، اضطرت بريطانيا للمناورة، وأصدرت عام ١٩٣٩، الكتاب الأبيض. وفيه تتعهد بإنهاء الإحتلال البريطاني في فلسطين خلال عشر سنوات، وتعد بأنها لن تكون بعد ذلك تحت طائلة أي التزام لتسهيل إنشاء الوطن القومي لليهود.

ومنذ ذلك التاريخ، توجهت الصهيونية شطر الولايات المتحدة الأمريكية، التي أخذت تتهيأ لزعامة الإمبريالية العالمية، والتي أصبحت مصالحها النفطية تؤهلها مركز الزعامة. ومع تبدّل ميزان القوى نهائياً بعد الحرب، تأكدت مكانة أميركا، وعقدت العزم ـ في وجه الحركة الوطنية الصاعدة والطامحة إلى التوحّد القومي ـ على الحيلولة بينها وبين مصالحها المتمثلة الإقتصادية النفطية والسياسية الإستراتيجية. وسرعان ما وقعت الحرب الفلسطينية. تعبيرا عن التآمر بين الرجعية العربية الحاكمة والامبريالية العالمية. وكان من نتيجتها ضياع فلسطين وخلق اسرائيل.

لم يكن زرعها عملاً يستجيب لصوفية النائه، بل كان أعلى تدبير وقائي للنخبوية العنصرية المسيطرة على قمة العالم، كيما تعرقل عودة المشروع الثقافي العربي ودوره التاريخي في المساهمة ببناء الحضارة الإنسانية.

ليس من شك أن كارثة العرب الكبرى المعاصرة بشكلها ضياع فلسطين وقيام نوع جديد من الاستعمار الإستيطاني في عمق الوطن العربي، بمثابة إعادة تجسيد وتكثيف الظاهرة الاستعمارية كلها قديمها وحديثها في بؤرة واحدة تقع على مختلف نقاط التقاطع الوطنية والقومية الإجتماعية والنهضوية لمجموع أقطار العرب.

إذن، لم تكن ظاهرة الإستعمار الأوروبي التقليدية تقوم بحركة تسلّم وتسليم بينها وبين الوريث المعاصر أميركا فقط، بل كانت تعيد انتاج نفسها عبر ظاهرة استقطاع جزء من الوطن لسكان غازية ضالة من خارج الوطن، كيما تبني عليه دويلة. تكون مهمتها الأساسية منع قيام الدولة الوحيدة المشروعة على كامل وطنها التاريخي والقومي، الدولة العربية الواحدة. لكن منذ نكبة ١٩٤٨، غدت حركة التحرر الوطني العربية حركة تحرر قومي. ذلك هو معنى التحول الكبير الذي طبع مستقبل العمل العربي. وبالمقابل فقد صار الهاجس الإمبريالي/ الصهيوني ينصبّ على تحطيم هذه النقلة من الدائرة الوطنية إلى الدائرة القومية.

إن كسر حصار الأسلحة وتأميم قناة السويس، شكّلا المدخل الموضوعي لنظرية العمل القومي، إذ كان هذا المدخل يربط العمل الوطني بالقومي. لقد جاء حدث السويس أول رد فعل جذري على مستوى إقامة اسرائيل. فالسويس بكل ما تتضمنه من رموز الإضطهاد والإستغلال، كانت تمثّل الشرخ الإستراتيجي الرهيب الذي يشقّ الوطن العربي مشرقه عن مغربه كحدّ السكّين في يد الأجنبي. كان تأميم قناة السويس أول عمل وحدوي تكاملي يجيئ رداً على ظاهرة الإقتطاع لأرض فلسطين التي شكلت دائماً البرزخ والجسر الإستراتيجي الذي يصل بر الشام والعراق بأرض الكنانة.

والحقيقة فإن الإنجازين الأولين اللذين افتتحت بهما ثورة يوليو ممارستها الثورية، إنما كانا في الاساس حدثين بقدر ما هما وطنيان فقد كانا قوميَّين. فالحدثان يستوحيان التحرير الوطني كما التحرير القومي. وهما يستوحيان هدفهما من ذلك الأفق الذي يربط جدلية العمل القطري بالقطب القومي الأشمل.

إن فشل العدوان الثلاثي أنهى عصر الإستعمار القديم وجعل الإستقلال ينتقل من مرحلة التجريد اللاسياسي إلى شكله القانوني الدستوري حقيقة جديدة. غير أن الهيجان القومي الذي غذاه انتصار السويس العارم كان مؤهلاً لتجاوز صيغة الإستقلال الوطني في نموذجه القطري، نحو طرح الصيغة الوحدوية للإستقلال القومي. ولذلك كانت السويس هي طريق الوحدة القادمة بين القاهرة ودمشق، والجسر الذي يصل بين مركزي الإستقطاب النهضوي. وكان معنى هذه الوحدة من الوجهة الإستراتيجية أن ثمة تكريساً لإنقضاء عهد الإستعمار القديم ومحاولة لقطع الطريق على الإستعمار الجديد القادم. ولم يكن في وعي النقديين وقادة تلك المرحلة أن الهدف تحقيق الإستقلال القطري بل على العكس فما إن يتم استقلال حقيقي حتى ينبغي أن تستجيب الجغرافيا العربية للتغيير التاريخي. مصر التي دافعت عن استقلالها في حرب السويس وطورته من صيغة قانونية ودستورية وحقوقية إلى صيغة وطنية كاملة كانت تشعر بضرورة أن يعم هذا النوع من الإستقلال الوطني أقطار العرب.. وعندما يعم تكون الوحدة العربية هي ترجمته العملية على الأرض.

منذ ان قامت تجربة الوحدة الأولى أصبح للصراع السياسي منطق جديد: فُرضت عليه جدلية الوحدة/ الإنفصال. هذه الجدلية أضحت المقياس الأساسي والأعلى لتقييم الأقطار والإيديولوجيات، مواقف الزعماء والحكام والدول والأحزاب. بالنسبة له وحدة تقاس التقييمات الأخرى: الهوية/ اللاهوية، الإستقلال/ التبعية، الوطنية/ الخيانة، العدالة الإجتماعية/ الطبقية، التقدم/ التخلف. فالمفهوم الوحدوي أصبح نظام الأنظمة السياسية والأخلاقية والإجتماعية. وكان ذلك تعبيراً عن اتحاد السياسة بالنهضة. فالعرب كانوا قد اعتادوا أن يكافحوا بالطرق السلبية. وقيام الوحدة طرح ضرورة البناء. كان عملاً متوجهاً إلى الذات القومية بقدر ما هو دفاع حضاري ضد الخارج ضد التهويد والتبعيات الجديدة. غير أن تجربة الوحدة ظلت أسيرة الزخم السياسي الذي جاء بها، ولم تستطع أن تبرح ارتباطها العضوي به. لم يُتح لها أن تتيح مشروعها النهضوي على مستوى إعادة انتاج الدولة العربية الناهضة العصرية.

حين اكتسح إعصارها السياسي كل الأبنية الإقليمية القائمة، تساقط نظام نوري السعيد في بغداد، وثارت بيروت ثورة وطنية وحدوية أجهضت سريعاً بفتنة طائفية رعناء وأنزلت البحرية الأمريكية، واهتزت عمان ونزل الجيش البريطاني ثانية على أرضها. تبع كل ذلك إجهاض الثورة العراقية الأولى. فخمد الإعصار الوحدوي من حول دولة النواة وجاء دور العزل المضاد. أحيط الوليد الوحدوي بما يعيق نموه في بيئته. والوليد إذا لم يَنْمُ ضَمُر وسار إلى الزوال. وهكذا كان.

إن جدلية الوحدة/ الإنفصال قادت مرحلة الصراع السياسي حتى أواخر أيام عبد الناصر. حتى أن مختلف الإنجازات الأخرى التي قدمتها الممارسة الناصرية على الصعيد العربي والعالم ثالثي والدولي، إنما كانت تأتي رديفة مكملة لجدلية الوحدة/ الإنفصال التي قادها عبد الناصر وحاول أن يقدم تحت أولويتها صيغا قومية مختلفة من نموذج وحدة الهدف إلى نموذج وحدة الصف ومؤتمرات القمة.

إذا كانت النكبة تدفع العرب دنما نحو الوحدة العربية، فإن العدو الذكي سوف يضع استراتيجية الدفع نحو المزيد من التجزئة بأشكال ونماذج من التفتيت وخلق الصراعات والتناقضات الثانوية الثاوية داخل المجموعات العربية، بحيث تتعاظم الهوة كل يوم بين واقع التجزئة اللامتناهية والدعوة إلى الوحدة العضوية المتكاملة.

كان تدمير تجربة الوحدة، وضرب الأنظمة السياسية القومية التي تقف وراءها ١٩٦٧، ومحاولة عرقلة وإعاقة كل أشكال التحالف والتكتل والإتحاد الجزئي عربياً بمثابة الحد الفاصل لدخول الإستعمار الجديد على خط الصراع المستقبلي مع النهضة العربية بايديولوجيات وأدوات ومؤسسات ومنظومات تخطيطية وتنفيذية مختلفة ومتطورة، تعكس حالة الثورة المعلوماتية التي حققتها الرأسمالية الأمريكية، واستخدامها لأعلى مراحل التقنية العقلانية، فكان على العرب أن يواجهوا أخطر أجهزة الإجهاض لإمكانياتهم المتفتحة عصر الإستقلال. إذ أن التدمير لم يعد يتناول البنى السياسية ورموزها النضالية. ولكن الإمبريالية الجديدة وضعت استراتيجية للتدمير الذاتي تتناول بذور الحياة والقوة في مختلف الأصعدة الإقتصادية والثقافية والتربوية والإجتماعية. فالتحالف الإمبريالي/ الصهيوني بنى استراتيجيته على إحياء بنى الإنفصال العقائدي والإجتماعي داخل مختلف الوحدات الإنسانية فهي استراتيجية نقل التنسيخ من مستوى التجزئة السياسية والجغرافية وإلى مستوى التفتيت الذاتي لكينونة الإنسان العربي.

وحين ضربت مؤسسة الإرهاب العقابي المتمثلة بالدولة العبرية، المفاعل النووي العربي الأول في العراق ١٩٨١، والبنية اللوجستية لـ م.ت.ف في ١٩٨٣، وصعّدت من سلسلة هجماتها البدائية والوحشية ضد الجنوب اللبناني وحتى تاريخه، وحاولت جاهدة وأد انتفاضة الحجر في الوطن المحتل ١٩٨٧ وما تلاها، كانت بذلك تنجز ذروة تصعيد حاسمة لحظة التدخل الدائم التي كانت تمارسها وسيدتها الكبرى أميركا ضد بوادر النهضة تحت أي شكل ظهرت. فجاء هذا التصعيد الذروي يناظر اجتياح الجنوب اللبناني آذار ١٩٧٨، وتطويق الإنتفاضة الوطنية العارمة للشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع ١٩٧٦، وحرب الإستنزاف، وحرب حزيران ١٩٦٧، والعدوان الثلاثي ١٩٥٦.

وللأسف، غاص نسغ الحيوية القومي من جدلية التطور، ونجحت الإمبريالية ورأس حربتها اسرائيل في إعادة جميع القابليات الانحطاطية إلى ساحة السيطرة العربية، تلك القابليات التي غذيت وأعطيت القدرة على تنظيم قواها الهاجعة. هكذا جرت مثلاً عمليات تسويق التسويات السياسية المنفردة الكاريكاتورية منها والكرتونية. كما جرت

عمليات تسويق ايديولوجيات طائفية بكل أساطيرها وخرافاتها وأنظمتها اللاعقلانية واللامنطقية، والمضادة لروح العصر وظروفه الموضوعية.

إن تحطيم مولد الزعامة الوطنية والقومية أعاد إلى الحياة جميع البنى العصبوية لتأخذ بتلابيب الشعوب العربية، وتمارس أنظمتها العشيرية حسب قانون الغُنْم للقريب والغُرْم للبعيد. وبذلك يتم التعاضد والتكامل بين مهندسي الرقابية في مراكز التكنولوجيا المتقدمة وبين أفواج من العملاء القاطنين بين ظهراني المجتمع العربي.

وللأسف، ففي الوقت الذي تستعد فيه الدول الأوروبية الغربية لإزالة حدودها بين أممها وقومياتها، وتتهيأ بعض البنوك لصك العملة الأوروبيـة الموحدة، تـتـحـلـق الحرب الإنتروبولوجية (الإناسية) في أكثر من بلد عربي وتحول البنى الطائفية إلى بنيات ايديولوجية تفرخ وتعزّز تعضيات عنصرية أثنية داخل القطر الواحد.

تاريخنا المعاصر صفحتان متناقضتان تماماً، تحت العنوان القومي تستبين مختلف ملامح المشروع الثقافي العربي باعتباره توحيداً عضوياً لإمكانيات النهضة بمظاهرها الثقافية والإجتماعية، السياسية والإقتصادية، المتكاملة عبر إطار هوية الشخصية التاريخية للأمة العربية مستأنفة دورها الفاعل والإيجابي وسط تحديات العصر ومهماته. وتحت عنوان الإنعزالي تسود آلية التفسيخ والتشطير والإنغلاق في مختلف مستويات الادلجة والفعل والإنفعال.

مقابل ايديولوجيا التنوير والحضارة والإبداع، تسود ايديولوجيا الظلام والتصحير والتنابذ والتحاقد في أضيق خلية من قرية.

ولايزال يقف وراء الأزمات السياسية والحروب الأهلية والإقليمية المستعرة في أنحاء الوطن العربي، تحدّي الهوية القومية الذي ينتاب الفكر العربي وثوابته التي حفظت له الحد الأدنى من أمنه الحضاري إن صح القول، وخلال كوارث الإنحطاط القديم، والتحولات المصيرية الكبرى في العصر الحاضر. فلقد صمدت ثوابت الفكر العربي طيلة المعركة مع الإستعمار الأوروبي الإحتلالي، كما أنها تابعت هذا الصمود وطوّرت من زاده الثقافي وأدواته الإجتماعية والسياسية خلال مرحلة الصراع مع الإستعمار الجديد وقيام اسرائيل.

لكن التحدي الراهن ينبثق ضمن دائرة المجال العقائدي والجيوسياسي للفكر العربي في آن واحد. وهنا تبدو أهداف التحدي الجديد أنها تريد النيل من ثوابت الفكر العربي نفسها. إنها لاتطال الأمن السياسي/ الإجتماعي/ الإقتصادي فحسب، ولكنها تتطلع إلى تجاوز كل هذه الدوائر والحصون الموضوعية، حتى تصل إلى القواعد التاريخية التي قامت عليها ثوابت الفكر العربي نفسها منذ فجر حضارته حتى العصر الراهن.

يتخذ التحدي العقائدي صورة الغزو الداخلي. وبذلك يختلف عن أنماط الغزو الأخرى



السابقة التي كان يجسدها احتلال استعماري ثم صهيوني. فما يُسمى بالصحوة الإسلامية المدعومة من قبل عنصريات مهددة للكيان العربي أصلاً، إنما يسعى إلى تحقيق فراغ عقائدي داخلي تملؤه فيما بعد غزوات عسكرية مباشرة من قبل جماعات مغلّفة بواجهة الشعارات الإسلامية، بحيث يبدو الغزو العنصري الخارجي كأنه دعوة عقائدية داخلية تسوّقها الإستقطابات المذهبية في المجتمعات العربية. فالإسلام نفسه يجري سلخه عن تاريخيته وبنيته الحضارية، وتحجيمه إلى مستوى الطقسيات والتفاصيل الشعائرية، وشخصه بالتأويلات المذهبية المتخلفة واستخدامه لأهداف سياسية مرتبطة بديكتاتورية كهنوتية قروسطية متسلطة على رقاب الضعفاء. هذا النوع من الإسلام ذهبت عنه دلالته الثقافية الشاملة، ولم يتبق منه سوى شعاريته الجماهيرية. ويُستخدم في سياق تحريفي ضخم لمسار النهضة العربية والحداثة العصرية، بحيث يتحقق عزل العرب عن دورهم الثقافي والسياسي. ويتم بذلك توجيه طلائعهم النضالية إلى معارك هامشية وأسطورية تبعث مختلف محاور الفئوية والمذهبية والعنصرية داخل الجسم القومي الواحد.

هناك من يصرون على إقامة تعارض زائف بين العروبة والإسلام، رغم عروبة النصوص وعروبة حامل الرسالة الإسلامية ومتلقيها الأول، وعروبة المخاطبين بالوحي الإلهي. إنّ سلخ الإسلام عن تاريخ الشعب الذي حمله، وعن الحضارة التوحيدية التي حققت مضامينه الثقافية والإنسانية، يحوله إلى مجرّد ايديولوجيا سياسية فاقدة لمعايير الواقعية وتجربتها التاريخية، وخصوصيتها الحضارية.

إن الذين يفصلون بين العروبة والإسلام يفهمون العروبة فهماً عرقياً جنسياً متناسين أن النقاء الجنسي والعرقي أسطورة ووهم. ويقلبون المعايير إلى مجرد ذرائع للتسلط السياسي، والصراع الإنفصالي بين الأمم المشاركة في صنع التاريخ الإسلامي، وما بين فئات الأمة الواحدة الحاملة لدعوته وهويته وثقافته المتميزة. إن معيار التصنيف بين الأمم والشعوب يجب أن يكون الثقافة وأهم أدواتها اللغة. وإذا نظرنا إلى الإسلام من خلال منظور الثقافة تبدد ذلك الوهم المتخيل والزائف الذي يفصل العروبة والإسلام. ومن منظور الثقافة فالإسلام دين عربي، بل هو أحد مكونات العروبة وأساسها الحضاري والثقافي.

إن تسييس الدين على طريقة الفئات المتعصبة داخل المجتمعات العربية، يحوله من عقيدة توحيد إلى ايديولوجيا مُفرّقة، ومن هوية لتاريخ انساني مجيد ومبدع، إلى حزبيات فئوية ومذهبية داخل المجتمع الواحد، وإلى عنصريات وشعوبيات بين العرب والمسلمين. إن الإفتراض الذي يشكل مرجعية اصحاب الفصل بين العروبة والإسلام هو أن الدعوة القومية الحديثة دعوة (عنصرية) علمانية مستندين بذلك على أن اقتراح انشاء الجامعة العربية كان اقتراحاً بريطانيا استعماريا، وأن حملة الفكر القومي وأعلامه كانوا من غير المسلمين. وبالتالي فمن منطوقهم أن تصنيف البشر يجب أن يتم على أساس (العقيدة) لا الثقافة. إن العقيدة نظام جزئي داخل النظام الكلي للثقافة، وبالتالي فإن تصنيف البشر داخل الثقافة الواحدة على أساس العقيدة من شأنه أن يمزّق وحدة الوطن ويخلق معارك وهمية بين المواطنين. ويؤدي إلى صراعات زائفة تعوّق المحرومين عن إدراك حلبة الصراع الحقيقي ضد من يهدرون آدميتهم وكرامتهم ـ مسلمين ومسيحيين ـ.

إن تحريف الإسلام بهذه الصورة تقلبه من تراث قومي وإنساني إلى ايديولوجيا سياسية مباشرة، تنطوي على استراتيجيا متكاملة الأهداف، تعمل على إجهاض نهضة شاملة مفترضة ومرتقبة لإحدى أهم طلائع ثورة العالم الثالث في هذا العصر، يشكلها العرب وشعوب آسيا الإسلامية المرتبطة تاريخيا وعضويا بخط التطور العربي وطروحاته النهضوية التقدمية. فالإيديولوجيا الغيبية تأتي حركة شرخ وتحريف معاكسة تماماً لحركة الإنبعاث التاريخي للعرب والإسلام. بعيداً عن وحدة العرب وتكاملها مع بيئتها الإسلامية تطرح المذهبية داخل العقيدة الواحدة، وتستثار العنصريات القومية، والإقليمية الشعوبية. وبديلاً عن توجّه الإنبعاث نحو المضمون الحضاري للتراث، يوجّه نحو الغيبيات والشعائريات والطقسيات وأجواء النزاعات الفئوية. وبديلاً عن تاصيل العقلانية الحديثة وتوطين العلمانية والديمقراطية في المدنية العربية وحشد طاقات التوعية والتنمية لردم ثغرات التخلّف يطرح التجهل المدروس كمثل أعلى ضد العلم والعقلانية، ويُسوّق التخلف وكأنه أوج التحضّر، والتصحّر وكأنه ذروة التمدن.

وفيما تكشف لنا النكبة درس الدروس في ضرورة الكفاح ضد الإمبريالية العالمية والصهيونية وأشكال التبعيات الأخرى، ومن أجل الوحدة العربية والتقدم الحضاري، والعدالة الإجتماعية الواعية. والتكامل العالمي بين نهضات العالم الثالث. فإن الإيديولوجيا الغيبية تنسل إلى ساحتنا السياسية الراهنة

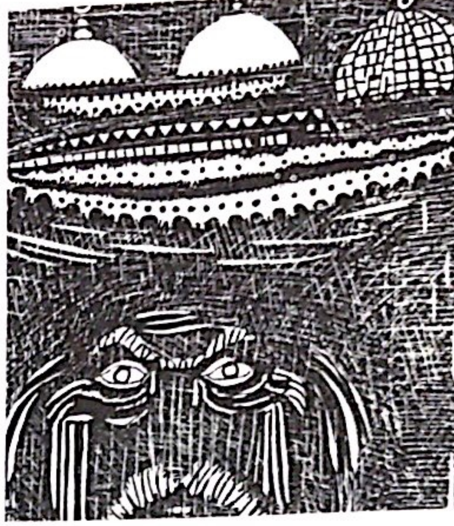
...بهض مختلف المضامين التحررية لشعارات ...لعمل السياسي التاريخي والمشروع. هكذا تطرح ...يديولوجيا الغيبية ذاتها باعتبارها المعارض ...رئيسي لكل بدهيات النهضة الثقافية والسياسية ...داخل الإطار القومي والديني نفسه.

إنها ولا شك أعلى مراحل الإستراتيجيا ...إمبريالية المستهدفة إجهاض عوامل القوة ...والنهوض من تربتها ولحمها ودمها، تحاربها ...بأسلحتها وتنقض عليها بذات عناوينها ...وشعاراتها. إنها الإستراتيجيا الناجحة التي تجعل ...الهدف يدمّر نفسه بنفسه. يصبح فيها الطرف ...المدافع هو الطرف العدو لذاته. مثل هذا التحدي ...الرهيب لايحفل بإخفاء وجهه، لايهمه أن يداري ...ويموّه خطابه السياسي والعسكري والثقافي. إنه ...يملأ ساحات الحدث اليومي، يفرض علينا الصراع ...الفكري/ المذهبي/ الدموي/ الإقليمي: الخطأ. ...نتورط فيه أكثر فأكثر. نتبنى شعاراته، نستخدم ...وسائله، وننجرّ يوماً بعد يوم إلى مستنقعه الآسن. ...فإذا بنكبتنا تفرّخ نكبات. وبثوراتنا تتحول إلى ...مشاريع بدائية همجية للفكر والتقدم والإبداع، وإذ ...بوعودنا مع التاريخ والمستقبل تنقلب إلى سباقات ...نحو أقبية القرون الوسطى ومقابرها المظلمة.

فالحرب العقائدية التي تشنّ اليوم على العرب والإسلام من داخل معاقلهم، من بعض مساجدهم ومدارسهم وجامعاتهم، وأحزابهم وتنظيماتهم العسكرة المعلنة والخافية، الظاهرة والباطنة، بحيث تتم إقالة العقل العربي من مهماته الترشيدية، واستقالة الإنسان العربي من دوره في معركة العصر والحضارة، على أنه للعلم اللدني الرباني المقدس، وإغراقه في معارك وهمية خارج الزمان والمكان مع أشباح لمشكلات مهترئة منقضية وراء الحياة والتاريخ.

إننا لانستطيع أن نتجاهل هذه الحرب العقائدية النابتة المدروسة البرامج والمواد، والمنظمة بوسائل بثها ونشرها وانتشارها، تقف وراءها عقول وامكانيات ثقافية خطيرة، تناقش قضايا عفّى عليها الزمن، وصار مكانها الواجهات الزجاجية بعد التحنيط في متاحف الشرق القديم. تلك النابتة التي تضع اليوم في سيناريوهات الفعل والإنفعال الجماهيري «الدين» مقابل «العلم» في مناقشات ومحاضرات وندوات ومؤلفات عن (الإسلام أو العلمانية؟). تزين التخلف وكأنه جنة العلم والتقوى والورع، وتسفه التقدم وكأنه مصدر الخطيئة الأصلية. وتفتري على الديمقراطية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتقلب موازين الأشياء والوقائع والبدهيات. فتجعل الغائب حاضراً والحاضر غائباً. تتكاذب فيما بين أقطابها وأتباعها وحوارييها وتكذب على العصر، تغرف في مفاسده سراً وتورية وباطنية، وتحرم أنواره وتنويره على أجيالها.

قيمة مناسبة من هذا النوع أن نعي هذه الحرب العقائدية التي مثلما تزيف التاريخ وتحرف وقائعه، كذلك تتوجّه إلى تجريد المجتمع من إحساسه بموقعها الراهن من الحاضر السياسي



والحضاري بالنسبة إلى ذاته وللعالم من حوله. تفرض على الناس أن يتخاطبوا فيما بينهم، ويخاطبوا الشعوب الأخرى، بلغةٍ ومفاهيم وأنظمة معرفية لامعادل ومقابل لها في معطيات الحاضر وظروفه المادية والمعنوية. لذلك يمتنع على العالم من حولهم أن يُدرك تطلعات ذلك المجتمع المصاب بفصام الشخصية القومية والحضارية، بما له من حضور جسدي راهن في العصر، وغياب لوعيه ورُشده فيما وراء أساطير المذهبيات والشعائريات الطقسية، ومثلما تشتعل الحرب العقائدية على تثبيت الشيزوفرانيا في شخصية المجتمع بين حاضره وماضيه، كذلك تجتهد في الفصل بين الدين والتدين. في جعل الثاني بديلاً عن الأول. وهو ذلك الفصل الذي يُحقق في الآن ذاته الشرخ بين العقيدة والحضارة. فإن عزل الإسلام عن العروبة لاهدف له إلا دفع العقيدة إلى أبعد مسافةٍ من التجريد والفراغ التاريخي الذي يتطلب إملاءه بالشعائريات والمذهبيات.

إن عملية التحريف القيصرية التي يخضع لها العقل العربي تريد تغيير هوية الأمة ذاتها، تريدها أن تخلق جسدها وترتدي أثوابها المهترئة والمحنطة. فأصحاب هذا السيناريو الدولي الرهيب يراهنون حقاً على تغيير الهوية العربية أساساً لكي يسهل بعد ذلك تغيير كل شيء من أفكارها إلى سلوكها إلى أدوات دفاعها عن ذاتها، إلى ظرف تعاملها مع أعدائها التقليديين والمستحدثين. فالإسلام المسيس العنصري والمذهبي، يستخدم اليوم في أفظع توجيه مضاد، يعكس كل أهدافه التي عاش وترعرع تحت ظلالها.

قيمة مناسبة من هذا النوع أن لانعيد انتاج شبه ـ الدويلة الإسرائيلية، عبر دويلات قوقعية في المكان القومي. تلك الدويلات التي تصاب مدنها بالتزييف الديمغرافي والإثني والإرتكاس القبلي والنكوص الطائفي، ويصاب ريفها بالتصحير البيئي، ثم ينمو التصحير الثقافي حتى يبلغ عظم المدينة ولحمها، ويعود بها إلى الطقسيات التدينية وشعائريات القبلية الطائفية والقبلية السياسية والقبلية العسكرية.. تحت خضم هذه المشكلات الإستنزافية يسترد جهاز القرابة القبلي عافيته ويصير إلى التوالد النُسحى المسْخي عبر المؤسسات (العصرية) المستحدثة.

قيمة مناسبة من هذا النوع أن نقف مستلهمين الشخصية المحمّدية العبقرية، تلك الشخصية التي تجسّدت في داخلها تطلعات الجماعة البشرية التي ينتمي إليها نحو واقعة «ذي قار» جديدة. وتجسّدت في أعماقها أشواق الواقع وأحلام المستقبل في البحث عن دين ابراهيم الحنيف الأصيل التوحيدي الذي كان في حقيقته بحثاً عن الهوية الخاصة للعرب، تلك البنوية التي كانت تتهددها مخاطر عدة: خطر الصراع والتناحر بين القبائل العربية في ظل الخطر الإقتصادي النابع من ضيق الموارد المادية المعتمدة على المطر والعشب والتجارة، وخطر مملكة الحيرة على حدود العراق تحت رعاية الفرس، وخطر مملكة الغساسنة على حدود الشام تحت رعاية الروم. وخطر حكم الأحباش على حدود اليمن، وخطر اختراق قلب الجزيرة العربية بحملة أبرهة الأشرم على الكعبة ليهدمها ونقل مركز الثقل الديني/ الإقتصادي، من مكة إلى كنيسة نجران.

أن نقف أمام الإرهاب المادي/ الفكري الذي تمارسه العصابات الدينية بحق مفكرين جادين في البحث والإستقصاء وفي التفسير والتأويل والإجتهاد، متجاهلة قول الرسول الكريم [أنتم أعلم بشؤون دنياكم]. أن نقف أمام دوغمائية الفكر الديني السائد الذي شاء أن يحول رسولنا الكريم، الرجل والإنسان، إلى حقيقة مثالية ذهنية مفارقة للواقع والتاريخ، حقيقة لها وجودها السابق على وجودها الإنساني العياني. متناسياً في عربدته بحق السينما التقدمية، قول الرسول حين رأى أعرابياً ترتعد فرائصه وهو يستعد للقائه قولته الشهيرة [إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة].

إن إعادة إحياء ذلك الإسلام الحضاري، العربي اللسان والخُلق، الإنساني التطلع والأفق، والذي وحد ولم يفرّق، الذي عدل ولم يستبد. الذي بنى حضارة فوق الصحراء، ولم يدفن حضارة تحت الصحراء. الذي انطلق إلى العالم ينشر التسامح والأخوة الإنسانية. ولم ينطلق لينشر الإرهاب والخطف والغدر بالأبرياء. ذلك الإسلام الحضاري الذي نحن بأمس الحاجة إليه، الذي كان له الإسم العربي، وكان العالم الذي يُسْلم، كابن سينا والفارابي، يستعرب أي يتحضر. يولد فيه ابن رشد الذي وطن العقل في المدينة الأندلسية. وفيه تصبح العلوم والفلسفة وفنون العمارة تتكلم العربية. يصير العالم الأعجمي عربياً. فكان الإسلام يعني التعريب ضد العُجْمة في اللسان والفهم والسلوك، والعجمة قبل أن تكون صفة لشعب، كانت اللغة العربية تقصد منها كل ما يضاد الفصاحة. وكانت الفصاحة لاتعني النطق السليم فحسب، بل ذلك المثل من تكامل الشهامة والثقافة والتفكير الوحدوي في شخص الشيخ. فالعروبة ليست عنصراً ولكنها، المهد الحضاري لنشأة الإسلام. والإسلام الحضاري هو ذلك المشروع الثقافي العربي الموجّه إلى رحاب الإنسانية ■■

خمسون عاماً على مرور ذكرى النكبة

ذكريات وشهادات عن الهجرة من الوطن

تحقيق: خزامى رشيد

جذورنا تتقد بالحنين والألم على الخرائط التي تعلق على صدور فتياتنا. جذورنا ترفض الهزيمة لمجرد الخروج من الديار، فالمسألة اليهودية التي اختلقتها الأزمة الرأسمالية لتسد عجز فشلها في العالم الثالث، جاءت كالجراد الزاحف إلى فلسطين لتبني من وهمها تاريخ إرثها لبني إسرائيل وتنفي عن شعب فلسطين إرثه التاريخي بأرضه، لتؤكد في عام ١٩٤٨ حق الحاجة التي كان سببها إضطهاد النازية، فتحولوا من ضحية إلى جلاد، وما كان لهم إلا أن أتخموا المجالس الدولية بإرث بني يهوه القديم. فيصطدم الإرث المزعوم وحق الحاجة بحق الفلسطيني بأرضه التي تركها مجبراً مرغماً بقوة السلاح.

وبعد خمسين عاماً من الصراع الذي لن يغلق التاريخ وأنفاس الفلسطينيين والعرب وكل من يقف مع حقهم، صفحاته، ليبقى السؤال الملح الذي يعيده علينا الشاعر الفلسطيني محمود درويش. «أين العدل في هذه المسرحية... حيث بيوتٌ أخرى في مدن أخرى تستبدل شكلها لتتكدس مفاتيح جديدة فوق المفاتيح القديمة في المهاجر العربية التي تضيق مساحتها حرباً بعد حرب، وفي الليل، يحمل شبان مفاتيحهم ولايعودون!!».

ـ عام الهجرة عام ١٩٤٨ مازال جاثماً وخانقاً على أرواح شعبنا، نتذكره بكثير من الألم والحنق. فنسترجع مع الذين خرجوا من ديارهم ذاكرة التهجير والإرهاب الذي مورس على ابناء شعبنا في جميع مدنه وقراه.

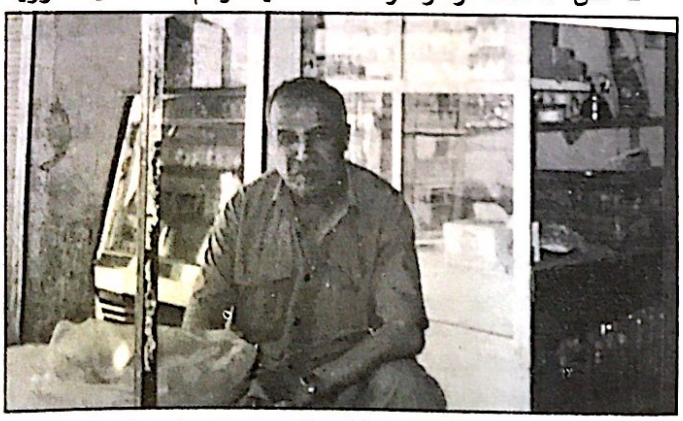
ما بين السطور كانت تختفي الملامح، وتتقدم وجوهٌ غريبة بقانون جديد يحاكم الإرث، ليعلن عن جدارة الحق بضغط الحاجة. فلسطين ذلك البيت الذي يتنازع عليه ولأنها الأرض المقدسة، وقعت بسلامها الإلهي عقد اتفاق مع الشيطان القادم من الغرب والشرق وكل جهات العالم، في ذلك العام وفي ١٥ أيار أرجأت الأحزان توابيتها لتستقر في غزارة الرصاص القادم فوق رؤوس الفلسطينيين الذين لم يصدقوا ما يقال عن وعد بلفور، فالأرض ليست متاعاً وجسداً للمناورة. الأرض الفلسطينية كجسد أي امرأة فلسطينية ترفض أن يمر عليها قادمون مجهولون من كل بقاع الأرض ليبرروا ابدخولهم واغتصابها، ألم وعار محرقة النازية في الحرب العالمية الثانية. فلسطين هذا الصمت الذي يحرق خروجنا المهيب فنضطر للإستعانة بالذاكرة التي لم يسلبها الزمن تفاصيلها لأنها الكارثة، ولأنها ذلك المستحيل الذي لن يخرج من سيكلوجيتنا كشعب ٨٠٠ ألف فلسطيني رحلوا عن الأرض، بفعل القتل والإحراق والاغتصاب. لم يرحل الفلسطيني رغبةً منه بالرحيل، فالروح تعشق الحياة وتتمسك كأي كائن حي وكأي زرع بآخر رمق من حياة. لكن الجذور في الأعماق في صدى أغانينا، حروفنا، نطقنا وتشابهنا الغريب أينما كنا جذورنا في ذلك اللقاء المشحون بين ثنايا الدم (لقاء الفلسطيني الداخل بالخارج أيلول ١٩٩٧ دمشق).

من قرية الطنطورة التقينا السيد محمد أبو عمرو ٦٧ عاماً حدثنا عن قريته الطنطورة قائلاً:

ـ الطنطورة قرية صغيرة، قضاء حيفا، يعمل معظم أهلها بصيد السمك والزراعة، تزرع فيها الخضروات وأهمها البطيخ، يزرع فيها الحبوب والبقول عدد سكانها قبل الهجرة تقريباً ٤ آلاف نسمة.

ـ عن أحداث ومؤامرات وتفاصيل ما قبل الهجرة يحدثنا:

الإستعمار الإنكليزي لعب دوراً كبيراً بإقامة دولة اسرائيل، فكانوا يسهلون على اليهود دخولهم إلى ارض فلسطين، وكانوا ينشئون «كوبينات» أي مستعمرات لليهود المهاجرين في فلسطين في الوقت الذي كانت الدول العربية تعاني من الضعف الشديد رغم استقلال سورية ولبنان عام ١٩٤٦. جميع الدلائل الدولية كانت تشير إلى إقامة مستوطنات يهودية في أرض فلسطين. فالمستعمر الإنكليزي كان يمنح العصابات الصهيونية الأسلحة ويمنعها عن العربي. فالمواطن الفلسطيني كان يبيع حيواناته ليشتري سلاحاً وأغلب الأسلحة التي كنا نشتريها قديمة بارودة ألمانية أو فرنسية، بينما العصابات الصهيونية كانت تتسلح بأسلحة آلية فعالة.



السيد محمد ابو عمرو أمام بقاليته في مخيم اليرموك

ذكريات النكبة مازالت في الذاكرة يستعيدها السيد محمد أبو عمرو بتفاصيلها قائلاً:

في عام ١٩٤٨ تأزمت الأوضاع كثيراً، فقامت عدة معارك بين العرب والصهاينة، كمعركة «القسطل» التي استشهد فيها القائد الفلسطيني «عبد القادر الحسيني»، وفي هذه الفترة وردتنا أنباء عن مجزرة دير ياسين وما حصل فيها من تنكيل وإبادة لأبناء شعبنا يقول بن غوريون: «لولا مجزرة دير ياسين لما قامت اسرائيل».

معركة الطنطورة في ١٤ أيار ١٩٤٨:

شنت العصابات الصهيونية هجوماً عنيفاً على قريتنا، فما كان من أهل قريتنا إلا أن حملوا أسلحتهم وبنادقهم للدفاع عن القرية، قاتلنا العصابات الصهيونية ورددناهم على أعقابهم، ولكنهم في اليوم التالي أحضروا قوات كبيرة وشنوا هجوماً آخر من جميع الجهات، فجروا سكة الحديد التي كان يسيطر عليها الثوار، ليمنعوا امدادات الأسلحة عن أهل القرية. الهجوم كان من جميع الجهات فاستمر من الساعة ١٢ ليلاً حتى الساعة ٨ صباحاً، استشهد من

قريتنا عدد من الرجال والشباب، ووقع من العصابات الصهيونية عدداً لابأس به من القتلى والجرحى، عند احتلال العصابات الصهيونية للقرية جمعوا شبان القرية عند شاطئ البحر وأمروهم بوضع أيديهم خلف رؤوسهم وبعد أن أداروا ظهورهم للخلف قاموا برشهم برصاص الرشاشات دفعة واحدة، فقتل في ذلك اليوم ما يقارب ٤٠ شخصاً، وبعد فعلتهم الشنعاء تلك كانوا يأمرون بعض شباب القرية بنقل الجثث الملقاة على الأرض ليلقوها في حفر، أذكر أن عائلة «عيسى الحمدان» قتل منها ما يقارب ٩ أشخاص، وأذكر أن امرأة اسمها «ثريا أبو دريس» وهي أم لثلاثة شباب قتل ابنها برصاص العصابات، ابنها الثاني أمر كغيره من الشباب بنقل الجثث الملقاة، وأثناء نقله الجثث وجد جثة أخية ملقاة فتعرف على جثة أخيه، انحنى عليها وإذا برصاص الصهاينة يرديه هو الآخر قتيلاً، بعد ساعات أطلق الصهاينة النار على أخيهم الثالث، عند خروجنا بسيارات من القرية، كانت أمه جالسة على طرف السيارة حين رأت جثة أحد أقربائها بكت على أهل القتيلة التي كانت بجوارها، وهي لاتعرف أن أبناءها الثلاثة قد قتلوا أيضاً، عند وصولنا إلى الشام كانت بحالة هستيرية وماتت وهي بهذه الحالة حزناً وتمزقاً على أبنائها الثلاثة.

بعد معركة الطنطورة التي قُتل فيها ما يقارب ٧٠ رجلاً، أركبونا بسيارات الصليب الأحمر ووضعونا في قرية اسمها «فراديس»، وبعدها رحلونا إلى قرية «دير المسكوبية» قرب مدينة «طولكرم» بقينا فيها حوالي ستة أشهر عانينا فيها الجوع والمرض مات أيضاً ١٥ طفلاً وشيخاً، وبعدها رحلنا إلى الأردن ومن ثم إلى سورية، الرجال الذين بقوا في القرية أخذوهم للأسر وبعد فترة أخرجوهم ليلتحقوا بأهلهم في الأردن وسوريا.

وبعد خمسين عاماً من النكبة يقول مازلت أذكر فلسطين وسأظل أذكرها لأولادي وأولاد أولادي حتى لاننساها، ففلسطين قابعة في أرواحنا وستظل هكذا حتى نعود إليها.

والتقينا من الطيرة السيد أحمد الزبن، ٨١ عاماً يحدثنا عن قريته الطيرة قائلاً:

- الطيرة قرية صغيرة تطل على البحر، قضاء حيفا، أمامنا جبل الكرمل معظم سكانها يعملون بالصيد والزراعة، نزرع الحبوب والحنطة والخضراوات، يوجد فيها أشجار الخرنوب والصنوبر والحمضيات والبرتقال.

- عن السياسة الإنكليزية المتبعة على الشعب الفلسطيني يحدثنا:

في الحقيقة كان الإستعمار الإنكليزي ظالماً، فانا كفلاح كنت أزرع أرضي، يكلفني انتاج الحنطة حوالي خمسة قروش، المستعمر البريطاني كان يشتريها مني بأربعة أو ثلاثة قروش حتى أيأس من الأرض التي أزرعها وأخسر من منتوجها، ورغم ذلك كنا مثابرين وكنا نقاوم بكل ما نستطيع، في عام ١٩٣٦، اعتقلت في سجن «كركور» وفوق عذابنا وألمنا كانوا يجلبون البنات اليهوديات ليشاهدن تعذيب الفلسطيني في المعتقل. الدوريات البريطانية قبل دخولها إلى اي منطقة كانت تطلب من أحد الشباب السير أمامهم، حتى إذا كان هناك ألغام موضوعة من قبل الثوار تنفجر به وبعد استشهاده يذيعون أنه قتل من قبل أبناء شعبه ليثيروا الفرقة بين أبناء الشعب الواحد. المندوب السامي البريطاني كان يضع يديه على الأراضي غير المزروعة ويبيعها لليهود المهاجرين بأقل من ثمنها بكثير، ليقيموا فيها مستعمراتهم، أذكر مرة أن ضابطاً بريطانياً كان يخدم في مصر جاء إلى قريتنا قال «إني أسمع عن قريتكم كلاماً جيداً، هل تحبون الإنكليز؟ أجبته لا، قال، لماذا، قلت له لأنكم تساعدون الصهاينة لكي يزرعوا ويقيموا في أراضينا، قال هذا ليس من مهماتي قلت له مهمة من إذن، قال من مهمة الدولة البريطانية في لندن»، الحكومة البريطانية عند دخولها ساعدت كثيراً بانشاء المستوطنات، فقبل ذلك التاريخ أي في حكم الدولة العثمانية كان يوجد ثلاث مستوطنات يهودية «عتليت، نهايات، أعطتها الدولة العثمانية لليهود كمنحة سكان فلسطين، قلت لذلك الضابط ما ذنبي، هذا وطني وبيتي وأنتم تأتون باليهودي من ألمانيا وانكلترا وغيرها وتعطونه حقي وملكي. في تلك الفترة ظهرت أحزاب كحزب «الأمة» وحزب «التحرير» وحزب «الإخوان المسلمين»، وأي إنسان كان يلتحق بهذه الأحزاب كانوا يأخذونه إلى السجن، سجنوا الشباب الملتحقين بالثورة، الذين كانوا ينسفون أعمدة الكهرباء انتقاماً من الجيش البريطاني «عز الدين القسام» كان إمام جامع في حيفا كان يحث الشباب للإلتحاق بالثورة لمقاومة الجيش البريطاني والصهيونية العالمية، كان يضم الشباب بالثورة ويدربهم على حمل السلاح في جبل الكرمل، الأغنياء من أهل المدن والقرى كانوا يدفعون بأموالهم للثوار لشراء الأسلحة، وكنا بالكاد نستطيع شراء سلاح، يأتينا من سورية ومصر معظمه كان سلاحاً قديماً أذكر أننا اشترينا بارودة ألمانية كانت صدئة بقينا ننظف فيها أسبوعاً لتصبح صالحة للإستعمال بينما الصهاينة كانوا يملكون السلاح والذخيرة والمعامل أيضاً لتصنيع الأسلحة وتصليحها.



السيد أحمد الزبن في منزله بمخيم اليرموك

عن ممارسات المستعمر الإنكليزي في التضييق على أبناء شعبنا لتيئيسه من أرضه:

أذكر أنه في قرية مجاورة لقريتنا اسمها «عتليت» فيها قلعة حصينة كان يقطن فيها حوالي ١٤ عائلة، قسم من أراضيها كان غير صالح للزراعة، وضع الإنكليز أيديهم على هذه الأراضي واستولوا على مساحة ٨٠ كيلو متراً، اليهود اقاموا فيها ملاحة كبيرة، فأراد أحد رجال قريتنا أن يصنع ملاحة فمنعه الإنكليز وقالوا له «الملاحة اليهودية تكفيكم»، قلت للبريطاني «ابناء الوطن ممنوعون من عمل أي شيء واليهودي مسموح له كل شيء»، الصهاينة كانوا خبثاء جداً، أذكر باخرة قدمت إلى ميناء حيفا فيها يهود مهاجرون، وقتها أقام الثوار حاجزاً منيعاً لمنع دخول الباخرة، فلم يتمكن المستعمر الإنكليزي من السماح بإدخال الباخرة خوفاً من هجوم الثوار، فما كان من الصهاينة إلا أن فجروا الباخرة في الميناء ليجبروا الجيش البريطاني بإدخال من ظل على قيد الحياة، أدخلوهم الى حيفا وأقاموا لهم معسكرات في «عتليت».

في الحرب العالمية الثانية الدعاية الصهيونية كانت قوية فكانوا يقولون أن هتلر ذبح اليهود ولكنهم في الحقيقة هم الذين صنعوا هتلر ليساعدوا على توطين اليهود في أرض فلسطين، إن اليهود كانوا يدخلون فلسطين بحماية الجيش البريطاني،

وبحماية العالم الغربي أجمع، ولكننا نحن لم نجد من يحمينا، فالعالم العربي كان ضعيفاً ومن الصعب عليه حمايتنا لأنه أيضاً كان واقعاً تحت نير الإحتلال، عندما كانت تبنى المستعمرات كان الثوار يضربون النار عليها، ولكن الإنكليز كانوا يحرسونها من بعد ٧٠ متراً ليمنعوا اقتراب أي عربي منها، ومن يحاول الإقتراب من هذه المستوطنات كان مصيره الموت.

عن ذكريات الهجرة في عام ١٩٤٨ يقول:

كنا نقاتل العدو بالعصا ببارودة صيد، فنحن لم نخرج خوفاً من اليهود، خرجنا خوفاً وحرصاً على شرفنا وعرضنا، فدعاية دير ياسين كانت قوية، سمعنا أن اليهود ذبحوا الناس واغتصبوا النساء، خفنا على نسائنا وبناتنا.

عندما احتل الصهاينة الطيرة، بعثنا بنسائنا إلى معسكر كان يقيمه الملك عبد الله، لتسهيل هجرة الناس، ورجعنا إلى القرية قاتلنا بعدها شققنا الطريق عبر الجبال للوصول إلى حيفا، وصلنا قرية اسمها «العزيزية»، عند وصولنا القرية طلب منا المستعمر البريطاني تسليم أسلحتنا، ولكننا رفضنا واتجهنا إلى قرية «إجزم» حيث كان الناس متجمعين فيها، والمنطقة التي كان يتجمع الناس فيها كان الصهاينة يرمون بنيران المدافع والقنابل ويقصفون بالطائرات لبث الذعر والخوف في نفوس الناس لإجبارهم على الخروج من قراهم، إن المستودعات التي كان يملكها الإنكليز كانوا يسلمونها بأسلحتها وذخيرتها لليهود، إضافة إلى مستودعات لتصليح الأسلحة والقطع الحربية، الإنكليز خرجوا من أحد المستودعات، فتوجه الثوار إلى هذه المستودعات أخذنا ٣٠٠ قطعة سلاح ولكن مجمل هذه الأسلحة كانت بلا ذخيرة، بصراحة المعارك بيننا وبينهم لم تكن متكافئة أبداً كانوا يملكون الطائرات والقنابل والمدافع، ومعامل الأسلحة، بينما نحن لانملك إلا الأسلحة اليدوية، الجريح منا كنا نأخذه إلى الجامع، فلم يكن هناك مستوصفات لإسعاف الجرحى، وأذكر أنني مررت بأربع جثث ولكننا لم يكن بمقدورنا فعل أي شيء لهؤلاء القتلى، إضافة إلى أن الصهاينة كانوا يتمركزون في المناطق الحساسة والعالية، فالمعركة بيننا وبينهم لم تكن وجهاً لوجه، فكانوا يسيطرون على قمة جبل «الكرمل» ويطلقون بنيران مدافعهم على المدن والقرى المجاورة لإرهاب الناس ودفعهم للخروج خوفاً من الموت الذي كان رخيصاً جداً فعدد القتلى كان كبيراً جداً في كل قرية ومدينة فلسطينية.

وعن رفض قرار التسليم الذي كان يعطي ٧٠٪ من الأرض الفلسطينية للشعب الفلسطيني، يقول:

القرار لم يكن بيدنا، فنحن الشعب لم يكن باستطاعتنا قول نعم أو لا، الدول العربية نفسها كانت منقسمة حول هذا الموضوع، وكذلك القيادات الفلسطينية، فالحاج أمين الحسيني كان يقول فلسطين عربية وستبقى عربية، عائلة النشاشيبي، كانوا مع قرار التقسيم، كان انقسام كبير حول هذا الموضوع، أذكر أن أي انسان كان ينطق بكلمة ضد أمين الحسيني كان يقتل بظرف ٢٤ ساعة حتى ولو كان ثائراً.

يقول بكثير من العفوية والحزن:

المؤامرة كانت كبيرة على الشعب الفلسطيني الذي لم يكن بيديه الوسائل التي تمنع مثل هذه المؤامرة الكبيرة التي مازالت مستمرة، ولكننا ورغم خمسين عاماً ستظل فلسطين قبلتنا مهما تغيرت الظروف وانقلب الزمن. «الله يكف بلاهم عنا».

والتقينا مع السيدة سارة العائدي من قرية لوبية، فحدثتنا عن قريتها بإيجاز:

ـ لوبية قرية قضاء طبريا عدد سكانها قبل الهجرة ٤٠ ألف نسمة يعمل أهلها بالصيد موقعها جبلي وتطل على بحيرة طبرية.

عن أنباء ومخططات الهجرة تحدثت قائلة:

جاء إلينا رجل يهودي فلسطيني اسمه «أنخل» من قرية «يما» وقال لنا «إن الإنكليز يلعبون على الحبلين ونحن أهل وننصحكم بقبول قرار التقسيم»، رجال القرية رفضوا هذا الكلام وقالوا اليهود الغرباء لايقاسموننا الأرض والعيش، رفضنا الإنكليز فكيف سنقبل باليهود الغرباء.

هل تذكرين بداية اصطدام أهل القرية باليهود المهاجرين؟

من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٧ كان التجار يأتون القرية وكالعادة من مئات السنين يشترون من الفلاح المحتاج، أما بداية التلاعب فكانت في عام ١٩٤٧، حيث جاء مجموعة من التجار وعرضوا أسعاراً كبيرة على الناس وخصوصاً من كان بضيق، ولكن الذي حصل أن هؤلاء التجار كانوا يبيعون الأرض لتجار سماسرة متعاونين مع اليهود. أذكر أنه في أحد الأيام خرج الناس صباحاً للفلاحة في الأرض وإذ بنا نشاهد «براكسات» مبنية وفيها مجموعة من اليهود المهاجرين، هنا فزع أهل القرية وطردوا اليهود منها، فذهب اليهود لمحكمة طبريا كي يستردوا الأرض المشتراة، فما كان من أهل قريتنا إلا أن عبأوا أحذيتهم بالتراب وذهبوا للمحكمة وقالوا «إن هذه الأرض أرضنا والتراب ترابنا ونحن لانبيعها»، وبعد الإلحاح كسبوا القضية بعد فترة قصيرة جاء الى القرية سيارات فيها إنكليز ويهود وباشروا بإطلاق النار على القرية، ومن هنا بدأت الحرب كان الناس يشترون السلاح ليقاوموا الإنكليز واليهود معاً، في الوقت الذي سلم فيه الإنكليز معظم أسلحتهم لليهود. في هذا الوقت هاجم اليهود القرية بالرشاشات والطائرات وكانوا يضربون من كافة الجهات مما أدى إلى خروج أهل القرية إلى المغارة المجاورة للقرية، بقينا في المغارة عدة أشهر، اجتاحت الدبابات القرية وقاموابنسف البيوت، ابتدأ الهجوم من الساعة ١٢ ليلاً حتى استولوا على ثلاثة منازل أقاموا فيها وقتلوا ثمانية أشخاص كانوا ما يزالون في القرية، في الصباح استيقظ الناس على صوت المدفعية، فبعثنا إلى أهل قرية «نمرين» و «طرعان» و «صفورية» ليبعثوا ببواريد كي نقاوم العصابات الصهيونية، جاءت الإمدادات في الساعة التاسعة صباحاً، بعد أن احتل اليهود البيوت وقتلوا من كان فيها، استمرت المعركة بين رجال القرية واليهود، كان الرجال يقاومون بالسلاح المأخوذ من القتلى اليهود، استمروا بالقتال، وكان كل خمسة أو أربعة رجال يربطون أنفسهم بالحبال حتى لايهرب أحدهم من المعركة، في تلك الموقعة قتل حوالي ٣٠٠ يهودي، بعد تلك المعركة جاء الطيران وبدأ بالقصف من الساعة ١٠ ليلاً حتى الصباح.

كان اليهود يرسلون مناشير يطلبون منا التسليم، فكنا نبعث لهم «بأن طيرانكم قتل حماراً ووزة، طيرانكم لايخوفنا»، ظل ضرب الطيران وقصف المدفعية وقتاً طويلاً، مما أدى إلى إرهاق الناس من هذا الوضع فمات الكثير من الرجال، ومات عددٌ من الأطفال بسبب الجوع والمرض. وإضافة إلى هذا السبب هناك سبب مباشر دفع أهل لوبية للخروج هو سماعهم بأن قرية صفورية والتي كانت معقلاً للثورة الفلسطينية قد خرج أهلها، مما دفعنا للرحيل، لأن السلاح نفد وصفورية معقل الثورة قد سقطت. ومشى الناس حتى (عيلبون)، وأقمنا في البيادر، أذكر أن أخي مات من الخنق، لأن أمي كانت تحمله بذراعها وتجر وراءها اربعة أطفال، وصلنا قرية الرامة، فصادفنا ناسا من كافة المناطق، نمنا تحت الزيتون، وأكملنا المسير حتى وصلنا «بنت جبيل» مكثنا فيها شهراً ونصف الشهر وبعدها ذهبنا إلى بيروت، سمعنا بوجود أعمال ووظائف في الشام، توجهنا هناك على أمل الرجوع بعد فترة ولكننا بقينا فيها حتى الآن. «كنا نفكر أن أسبوع شهر بالكثير وبنرجع، لكن لارجعنا ولا تشحرنا».

من قرية صفورية التقينا



السيدة غزالة الطاهر تتفقد النعنع المجفف في منزلها بمخيم اليرموك

السيدة غزالة الطاهر، ٧١ عاماً، حدثتنا عن قريتها صفورية بإيجاز فتقول:

ـ صفورية قرية زراعية فيها بساتين وينابيع كثيرة، كرأس العين ورأس القسطل تشتهر بالرمان والزيتون فيها آثار قديمة، وفيها قلعة كبيرة من زمن السيدة مريم العذراء، فيها دير كبير كان مقراً للكهنة، كان السياح يزورونها عند حجهم لكنيسة القيامة في الناصرة التي لاتبعد عنا كثيراً.

احتكاككم مباشر مع المسيحيين، هلا حدثتيني عن علاقتكم مع الأديان الأخرى؟

كانت العلاقات ودية جداً، كنا نزورهم ويزوروننا وخصوصاً في الأعياد والأعراس.

عن حكاية الهجرة من صفوريا تحدثنا:

معظم سكان القرية كانوا يعملون بالزراعة، في عام ١٩٣٦ التحق معظم رجال وشباب القرية بالثورة، والبعض الآخر كان يعمل بالزراعة، الرجال والشباب كانوا في الجبل لقتال المستعمر الإنكليزي لإخراجه من فلسطين، في عام ١٩٤٨ سمعنا بسقوط شفا عمرو، جاء أهل شفا عمرو إلى قريتنا، عندما سمع الرجال بأن اليهود قادمون لإحتلال القرية، توجهوا إلى سفح الجبل عند مدرسة الأولاد التي كانت مقراً للثورة فأخرجوا الأولاد من المدرسة وأقاموا فيها وأصبحت قاعدة لهم، في هذه الفترة قدم القاوقجي، وهو قائد من قواد جيش الإنقاذ وطلب من الثوار أن يزيلوا الألغام التي تحيط بالقرية ليتقدموا من القرية إلى باقي القرى لمهاجمة اليهود.. أزال رجال الثورة الألغام وإذ بصوت جنازير الدبابات تتقدم إلى القرية وتطلق نيران مدافعها. فزع الثوار فتبادلوا اطلاق النار بسلاحهم العادي «البارود»، وصلت الدبابات القرية فاحتلوا القلعة وباشروا بضرب النار على القرية، نيران المدافع كانت تحرق الأخضر واليابس. حاول الثوار الإستمرار بالمقاومة لكن إمدادات السلاح توقفت. استمر القتال واستمر الصهاينة بضرب القنابل، وقدم الطيران، فكان اليهود يرمون بالبنزين والمتفجرات على القرية، خاف الناس وذعروا وتفرقوا في الوعر، ظل قصف الطيران مستمراً من الساعة السابعة وقت الإفطار في شهر رمضان، حيث خرج الناس خوفاً على أرواحهم ومن ظلّ في القرية استشهد.. والبعض الآخر أنقذ من الموت وظلوا هناك حتى الآن. خرجنا مشياً على الأقدام ليلاً حتى وصلنا قرية الرامة، وعند وصولنا «الرامة» حزم أهل الرامة امتعتهم وخرجوا للزيتون قالوا لنا «إذا أهل صفورية خرجوا، كيف نبقى نحن»، خرجنا من الرامة وتوجهنا إلى سعسع وبعدها وصلنا إلى بنت جبيل في لبنان، كان الناس «فوق بعضها البعض» بقينا هناك ٢٦ يوماً حيث فتك بنا المرض، عانينا الكثير في «بنت جبيل» وأذكر أن بعض الدرك اللبناني كانوا يطلبون من بعض الناس بيع أطفالهم للعائلات اللبنانية التي لم تنجب أطفالاً. بعد هذه الفترة العصيبة، ذهبنا إلى البقاع ومن هناك تفرق الناس، قسم توجه لسورية والبعض الآخر للأردن والبعض الآخر استقر في لبنان، نحن سمعنا بأن إمكانيات العمل في سورية جيدة فتوجهنا هناك وأقمنا فيها حتى الآن.

السيدة غزالة الطاهر تعلق بحزن فتقول: «رحنا سورية وفي بالنا اليوم بنرجع وبكرة بنرجع واكتشفنا أنا لي صار هو القاضية» في بداية الخمسينات أعطتنا الحكومة السورية أرض المخيم لنقيم فيه، سكن الفلسطينيون في الخيمات حيث بنوا بيوتاً واستقروا فيها. العديد من الرجال التحقوا بالثورة فكانوا يذهبون إلى فلسطين متسللين للقيام بالعمليات، الذي يرجع سالماً كان يحدثنا عن استيطان اليهود لبلادنا، «قدم إلى ديارنا يهود من كل العالم عاشوا في بلادنا ونحن تشردنا!».

ويضيف السيد عارف موعد من قرية صفورية في ذكرياته عن قريته:

«أتذكر الأرض والبيت والشجر والزيتون والطبيعة الخلابة والأهل والأقارب وأهل بلدي وكيف شتتوا جميعاً في أقطار الأرض مما يصعب لم الشمل من جديد بينما يؤتى بأغراب عن بلدي يهوداً من روسيا واثيوبيا وأوروبا وأمريكا ليسكنوا في بيتي وعلى أرضي ويطمسوا معالمي وتراثي وهذه هي المصيبة الكبرى.



السيد عارف موعد

في تلك الظروف برأيي كان ممكن للهيئة العربية العليا والزعامة السياسية الفلسطينية أن تحتوي من كان يخدم في الجيش الإنكليزي وقوة حدود شرق الأردن والبوليس الفلسطيني على اختلاف أنواعهم ليشكل منهم جيشاً مدرباً ذا قيادة واحدة مع التسليح والتخطيط ليؤدي واجبه الوطني خير أداء، مع تنظيم الشعب وتسليحه، عندها كان من الممكن أن تكون النتائج أفضل في ظل توجيه جديد وشعب مسلح يقاتل حتى النصر.

أتذكر الأرض والوادي والشجر والأزهار والبيوت التي هدمت والشعب الذي شرد. ووطن لاينسى بجماله وحسن مناخه وطيب أهله ووحدة شعب بجميع طوائفه ومذاهبه، قريتي لازالت تنتظر أصحابها وهي تتسع لأكثر من مائة ألف نسمة حوّلها اليهود أحراشاً وحدائق ومتاحف وهي فارغة الان من السكان، بينما أهل بلدي لايزيد عددهم على خمسين ألف نسمة، منهم من سكن الناصرة وضواحيها والغالبية شتتوا في أصقاع الأرض ولكنهم تواقون ليوم يعودون فيه إلى هذه القرية واسمها «صفورية» ويلتئم شملهم بعد طول غياب.

والتقينا من مدينة صفد السيدة ميسر صبح التي تناهز من العمر ٧٨ عاماً.

تحدثنا عن مدينتها صفد

شكر

تتقدم اسرة تحرير «الهدف» بجزيل الشكر للجالية الفلسطينية في مدينة روتيلينغن الألمانية لتبرعهم بمبلغ 500 مارك ألماني لمجلة «الهدف» و 500 مارك أخرى للشقيقة «الحقيقة» بمناسبة عيد العمال العالمي.

فتقول: صفد عاصمة الجليل الأعلى، مركز قضاء، تعتبر ذات أهمية استراتيجية وتجارية، معظم أهلها يعملون بالتجارة، تشتهر بالعنب والحمضيات، منذ القديم كانت محطة لمرور القوافل ومركزاً تجارياً للأقمشة والأدوات الكهربائية، تشتهر بصناعة الأقمشة والخشب والجلديات وصناعة المواد الغذائية مركزاً هاماً للتعليم.

عن أخبار ومخططات الهجرة تتحدث بكثير من العفوية قائلة:

«يجي مين ما يجي إحنا بديارنا ما حدا بيقدر يحل محلنا، كيف ما كنا نسمع سمعنا بالمخططات ولكنا ما كنا نتوقع أبداً حصول ما حصل، اللي صار كان فوق تصورنا، الله يهد اليهود ويهد الإنكليز اللي لعبوا علينا» كنا نسمع بوعد بلفور كان الشباب يردد في المظاهرات «وعدك يا بلفور خايب».

عن ذكريات الهجرة تحدثنا:

سمعنا أن الإنكليز سيجلون عن فلسطين، عند جلائهم من صفد، صعدت النسوة على سطوح المنازل وبدأن بالزغاريد، واقام الشباب الدبكات، ولما وصل الإنكليز إلى قرية «الجاعونة» «شرعوا بإطلاق القنابل على المدينة فقتل الكثير من أبناء المدينة، الإنكليز كانوا يضربون من جهة وعصابات الهاغانا تضرب من جهة أخرى، كانوا يضربون بالقنابل والرصاص من يشاهدونه في الطريق، خرجنا من صفد مذعورين بسبب الحرائق التي كان يفتعلها الصهاينة وبسبب سماعنا بالمجازر التي حصلت في دير ياسين، خفنا على أعراضنا وشرفنا والشرف غالي. قُتل عدد من الناس في هذه الفترة فخرجنا بملابسنا ولم نفكر أبداً بإحضار أي شيء من منازلنا لأننا لم نتوقع أبداً بقاءنا لهذه المدة الطويلة كنا نعتقد أن خروجنا لن يستمر أكثر من أيام»

تضيف السيدة «ميسر صبح». عن اسباب الخروج قائلة:

ـ جيش الإنقاذ كان يتمركز في المدينة وقد شجعوا الناس على الخروج حفاظاً على أرواحهم من جهة، ولكي يتولوا مهاجمة العدو من جهة أخرى، ولكن الذي حصل أن الجيش انهزم بسبب خيانة الحكومات العربية، فالملك عبد الله منع الإمدادات العسكرية عن فرق الجيش الأردني، وجمال عبد الناصر وصلته إلى منطقة «الفالوجة» أسلحة فاسدة من الملك فاروق «اللي حصل كله خيانة بخيانة» دخل اليهود بالدبابات وتمركزوا بعد اطلاق النار العنيف في القلعة التي تقع وسط المدينة وشرعوا بقذف القنابل والبنزين على أحياء المدينة، فأسرعنا بأولادنا، وتركنا كل ما نملكه.

تعلق السيدة هيفاء صبح، قريبة السيدة ميسر على هذا الموضوع قائلة:

قالت لي الوالدة أن والدي عندما حاولت أمي أخذ بعض مصاغها الذهبي أقسم عليها بالطلاق قائلاً «شو مفكرة إنها روحة بلا رجعة».

السيدة ميسر صبح بسخرية تعلق قائلة: «وطلعنا روحة بلا رجعة»

ومن قرية تليل ـ شمال فلسطين التقينا السيد حسين اسماعيل حسين، مواليد ١٩٢٩، ويسكن الأن مع اسرته في مخيم سبينة

بدأ بالتذكر وقال: هاجمت عصابات الصهاينة المسماة «شتيرن» قريتنا أحرقوها وخرجنا بلا شيء على أمل العودة إليها بعد فترة بسيطة بوعد من القائد / ساري/ قائد منطقة جبل كنعان كان شعور بالمرارة والكآبة والأسى.

في ظل الظروف الصعبة وحالة الإنهيار النفسي والمادي المفاجئ كان التصرف والتسرع بالنزوح على الدول المجاورة أمراً طبيعياً ولكن كان من الأجدى التمسك بالأرض والتجذر بها.

أتذكر في غربتي وبعد خمسين عاماً من اللجوء قريتي وشوارعها اتذكر الألفة والمحبة التي كانت



السيد حسين اسماعيل حسين

تغمر جلساتنا أتذكر دكان حمودة ومسجد القرية شامخاً ينادي حي على الصلاة ويشتد شوقي فتنسل من عيني دمعة حزن على كرامتي التي ضاعت مع ضياع الأرض.

ويتساءل السيد حسين اسماعيل بألم:

هل تقبل أن تضيّع كرامتك؟؟

ويضيف مسرعاً: كرامتي في عودتي إلى أرضي ووطني ولاحل سواه ولو في خيمة على تراب وطني في كل الأحوال.

لقد قدمنا قوافل من الشهداء قرابين من أجل الإنتصار والعودة. ولم يتحقق ذلك الإنتصار لعدم الإصطفاف بالطريق الصحيح ألا وهو وحدة الثوار حملة البنادق باتجاه الوطن والأرض وحسب وأملي كبير في الثوار المحافظين على تلك البندقية رغم كل الصعاب.

أشكركم متمنياً لكم ثوريتكم يداً بيد إلى الوطن لنحقق النصر بإذن الله.

والتقينا بالسيد حسين موسى حسين من قرية النورية القاطن في مخيم سبينة، فحدثنا عن ذكرياته فقال:

قبل النكبة كنت أقطن قرية النويرية، كانت عصابات الصهاينة تقوم بضربات ليلية على سكان هذه القرية والمناطق الأخرى حيث قامت عصابات الهاغانا وشتيرن بارتكاب المجازر بحق شعبنا الفلسطيني في العديد من القرى منها (دير ياسين ـ الناصرية ـ عين غزال)

وأهم ما أتذكره هو إصابة والدي وعدد من سكان القرية



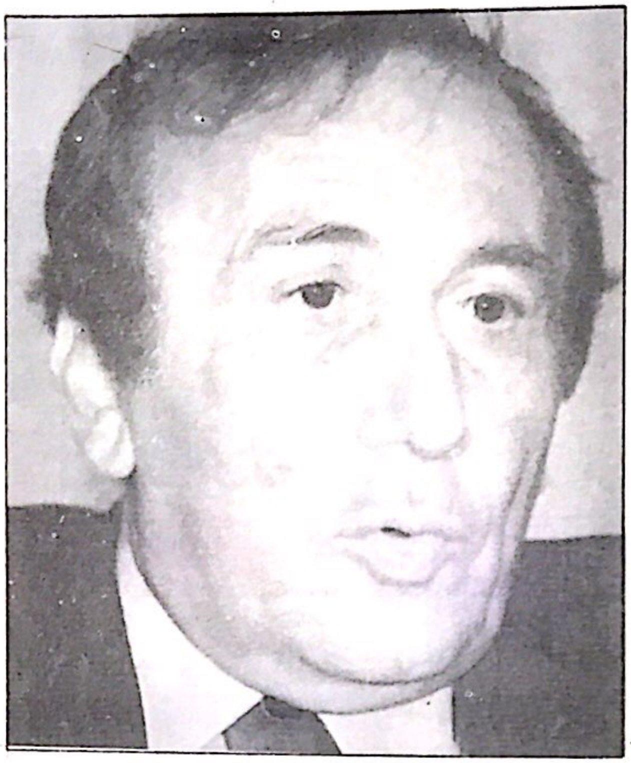
السيد حسين موسى حسين

أثناء التصدي لمواجهة هجمات هذه العصابات رغم قلة الأسلحة لدى سكان القرية وبقي سكان القرية يتصدون لهذه الهجمات إلى أن قامت هذه العصابات بدخول القرية وتشريد سكانها إلى سوريا، لايوجد أشد من ذلك ألماً عندما يشرد أصحاب الأرض ويتركون ديارهم ويدخلها عصابات ارهابية استعمارية.

كما قلت فإن أهل القرية كانوا يتصدون للضربات الليلية التي كانت تقوم بها العصابات الصهيونية إلا أن ميزان القوى كان لصالح هذه العصابات لأن أهل القرية لايملكون المقومات من أجل التصدي لهذه الهجمات من أسلحة سوى بعض البنادق الألمانية ولم يكن أهل القرية منظمين ومعبئين ضد هذه العصابات في تلك المرحلة. إضافة لدعم الإنكليز لهذه العصابات، بالمحصلة في تلك الظروف لم يكن من الممكن أن تكون نتائج غير ما حصل من تشريد وتهجير لأهل القرية.

لم يغب عن بالي أي شبر من أرض الوطن القرية التي ولدت ونشأت فيها ومدن فلسطينية عديدة قمت بزيارتها قبل النكبة. فلسطين وطني ودائماً بذهني لذلك لايمكن أن نتخلى عن حقنا في العودة إلى أرضنا فلسطين ولا نقبل بغيرها وطناً بديلاً وأقبل بأسوأ ظروف المعيشة ولكن على أرض وطني فلسطين وتحديداً في قريتي النويرية مسقط رأسي وأرض والدي وأجدادي ■■

المُهَرولُون



نــزار قبــانـي

قبل ايام ودعت دمشق بالدموع والفل والياسمين
الشاعر نزار قباني الذي توقف قلبه عن الخفقان في لندن إثر مرض عضال.
ورغم أن الفقيد الراحل مشهور بقصائده عن المرأة
إلا ان هموم امته لم تغب أبداً عن أشعاره حيث لفلسطين مكانة مميزة فيها..
بمناسبة خمسين عاماً عن النكبة أخترنا لنزار قباني
هذه القصيدة التي نشرها في أيلول ١٩٩٥.

(١)
سقَطَتْ آخرُ جُدرانِ الحيَاءْ.
وفرحْنَا...
ورقصْنَا...
وتبَاركنا بتوقيع سلامِ الجُبناءْ...
لم يعدْ يُرعبِنا شيءْ.
نقد يبستْ فينا عُروقُ الكبرياءْ...

(٢)
سقطتْ...
- للمرة الخمسينَ - عُذريَّتُنا...
دونَ أن نهتزَّ... أو نصرخَ...
أو يرعبنَا مرأى الدماءْ...
ودخلنا في زمان الهَروَلةْ...
ووقفنا بالطوابير، كأغنامٍ أمامَ المِقْصَلةْ...
وركَضْنا... ولهَثْنَا...
وتسابقنا لتقبيل حذاءْ القَتَلَةْ...

(٣)
جوّعوا أطفالنا خمسينَ عاماً.
ورموا في آخرِ الصوم إلينا...
بصَله...

(٤)
سقَطَتْ غرناطةْ
- للمرة الخمسينَ - من أيدي العربْ.
سقط التاريخُ من أيدي العرب.
سقطتْ أعمدةُ الروح... وأفخاذ القبيلةْ...
سقطتْ كلُّ مواويل البُطُولةْ...
سقطتْ إشبيليةْ...
سقطتْ إنطاكيةْ.
سقطتْ حطينُ من غير قتالٍ.
سقطتْ عموريةْ.
سقطتْ مريم في أيدي الميليشيات،
فما من رجل ينقذُ الرمزَ السماوي،
ولا ثم رجولةْ...

(٥)
سقطتْ آخر محظّياتنا
في يد الروم، فعن ماذا ندافعْ؟
لم يعدْ في قصرنا جاريةٌ واحدةٌ...
تصنعُ القهوةَ... والجنس...
فعن ماذا ندافعْ؟؟

(٦)
لم يعدْ في يدنا...
اندلسٌ واحدةٌ نملكُها.
سرقوا الأبواب،
والحيطان،
والزوجات، والأولاد،
والزيتونَ، والزيتَ،
وأحجار الشوارعْ.
سرقوا عيسى بن مريمْ.
وهو مازال رضيعاً.
سرقوا ذاكرة الليمونِ...
والمُشمش... والنَعْناع منّا.
وقناديلَ الجوامعْ...

(٧)
تركوا علبةَ سردينٍ بأيدينا
تُسمى (غزةً)...
عظمة يابسةً تدعى (أريحا)...
فندقاً يدعى فلسطين،
بلا سقفٍ ولا أعمدة...
تركونا جسداً دون عظامٍ
ويداً دون أصابعْ...

(٨)
لم يعدْ ثمةَ أطلالٌ لكي نبكي عليها
كيفَ تبكي أمةٌ...
أخذوا منها المدامعْ؟؟

(٩)
بعدَ هذا الغزل السريَّ في أوسلو
خرجنا عاقرينْ...

وهبونا وطناً أصغر من حبة قمحٍ...
وطناً نبلعهُ من غير ماءٍ
كحبوب الأسبرين!....

(١٠)
بعد خمسينَ سنةْ...
نجلسُ الآن، على الأرض الخرابْ.
ما لنا مأوى... كآلاف الكلابْ!!...

(١١)
بعد خمسين سنةْ...
ما وجدنا وطناً نسكنه
إلا السرابْ.
ليس صُلحاً...
ذلك الصلحُ الذي أُدْخِلَ كالخنجرِ فينا...
إنه فعْلُ اغتصابْ!!...

(١٢)
ما تفيدُ الهرولةْ؟
ما تفيد الهرولةْ؟
عندما يبقى ضميرُ الشعب حياً
كفتيل القنبلةْ...
لن تساوي كلُّ توقيعاتِ أوسلو...
خَرْدَلَهْ!!...

(١٣)
كم حَلُمنا بسلامٍ أخضرٍ.
وهلال أبيضٍ.
وبحر أزرق.
وقلوع مرسلةْ...
وجدنا فجأة أنفسنا
في مَزْبَلَهْ!!

(١٤)
من تُرى يسألهم
عن سلام الجُبناءْ؟؟
لا سلام الأقوياء القادرينْ.
من تُرى يسألُهم؟
عن سلام البيع بالتقسيط...
والصفقات...
والتجارِ... والمستثمرينْ؟
أسكتوا الشارع
واغتالُوا جميعَ الأسئلةْ....
وجميعَ السائلينْ....

(١٥)
وتزوجنا بلا حُبٍ...
من الأنثى التي ذاتَ يومٍ، أكلتْ أولادنا....
مضغَتْ أكبادَنا....
وأخذناها إلى شهر العسلْ.
وسكرنا.... ورقصنا....
واستعدنا كل ما نحفظ من شعر الغزلْ
ثم أنجبنا ـ لسوء الحظ ـ أولاداً مُعاقين
لهمْ شكلُ الضفادعْ...
وتشردنا على أرصفة الحزنِ،
فلا من بلد نحضنُهُ....
أو من وَلد!!

(١٦)
لم يكُنْ في العرس رقصٌ عربيٌ
أو طعامٌ عربيٌ.
أو غناءٌ عربي.
أو حياءٌ عربي.
فلقد غاب من الزَّفة أولادُ البلدْ.

(١٧)
كان نصفُ المهر بالدولار...
كان الخاتمُ الماسي بالدولارِ....
كانت أجرة المأذونِ بالدولار...
والكعكةُ كانتْ هبةً من أمريكا...
وغطاءُ العُرس، والأزهار، والشمعُ،
وموسيقى المارينزْ...
كلُّها قد صُنعت في أمريكا....

(١٨)
وانتهى العرسُ.... ولم تحضرْ فلسطينْ الفرَحْ.
بل رأت صورتها مبثوثةً عبر كل الأقنيةْ....
ورأتْ دمعتَها تعبرُ أمواجَ المحيطْ...
نحو شيكاغو... وجيرسي... وميامي....
وهي مثل الطائر المذبوحِ تصرخْ:
ليس هذا العُرسُ عُرْسي....
ليس هذا الثوبُ ثوبي....
ليس هذا العار عاري...
أبداً... يا أمريكا...
أبداً.... يا أمريكا....
أبداً... يا أمريكا....

د. جورج حبش يبرق معزياً بالفقيد الكبير نزار قباني

أبناء الفقيد الأحباء هدباء وزينب وعمر
الأخوة أشقاء الفقيد المحترمين
وعموم آل قباني الكرام

تلقينا ببالغ الحزن والأسى النبأ المفجع، نبأ رحيل الشاعر العربي الكبير نزار قباني ابن دمشق وبلاد الشام، ابن الأمة العربية من المحيط إلى الخليج.

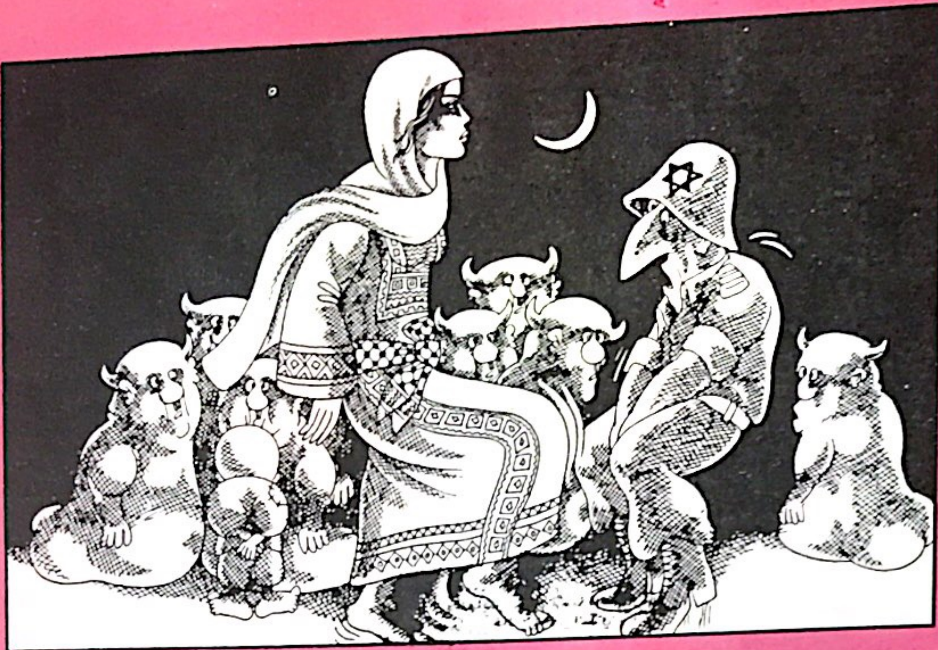
اسمحوا لي بهذه المناسبة الأليمة، باسمي وباسم عقيلتي أن نتقدم لكم ولأنفسنا بأحر وأعمق التعازي بهذا المصاب الجلل.

إن رحيل المبدع والشاعر العملاق لايشكل خسارة فادحة لأسرته وأهله وذويه، بل يشكل خسارة لأسرته الكبيرة على امتداد الوطن العربي ولعشاق الشعر في العالم أجمع لقد أنشد نزار لأمته أروع القصائد وأجمل الأشعار فكان بحق شاعرها الكبير الذي ستخلده الأجيال لأنه حول الشعر إلى خبز يومي للناس فاستحق أن يسكن عقول وقلوب الجميع.

حمل قضية فلسطين في قلبه الكبير فأنشدها أجمل قصائده وأشعاره وحبه العميق. إن ما يخفف الألم بخسارته ورحيله أن شعره باقٍ أبداً نشيداً للحياة والخبز والحرية.

مرة أخرى أرجو قبول أحر تعازينا

وتفضلوا فائق الإحترام والتقدير
أخوكم
د. جورج حبش وعقيلته
السيدة هيلدا حبش
دمشق ١٩٩٨/٥/٧



خمسون عاماً على نكبة فلسطين





شارك في هذا العدد

د. جورج حبش
أبو علي مصطفى
فاروق القدومي
د. أنيس صايغ
د. ماهر الطاهر
أحمد نبيل الهلالي
هاني عياد
سعيد سيف
دانيال نعمة

د. رفعت السعيد
حلمي شعراوي
د. عمار بكداش
نصر شمالي
د. عبد الحسين شعبان
ابراهيم البدراوي
ميشيل كيلو
د. أحمد برقاوي
د. سيد البحراوي

ماجد كيالي
خليل جنداوي
أحمد جابر
سمير الزبن
حمدان حمدان
د. عدنان مسلّم
علي الكردي
عبد الكريم درويش
خزامى رشيد